مرسال الحب

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: مرسال الحب
المـــؤلـــف ثريا محمد الحبشي
موضوع الكتاب:
عدد الصفحات: 224 صفحة
عدد المـــلازم: 14 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17 × 24
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
الترقيم الدولي: 978-9921-815-344

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

مرسال الحب

تأليف

ثريا محمد الحبشي

دار البشير

قال الله تعالى:

(يحبّهم ويحبّونه)

الحبّ بين البشر ممتلئ بالشوائب

أمّا حبّ الله هذا وحده الذي لا تشوبه شائبةٌ

إلى الحبيب الغالي

إلى والدي رحمة الله عليه

اللهم ارحم أبي الحبيب رحمة واسعة

وأدخله فسيح جناتك يا رب

الإهداء

إلى الذين غرسوا بداخلنا بذور الحب

إلى الذين علّمونا كلماتنا الأولى

إلى الذين تفتّحت على أيديهم أزهارنا

وإلى الذين ظلّوا يدعموننا حتى النخاع

إلى الذين أحبّونا بصدق

إلى أمي الحبيبة مثال الرحمة والحب

عن القلوب التي في الحياة مجاهدة

عن كلّ حبٍّ أركانه كاملة.. وعن كلّ حبٍّ غادر دون أذى

عن الرضا ولحظات السعادة الحقّة التي تتجلى دومًا في عيون المحبين

عن كل شيءٍ جميل ومسالم

إلى الحب وعن الحب أهدي دومًا خواطري

نسيان

السمكة ضعيفة جدًا في الصحراء قويّة في الماء، نعم جدي أفهم، لا جمال أنت لا تفهم، هذه هي المشكلة، أنت لا تفهم، كفّ عن جلد نفسك بتلك الأفكار، حرر نفسك منها، بلغت عامك التاسع هذا العام، وما زلت كما أنت لا تشبه أباك البتة، ليتني رحلت قبله، كان الألم سيصبح أقلّ، كل من أحببتهم تخلوا عنّي رحلوا باكرًا وتركوا إرثا ثقيلًا، إنه أنت، وصلت للنهاية فكيف يريد مني الجميع البدء بك ومعك من جديد، جدي لا أفهم ماذا تريد أن تقول، أرأيت؟! هذه هي المشكلة أنت لا تفهم.

السمكة تأملت كلمة جدي، لا أعرف عن الأسماك سوى أنها تبدو صغيرة غير صالحه للأكل حين نصيدها من ترعتنا الممتدّة أمام بيت الجد، الأمر يختلف عن مشاهد مسلسلي الكرتوني المفضل ماهر الصيّاد، في كل حلقه يبدو أمامي بطلًا عملاقًا وفي نهايتها يحصل على ما يريد، يا الله كم أحبّ مشاهدته بعد العودة من المدرسة، إنه يبث في داخلي سعادة، يمنحني الأمل ويعلمني كلمة دائمة بين ثنايا مقدمته التي أصبحت أحفظها عن ظهر قلب: «الصيد يمنحنا الصبر».

إن الغرفة تبدو صغيرة لكنها بالنسبة لي بدت دائمًا أكثر اتساعًا من العالم بأسره، عالم لا أجد فيه بشرًا يمكنهم أن يمنحوني وقتًا بالحضور.

السّكن في الطابق الأرضي ممتلئ بالعيوب، أهمها برده الرّخيم حين يحل الشتاء ضيفًا ثقيلًا لا أحبه برغم عشق الآخرين له وانتظارهم له من العام إلى العام، أراه مجهدًا، يشعل جدي أحطابًا صغيرة يظل يغذّيها بأخشاب علها تمكث وقتًا أطول، يخبرني أنه يتساءل أحيانًا لِمَ كان عمرها قصيرًا إلى هذا الحد؟ ولِمَ كان عمره طويلًا كي يشهد أوجاع الحرب وخيباتَ الهزيمة وبوادر النصر صعودًا ونزولًا؟!

تفلح الأحطاب في منحنا ما نريده، نحملها حين تخمد قليلًا، نزج بها إلى ساحة البيت الداخلية، ولا نسدل الستائر؛ لأننا لا نملكها.

أقرّب يدي الصغيرة بحرص أداعب لهبًا غير مرئي يشعرني بالسعادة، وأخبر نفسي

متسائلًا: هل يمكن أن تعود أعواد الأخشاب للحياة مرة أخرى؟ هل يمكنها أن تحب؟ مؤكد أن بموتها سيحزن الكثيرون عليها، مؤكد أن الفراق مؤلم، رائحة احتراقها كم أحبها! أرضية البيت من الإسمنت الرقيق، يجيد جدي صقلها كلّ يوم بالماء، وتنظيف الحصير ونفض الكنب؛ كي ترتاح أجسادنا عليها في المساء حين يؤدي دوره في استقبال الأقارب وإلقاء السلام، لا أحب النوم هنا، أترك المكان أغدو صاعدًا إلى الطابق الأخير، أفترش الأرض وأطيل النظر للسماء، وأغفو حين تهب نسائم الصباح فتبدأ رحلتي وحدي من البيت للمدرسة مفتقدًا يومي الأول، أبي حين يوصلني منبهًا لي أن يكون مكاني الدائم هو الصف الأول؛ كي أرى بعمق ووضوح، ودعتَنا مبكرًا يا أبي، ليتك كنت معي، كان يمكن أن تمنعها، ربما لم تكن لترحل باحثةً عن حياة جديدة.

سمعتها تقول لجدي وقد اشتدّ غضبها وعزمها دون تقبل للوم أو عتاب، أستحق الحياة، لا يمكنني العيش هكذا، النسيان هو نسيان غدر الحب، نسيان جبن الأصدقاء، ونسيان رحيل الأحبّة، كلها كانت متاحة مقبولة وربما طبيعيّة، لكن هل يمكن لأم أن تنسى روحًا نمت بداخلها تسعة أشهر؟! لن أمنعها.

كنسيان الموتى بعد مرور عدّة أعوام نحصد عليهم وجعًا يمزّقنا، يثمر الدعاء برهةً ربما أعوامًا لكنه في النهاية يقلّ مع الوقت مع النسيان؛ لتبقى ذكرياتهم ألمًا حاضرًا دون دموع.

جدي جدي، قلتها وأنا أسرع في الدخول للبيت عائدًا بسرعة من المدرسة وبفرح يخطف الفؤاد أن أمي قد حضرت، أخبرني عامر ابن الخال أن أمي عندهم منذ أمس وستقضي اليوم معهم، كم أشتاق إليها، سأذهب جدي، اذهب جمال اقضِ وقتًا طيبًا، أرجو أن تفهم بعد ذلك، نعم جدي أعلم كلمتك المعتادة، أجابني بحزم نابع عن ثقة لا هذه مشكلتك جمال أنت لا تفهم.

لم ألتفت لكلماته كثيرًا، حين شرعت في تبديل ثيابي بسرعة أكاد أرقص فرحًا من الاشتياق، آثرت أخذ عجلتي الجديدة، فرحت بها كثيرًا، اقتنيتها بنفسي، لم يكن جدي موافقًا، لكنني أنفقت مصروف عام كامل عليها، وابتسمت حين حققت أمنيتي، كم بتّ ليلتي تلك سعيدًا، تحقيق الأحلام أمرٌ ملهم حقًا، يجعلني أفرح، يجعل قلبي يضحك وينسيني فراغًا قاحلًا في كل مكان.

سأخبر أمي اليوم عن مدرس التاريخ، سأشكو لها طريقته الفظة في التعامل، معي إنه لا يمنحني وقتًا كافيًا للقراءة، أعترف أنا بطيء قليلًا لكن من حقّي أن يصبر عليّ وألا يجعلهم يضحكون حين أبدأ في القراءة لا أعرف كيف يمكن علاج هذا الأمر.

ما بالك جمال؟! لا داعي للتفكير في الأمور التي تزعجك غدًا إجازة وأنت في الطريق إلى أمك الآن فلا تفكر في كل الأمور التي تقلقك غدًا، لا مجال للتعاسة اليوم.

مؤكد أنني سأجد حلًا عندها من الممكن أن ترسل الخال مصطفى ليتفقد المدرسة، يوصي المدرس والوكيل والمدير، يمنحني دعمًا، يجعلني أبدو قويًا حتمًا الحل سيكون هكذا، نعم سيحدث هذا، ورحت أدندن أغنيتي المعهودة، إنها المرة الأولى التي أكتب فيها أغنية صغيرة وأنا أخاطب النجوم في الطابق الأخير؛ ولأنني لا أجيد القراءة السريعة ولا تخلو من أخطاء بسيطة كان يمكن علاجها لو منحت دعمًا معنويًا ولو قليلًا؛ لذا كانت كتابة الأمنيات على الأوراق هي العلاج.

ها قد وصلت بيت الخال، كبيرٌ تصطفّ فيه أشجار العنب وتزيّنه رائحة الفواكه الحمضية في وقت الازدهار، يا لها من رائحة زكية منعشة، إنه الربيع، توقف خالي حين وضعت دراجتي كي تستند برفق على أحد الأعمدة حين بدا الخال متفاجئًا وحين رأيت رأسًا صغيرًا يمتد بحرص من خلفه، وقد بدا عليه الارتباك مبتسمًا، بادرته: كيف حالك خالي؟ أين أمي؟ توقف وكأنه لا يمكنه الإجابة قائلًا لقد سافرت منذ ساعة مع زوجها، لكن من أخبرك أنها هنا؟ أخبرني عامر ثم اختنق صوتي حين خفت وأنا أبادره بالسؤال قائلًا: هل سألت عليّ؟ ليكون جوابه الصمت، إنه صادق لا يكذب عليّ، أحترم فيه هذا، لكنني تمنيت لو كان قد كذب.

أنا لست حزينًا
قلبي ليس حزينًا
أنا خالي الوفاض
لا مجال للحزن يا قلبي الآن
لديك الكثير لتعيشه ولديك الأحلام
أحلامك ستكون كبيرة
وستبدو سعيدًا

ستضحك كثيرًا ولن تبكي الآن
أنا لست حزينًا
قلبي ليس حزينًا

كانت كلماتي التي أدندن أبياتها في طريق العودة مع دراجتي البسيطة دواءً حلمت أن أكتبه علاجاً في ورقة طبية علّه يشفي جرح قلبي، لن أبكي الآن..

لكنني بكيت وشرعت أصعد متخطيًا الطابق الأرضي، لقد نام جدي، ثم الطابق الثاني الذي أخشاه، كم أخافه!! أشعر أنه مسكون بالجان، ثم الطابق الثالث حتى وصلت إلى النجوم، لا بأس جمال مؤكد أن أمي ظنّت أنني نمت وأن لديّ مدرسة باكرًا، وكثيراً من الدروس التي ينبغي أن أحفظها.

ما هذا؟ يبدو أن طيور الحمام قد ماتت، إن العام قد أحضر معه أوبئة، والمحصول الزراعي من الذرة هذه السنة أيضًا تأثّر، حملنا كمية قليلة منه أنا وعم نجيب حتى وصلنا بها للسطح في الإجازة الصيفية، كنت أتولى فرطها، نزع الحبات وفصل اللب وتخزينه لاستخدامه شتاء في التدفئة، يجيد جدي صنع مدفئتنا الشتوية ويصفّها على شكل هرم دقيق، كم هي بسيطة وكم هي مرهقة بدخانها الذي يسبّب لصدري الضيق، وكم هيَ جميلة حين تهدأ كي تصبح بعد ثورتها وضيقها رمادًا يطفئ الأوجاع ويجعلنا ننسى.

أنا النسيان، نعم هذا عنوان دفتري الخاص وأنا على مشارف العام الأخير من المرحلة الإعدادية؛ لأنها الحقيقة؛ لأنني النسيان الذي أرادته أمي حين كانت تحضر كثيرًا ولا تخبرني، لا تهتم بتلك القطعة منها.

هناك أربعة أولاد غيري يحتاجون وقتها ودعمها وحنانها، أما أنا فلا..

أوقات الأعياد كانت تتفاجأ أحيانًا بحضوري، تسألني عن أحوالي، يقاطعنا الصغير فتنسى أنني لم أخبرها بالإجابة، يمضي اليوم وتمضي هي الأخرى معه، ويمضي وقتي معها، وكأنه سراب يتجلّى!

حين تكون الحقيقة أمامك ظاهرة ويرفض قلبك قبولها ويحن لإجابة مختلفة في كل مرة عن تلك التي يحضرها عقلك جاهزة قائلًا لك أنتَ نسيان عليك أن تفيق جمال..

أوقاتي التي تلت تلك الأيام لم أكن ألبّي دعوة الخال، ثم فطنت أنها ما كانت منها حين قابلني في وقتٍ قريب متسائلًا: لِمَ لَمْ تحضر حين أرسلت لك في العيدين السابقين؟

لأخبره لا تقلق سأحضر خالي إن شاء اللهن وتمر الأعياد ولا يرسل لي أحدٌ ولا ألبي أنا طلبًا غاب في الزحام؛ لأنني أصبحت مقتنعًا الآن أنني نسيان.

لا أنتمي لأشجارهم وكثرة الثمر تغني عن البحث عن جذر كان ينتمي يومًا لحديقة بيتهم، أصبح مع الوقت صلبًا متجذرًا؛ لأنه لم يجد الراوي والراعي كي يكمل فقط وجوده على قيد الحياة.

حتى مع وفاة جدي لم يهتم أحدهم بشيء ولم يجذب الانتباه البقاء بمفردي بقدر ما بعث في جوفهم من خوف أن أنضم تحت رعاية من يسمون أنفسهم أهلًا، آثرت الابتعاد، يخفون وجوههم وأبتسم لهم ثم أمضي..

السمكة ضعيفة جدًا في الصحراء

أنت لا تفهم جمال

ما الذي كنت تحاول قوله لي جدي؟ ما الذي لا أفهمه من جملتك هذه؟

لماذا أصبح هذا الأمر لغزًا حائرًا إلى هذا الحد؟

برغم أوجاعي معك لم يكن لدينا غير بعضنا البعض

طريقنا معًا وأنت تستلم معاشك ومعاش أبي ومصروفي الذي أنتظره بفارغ الصبر كلّ أول شهر غير قابل للزيادة، برغم كل شيء كم كان الطريق يزعجني مع قصره كان طويلًا لبطء حركتك، أما اليوم ما أطول أيامي دونك خالية من الأنس المزعج ولحظات الخوف الممزوج بالحنان النادر والنقد المستمر..

احذر هذه الحفرة، معقول جدي!! لقد عرفت كم مرة عليك تحذيري، تبسم قائلًا تمنّيت لسنوات لو كان قد تم علاجها، لكم مر من سنون وظلت هي كما هي وظللت أنت كما أنت سريع الانفعال ولا تتعلم، ليتك تؤتى الحكمة ومن أوتي الحكمة فقد آتاه الله خيرًا كثيرًا..

ممتلئون بالخبرة أولئك الذين سبقونا وظلّ خذلانهم على مدار العمر دروسًا حفرت بقسوتها نقوشًا عملاقة على جدرانهم أصبحوا يرددونها مرارًا وتكرارًا دليلًا على وجعها وعمق أثرها الذي يجعلك تتحدث عنها كثيرًا..

لم يتبقَّ شيء، بيت كبير لا ينازعني فيه أحد؛ لأنني وكما يعرف الجميع الوريث الوحيد برغم كل الفراغ الذي كنت أشعر به، برغم وجود جدي، وبرغم أنه كان دائم

النوم الباكر ودائم الإرهاق والصمت حد عدم الشعور بوجوده إلا أنني شعرت بشوق كبير له وبافتقاد حديثي الدائم معه وألغازه التي كان يمنحني إياها ويخبرني أنني سأجد الإجابة بين طيّات الحياة.

لم يمنحني الخبرة، لم يمنحني النصح، لم يهدِني حِكمًا، ولم يرسم لي طريقًا يرشدني من خلاله، لكنني ولأول مرة أفهم القصد، أرادني أن أفكّر، أن أحلم وأن أكتشف بنفسي..

تعلم جمال، تعلم كيف تصبح رجلًا، تعلم أن تخوض معركتك الخاصة مع الحياة، والأهم تعلم أن تنتصر..

ألمس الأوراق، هي طريقتي الخاصة في كل قصيدة أكتبها، تاريخ أسجل به وقتي الخاص، كيف كانت ركيكةً خالية من الوزن ومن القافية، كقصيدة الدموع التي كتبتها بعد عودتي، كم كانت بسيطة لكنها بالنسبة لي كانت الأفضل، وكم تلتها من قصائد، تحسن الخط والوقف والنظم وسرعة القراءة، ويسألونني في الجامعة عن الكتابة وتاريخها، هل هي هبة أم دراسة؟ هل قراءة لأمجاد العمالقة في الأدب وعلومه؟ أخبرنا عنها...

أما أنا فأقول لهم: إنها انعكاس لألم عظيم

العام الثالث في الجامعة وجه أمي تغير قليلًا، قد بدت عليه بعض التجاعيد البسيطة، أجيب دعوة الخال لوقت العيد، أراها وقد أتت متحمسة تطلب مني النصح في نوع الغذاء المناسب لهذا العمر لصغيرها الجديد، إنها تحتار، تخاف عليه كثيرًا وتتساءل عن جسده الضئيل، تلوم نفسها بشدة؛ لأنها لا تجيد اختيار الطعام الجيد والمناسب لهذا العمر الممتلئ بعناصر غذائية مفيدة، وتخشى عليه من الهواء والماء ورياحين الأشجار، كم أردت الصراخ يومًا لأخبرها: أين أنا بالنسبة لك؟ أين كنت في ذاكرتك؟ ولماذا لم تريني؟ ثم عدت وأنا أقول لنفسي كلمة جدي أنتَ لا تفهم جمال هذه هي مشكلتك الآن، أفهم أنا نسيان..

لا تريد أن تكون جرّاحًا للقلوب جمال، قالها دكتور سليم وهو يخبرني بمدى جدّيته ونصحه لدخول هذا القسم لأخبره بجدية:

لا أريد أن أجرح القلوب

لتنطلق منه صرخة مدوية هكذا ظننتها قبل أن أفطن لكونها ضحكة صاخبة، إن جمال الشاعر يطغى عليك الآن، ثم عاد بعد برهة طويلة من الضحك الذي لم يزعجني

حين ضحكت أنا الآخر لشدة ضحكه، ليقول ستعالج القلوب جمال

القلب هنا مشيرًا لعقله لا هنا مشيرًا لصدره

أعدك دكتور سليم أن أفكر في الأمر

يقولون إنّ دراسة الطب صعبة، وإنها بحاجة لبذل كثير من الجهد المستمر والنضال حتى النهاية دون انتظار نتائج عملاقة، أما أنا فوجدت نفسي خلف كل هذا أحب وأكتب عن الحب، إنها زميلة الدراسة، يجمعنا مكان واحد، لا تعرف عن إعجابي بها شيئًا، ولا أملك أنا قدرة على إخبارها، لكنني أكتب عنها ولها، ليت العامين القادمين يمرّان سريعًا، لا يمكنني التقدّم لها دون أن أكون حاضرًا ومنسقًا لكل شيء، لا بأس جمال، سأخبر أباها أنني في بداية الطريق وأن لديّ بيتًا من ثلاثة أدوار، وأن بدايتنا ستكون بسيطة لكنني مستعد لإحضار القمر والنجوم لها متى تيسرت الأحوال في المستقبل القريب، سأخبره أني على استعداد للسفر، وأن دخل الطبيب خارج حدود الوطن جيدٌ، وأن الأمنيات سرعان ما تتحقق، سيوافق نعم، أعلم هذا في قلبي، أفهم هذا جيدًا، إنها قريبة دكتور سليم، سأسأله، وربما ألجأ لأخذه معي في أوّل لقاء.

جميلة اسمها، كوصفها، هكذا هي، رحت أحلم حين تضع خاتمي في إصبعها، وحين يتسنّى لنا الحديث سويًا، كيف سأقص عليها الحكايا؟ وعن أي مشاعر بداخلي سأخبرها؟ كيف سأقرأ لها القصائد؟ وكيف ستمكث متأملة؟ وكيف ستتألم لألمي المخبّأ بين السطور.

– جمال

– نعم دكتور سليم

الحقيقة أنني لا أستطيع فهم الأمور، ولا أريد لك أن تبدو تعيسًا، أو أن يؤثر بك الأمر، أوقفته بإشارة من يدي قائلًا: ما بك؟ أخبرني؟ ماذا حدث؟ ردّ في تلعثم: تعلم أنّ الزواج قسمة الله على الأرض، والنصيب أمرٌ مكتوب عند الله، ماذا تعني؟ هل رفض أبوها؟ هل شرحتَ له ظروفي؟ هل هناك ذنبٌ في عدم حضور الأهل؟ هل هذا هو العائق الوحيد؟ أوقفني قائلًا بل هي من رفضت! كصدمة الزجاج حين يتهشّم بعنف، الأمر أشبه بنزع قلب من بين ثنايا جسد برغم ألمه لم يعد يئن.

لماذا؟ أكاد أجن!!

لماذا لم تمنحني فرصةً؟! إذن هل هناك على هذا الكوكب من يمكنه أن يحبها مثلي؟! حينها أمسك بي دكتور سليم مهونًا، قلبها ليس ملكًا لها

القلوب حين تمرض بالحب لا دواء لها، وما هو دوائي الآن دكتور سليم؟ ما ذنبي أن يطعن القلب هكذا وهو في بداية الطريق؟ هل أعتاد الأمر؟ أم أنني لم أفهم منذ البداية؟ هل كان الجد محقًّا برغم كل تلك السنوات؟ هذه مشكلتك جمال أنت لا تفهم، هذه القصائد جميعها تستحق الاحتراق، أن أجعلها بديلًا عن الأحطاب وأنتظر رحيل دخانها علَّ رمادها يطفئ النيران التي اشتعلت بداخلي..

الغضب داء عليك الشفاء منه، قالها صديقي فتحي وقد فطن لكلّ ما حدث، وقد لاحظ تأخّري المعهود والحزن الذي بدا مخيّمًا على ملامح وجهي، والذي أصبح يقل تدريجيًا مع الانشغال في العمل وغرفة العمليات، ثم صدر قرار مني بالاستماع لنصيحة دكتور سليم، فلتكن جرّاحًا للقلوب، الانغماس في العمل يجعلك تنسى، نعم نسيان، لكنني انتقلت من أن أكون أنا النسيان إلى أنّ الماضي بأسره قد أصبح نسيانًا..

روضة أخت دكتور فتحي مهذبة، أجد فيها شيئًا مريحًا، وأشعر أنها تنجذب لي، أن يهتم أحدهم لأمرك هذا أمرٌ جيد، لكنّني لا أعلم إن كنت حقًّا أحبها، هل أنا ضعيف؟ سؤال كنت أسـأله لنفسي كثيرًا مؤخرًا، هل أنا ضعيف؟ أجابتني الكتب التي أعشق قراءتها وأجد فيها الإجابة عن كل شيء.

إنه لا يوجد إنسان قوي دائمًا، ولا إنسان ضعيف على طول المدى، هذه هي التركيبة الإنسانية الطبيعية، قلبي ليس ملكي تمامًا، كما كان قلب جميلة.

هل تستحق روضة مني هذا أحاول حقًّا وأراها تجاهد هي الأخرى للاهتمام وري الأزهار، لكن قلبي لا يثمر، ليس ذنبك روضة..

أنت لا تفهم، قالتها بعنف وهي تنهار باكية حين رأت أوراقي عنها أشعلت حربًا منذ ذلك الحين، وتوقّفت عن زرع البذور وانتظار ثمر لن يثمر، تساءلت لأعوام عن السبب..

لا أعلم حقيقةً كيف يمكنك أن تكون مخادعًا إلى هذا الحد، جمال كيف يمكنك الكتابة عن الحب وأنت لا تعرف الحب؟! كيف يمكنك وصفه؟ كيف تعيشه بين طيات الورق وأنتَ في الواقع جرّاح للقلوب؟ هذه حقيقتك جمال، أنتَ خلقت لتجرح القلوب

لا لتتكلم عنها وتصف أوجاعها وأنت تغرز مشرطك بها، كم أنتَ مخادع وكم أكرهك...

ودّت الرحيل، نعم كان الأولاد ربيعًا لا يمكن لكلينا التخلّي عنه وانتظار صيف آخر محملًا بوعود الأحلام، مرح ولعب وهدايا وحديث، كم أحبهما مؤمن وفرح!

كم من المرات أخبرتني دموعها التي لا تجعلني أراها وأرقبها من بعيد، كم من الأوقات عادت لأنّ الأهل والعقل وأصحاب البصيرة ينصحونها بالإكمال من أجل البيت والأنس والأولاد، أصبحت عنيفة عصبية حد الجنون مخالفةً للرأي دائمًا وكأنها تنتقم على طريقتها الخاصة، حاولت مرارًا أن أقتحم قلعتها المحصنة، أن أكتب على جدران قلبها بدايةً جديدة، كانت أقل ذكاء كي تدرك ذلك، كي تبادر علَّ القلب يتحرك متى لمس الصدق لا العند والابتعادَ، كان هروبًا على طريقتها الخاصة، ووجدت نفسي أنا الآخر لا أطيق العودة للبيت، لا أرى فيه سوى اللوم والمشكلات، بيتٌ لا يشكل وطنًا لي بعد كل الماضي، لا يحتويني ولا يفعل بي شيئًا سوى جعلي أرغب دومًا في الرحيل وعدم التواجد.

أخبرني دكتور سيف عن حبّه الماضي الذي ظنّ حين مضى أنه سيمضي معه كل ما هو جميل في عالمه، وأن قلبه لن ينبض من جديد، كم كنت مخطئًا جمال، قالها سيف في جدية، ثمة هالة تجعلنا أشقياء، تجعلنا نظن أنّ الحب الأول هو الحب الحقيقي، حتى التقيتها لألوم نفسي قائلًا عن الماضي تُرى ما كان هذا؟ كيف كنت قاصر الفهم إلى هذا الحد؟ أيامي معها كم أتمناها ألا تمضي، قلبي أصبحت دقاته أكثر طمأنينة حين تكون بجواري، أخشى عليها من الورود وأظل أعاكس أمنياتي وأحلامي عن الأطفال؛ لأن هذا الأمر أصبح مستحيلًا، أنا أكتفي بها عن كل شيء وأي شيء في هذه الدنيا

افتح قلبك جمال قف على ناصية الأحلام واجعلها بدايةً جديدة وتمنَّ النسيان

لماذا لا تغادرني هذه الكلمة وأنا أنتقل في طريق حياتي من عام لعام؟ لماذا ظلت رغم كل شيء شبحًا يطاردني يشبه خوفي من الطابق الثاني في بيت جدي؟ هل ينبغي ألّا أخاف؟

أم إنه كان ينبغي أن أتغلب على مخاوفي منذ البداية؟ قلتها وأنا في طريق العودة للبيت، مررت لإحضار هدية، أردت البدء لكنني ما إن دلفت إلى الردهة حتى تعالت الصيحات وتصدرت مشاكل الأولاد، وكالعادة بدأ لومي لأنني الغائب، وأن اللوم

يقع على عاتقي؛ لأنني لا أهتم إلا لنفسي، وصف جارح وظالم، أما الهديّة فلم تقابل ولو حتى بابتسامة..

أسميتها فرح، أردت للفرح أن يكون حليفًا دائمًا لها

كان لي أربعة إخوة، لا أعرف عنهم شيئًا، لا أملك رقمًا لهم، ولا تُرسل لي الرسائل في الأعياد ومواسم الأفراح ولو على سبيل المجاملة كالغرباء

كم مر من وقت لكن يبدو أنه لم يكن كافيًا

حائرة أنت يا فرح! لماذا أبي؟ أترين أجمل ما فيكِ ابتسامتك كم هي رائعة! بل كم أنت جميل أبي! قالتها وهي تحاصر عنقي مازحةً، رأيتها تلتف في مرح طفولي مختالة بفستانها الأبيض الجميل، متى كبرت فرح؟ كم كانت الأيام سريعة؟! كيف مضت هكذا؟ وكيف ظلت قلوبنا كما هي برغم خبرة الأعوام وصفعاتها تئنّ كثيرًا وتنسى قليلًا

إن الحفل كبير وصاخب ممتلئ بالشباب، إن الزملاء كثيرون قدموا للمباركة، لدي ضيوف كثر، لكنني أجد نفسي أختلس نظرات لها من بعيد وأراها فرحة جميلة وصغيرة، إنها تحبه، أخبرتني أنه يشبهني، وأخبرتها أنه يحبها، وأن كلاهما في بداية الطريق وأنهما سيبنيان مستقبلهما معًا، وأنني لمست صدقه، وأقدر ظروفه، وأعلم أنّه في بداية الطريق، وأعرف أنه يحبها.

نهاية اليوم قاسية، العودة للبيت، الفراغ الدائم من كل شيء، مؤمن هو الآخر سلك طريقه نحو المستقبل، ابنه الصغير يزورني مرة كل شهر، أوقات الحياة أخذت الجميع بعيدًا، آثرت الانفصال العاطفي، كل منّا في مكان آخر بعيد، وعدت كما كنت دائمًا وحدي، نسيان إلا من فرح لا يكاد يمرّ اليوم سوى بسرد تفاصيلها، لا تخاطبني سوى بصيغة كيف حال الحبيب؟

أقلق كثيرًا حين يخبو صوتها فأعرف أن متاعب الحمل قد جعلت جسدها هزيلًا، عملي يزدهر، جنيت المال الوفير، ولم أجنِ الحب، أغمضت عينيّ ورحت أفكر في ديواني السادس عمَّ سيكون، حين غفوت لبرهةَ لأصحو على صوت زاهر قلقًا قائلًا لي: فرح في المشفى أرجوك احضر حالًا..

لا أعرف كيف تناولت ملابسي في عجلة كي ألحق بزاهر في المشفى وأعرف حالتها الطبية

كانت صدمتي أنها قد دخلت في غيبوبة وأن السبب غير معروف إلى الآن، كانت علاماتها الحيوية مستقرة لكن لا نعرف ماذا حدث فجأة، والآن ينبغي التحضير لعملية قيصرية لا بد أن تلد الآن، أجبته لكنها في شهرها السادس، كيف هذا؟ ليجيب لدينا حاضنات للأطفال الخدج مجهزة بكل شيء لا تقلق، طار زاهر لوضع كل ما يملك في خزانة المستشفى، ورحت أدعو الله لها بالنجاة حين لم تكن قدماي قادرتين على الصمود حتى أطلّ علينا الطبيب قائلًا: لا أستطيع أن أخفي عليكم لكن الحالة حرجة جدًا، سننقلها الآن للعناية الفائقة، بادر زاهر بالسؤال عن ابنه حين ابتعدت وأنا أقول لنفسي: هل هذا حلمٌ مزعجٌ؟! كانت قدماي ثقيلتين كجبل، وكأن مغناطيسًا جاذبًا ثقيلًا يمنع حركتهما، مسموح لي بالدخول للغرفة في أي وقت، كان سريرها أبيضَ، أجهزتها نبضات متنوعة الصوت، صوت يضرب القلب جلدًا، كل نبضة تؤلم تودّ ولو للحظة لو لم يكن بإمكانك السماع، فرح هزيلة شاحبة غائبة عن الوعي، أسلاك كثيرة، إبر تتصل بها من كل جانب ليمسك بي دكتور معاذ قائلًا: حالتها نادرة، إنها فيرس في المخ وهو يؤثر على كل جسدها، إنه مرض نادر وقد أتلف جزءًا كبيرًا وحقّق ضررًا بالغًا، إن الأجهزة تبقيها على قيد الحياة فقط، أوقفته بيدي، لم أعد أريد الاستماع إلى شيء، حملتني قدماي بعيدًا، وأنا أجفف قطرات عرفت طريقها على وجهي

دكتور جمال دكتور جمال ماذا حدث؟ فتحت عيني بصعوبة

لقد فقدت وعيك جمال نقلناك لغرفتك

الأيام التي تلتها لم أكن أعرف كيف يمكنني الصمود، أقف على قدميّ لساعات أرقب عينيها، أنتظر أن تعلن ولو عن حركة بسيطة عن أمل قليل ربما أعلق عليه الأمنيات، ماذا حدث فرح؟ ماذا حدث يا صغيرتي؟ الشهر الأول إقامتي الكاملة في المستشفى لا أغادرها...

وهل يغادر الوطن قلوبنا؟

إنها وطني الآن فكيف يمكنني تركها والرحيل ولو لبضعة أيام

دكتور جمال ينبغي أن ترتاح قليلًا، أنت مرهق منذ بدء الأزمة، وأنت بالكاد تنام، أنت طبيب تعلم الأمر يستغرق وقتًا، قالها دكتور معاذ في محاولة لمواساتي لكنه لم يكتفِ بجعلها محاولة بسيطة، وكأنه أراد ذر الملح على الجرح ليخبرني قائلًا يمكن أن يمتد الأمر لسنوات

أنت طبيب تعلم أن الحالة حرجة قد مرت عدة أشهر، التكلفة كبيرة وليس هناك تأكيد واضح للحالة، ثم أردف قائلًا بصوت خافت: إن لم يكن ميؤوسًا منها، ليكمل: دعها ترحل جمال، دعها ترحل بسلام لا تريد إيلامها..

الحب والموت والحياة هي أمور ليست بأيدينا ثم إنك قد بعت شقتك وسيارتك، أنفقت مبالغ كبيرة، ابنها الرضيع تحسّنت حالته، زوجها منغمس في أحزانه لكنه الآخر لا يريدها أن تتألّم دعها جمال دعها ودعنا نرفع عنها الأجهزة، أعلم أن هذا الأمر طاحنٌ لكن البلاء والأحزان ستغادرنا مع النسيان، تبدأ الأمور دائمًا كبيرة ثم ننسى، رحمة من الله لنا.

حين أشرت له بالتوقف

تريدني أن أنسى معاذ؟ ظننت حين تبسمت لي وهي تخطو أولى خطواتها العاثرة أن ثمة قاسمًا مشترك بيننا، ثم أدركت أن نبض قلبي مرتبطٌ بنبض قلبها، كيف يمكنني نزع هذا الآن؟ كيف يمكنني فعل ذلك؟

هناك قلب ما زال ينبض بداخل هذه الغرفة سأحارب من أجله، لن أتخلى عنها حتى لو كانت نسبة الشفاء صغيرة متضائلة، إن كان هناك أمل.... فسأتمسك به حتى النهاية

الأضواء والألوان والابتسامات، الطريقة التي ينظر بها الناس للحياة هنا في المستشفى راقبت من تخلّوا عن أحبابهم بيسر عجيب، وآخرون قرروا جميعهم نزع الأجهزة حين كانت الأم عاجزة ومتألمة حد عدم القدرة على الحياة بعدها.

شاهدت ضعف الإنسان وشرعت أصلح من حالي مع ربي وألوم الوقت حين أخذني عن الذكر والصلاة، وآثرت الابتعاد عن مناحر الدنيا واخترت الصمت

حين كانت الطفلة الصغيرة أمينة تطيل النظر لهم جميعًا وهم يقررون موعد الرحيل لأبيها لم يكن في اعتقادهم أنه سيصمد أكثر من هذا

راقبت ضعف إرادتها وهي لا تملك قرارًا كي تتمسك به حتى النهاية، لكنني علمت أن النسيان ربما يكون دواءها في المستقبل حين أغمضت عيني متسائلًا:

وهل كان النسيان دواء لك جمال؟!

رحت أتأمل طريق عودتي لقرية جدي، كانت العربة محملة بالبشر، جميعهم مهمومون يحملون بداخلهم واحة جرداء لا ثمر فيها سوى اليأس، تجده واضحًا جليًا

على الوجوه، من يحمل هم الرزق، من يتألم راغبًا في النزول عند المشفى ليبدأ رحلة العلاج، من تحسب ما تبقى معها من مال لتعرف إن كان سيكمل لوازم البيت من الغذاء، بدا لي بيت الخال من بعيد، لقد كبر هو الآخر كشيخ ألوانه أصبحت باهتة، والطريق الطويل بينه وبين بيت جدي، ذكرني بقصيدتي الأولى: عائدًا منكسرَ القلب..

كم تبسمت يا فرح حين قرأت كلماتك الأولى

أنا فرح... وأحبّ الفرح..

أنا جميلة

أبي يخبرني دائمًا عن الفرح عن الحب...

أنا فرح

أحب الفرح... أحبك أبي...

بطاقتها الأولى حين غلفتها برسمة تضحك فيها وتخبر الآخرين كم هي سعيدة يومها تصفحت خطها وخطي، حاولت فرح نظم قصيدة، قصيدتي كانت عن الحزن وقصيدتها كانت عن الفرح والحب، لا وزن ولا قافية، لا قاعدة ما، لكنها اخترقت الفؤاد.

ترجلت من الحافلة، أنزلتني أمام بيت الجد مباشرة

العودة كانت أمرًا أكرهه بقدر ما أكره أيام وحدتي هناك، أخبرني العم محسن أن الشاري الجديد يريد رؤية البيت وانجاز الأوراق، وأنه سيحضر فور وصولي، لم أكد أصل حتى هممت بنفض ذرات التراب، لكنني ما إن فتحت الشقة وتناثرت ذرات الغبار الرخيم من حولي وبدا في كل الأركان أنها من شدتها قد صنعت قماشًا ترابيًا

كم مر من وقت؟! راحت ذرات التراب تغزو الأجواء وكأنها ترحب بي وتعلن عن ذكرياتنا معًا، تذكرني كم كانت معاناتي الدائمة معها، تعلمني مبتسمة قائلة: لقد انتصرنا عليك حين رحلت وجدنا مكانًا ثابتًا على الجدران والأبواب وبين ثنايا النوافذ كم كنت نشيطًا جمال تدكّ أرجاء البيت من جميع الأنحاء، تنظف وتمسح الأركان، ولا نجد لنا مكانًا، ونتعجب لمَ تفعل ذلك ونحن لا نجد لك زائرين وأنتَ دائمًا وحدك؟

لم يتغير شيء منذ رحيلك جدي، سأمر بعد الانتهاء لأزور قبرك

الطابق الثاني لم أجرؤ يومًا على فتحه، ثم آثرت تركه ونسيانه، طبقت قاعدة النسيان معه وحده، ولم أستطع أن أخلف الماضي وأمضي، الآن أفتحه، لا شعور بداخلي سوى

الصمت، لم يعد هناك شيء أخشاه في هذه الدنيا سوى خوفي على فرح ماذا حدث لي؟

كان اليوم طويلًا، آثرت الاحتفاظ ببعض اللوحات المعلقة، أخبرت العامل أن يضعها سريعًا في صندوق كبير كما هي دون نفض التراب، لا وقت لديّ، كان اليوم طويلًا ويجب إنهاء الأوراق وقبض الأموال، هذا كل ما أملك، سيساعدنا لوقتٍ كاف، وقت كافٍ لي كي تعودي يا فرح، لا يمكنك أن تتركيني الآن ولا بهذه الطريقة، نبض قلبك مرتبط بنبض قلبي، سيتوقفان معًا، لا تخوني العهد وترحلي الآن، كوني حبيبتي وعودي، أنتظر ابتسامتك وخصلات شعرك حين تداعبها نسائم الصباح، أحضر لك حقيبتك وأحملها إلى فصلك وأنتظر مرور الوقت حتى اللقاء، صغيرتي أفيقي فرح

خمسة أعوام وأنتِ في سريرك هذا، دعوتك يا رب، إن رحمتك هي أوسع لي، اشفِ لي ابنتي

أعرف فرح، إنّكِ تحبين الأشجار العملاقة وتحزنين حين يقتلونها من أجل العمران، أخبرتني أنك تحبين جذورها الثابتة وأنها تمنحك الأمل في التغيير، أخبرتني ذات يوم أنكِ تتمنين أن يكون لكِ بيت حوله حديقة كبيرة، وأنكِ ستزرعين أشجار العنب وفواكه الحمضيات

ستعتنين بالزهور التي تعرفين أنني سأحضرها لكِ هديةً، تخبرينني أنها تتنفس مثلنا وأن لها قلوبًا تئن وأنها تشعر بالحب مثلنا وأنها تفرح حين نرعاها، وأن رائحتها العطرة القوية انعكاس لذلك

قلبك يشبه قلبي كثيرًا فرح

لقد اخترت شجرة زان زرعتها في حديقة المشفى، غيرتُ موضع سريرك، جعلته يقترب من النافذة، أعرف أنك ترينها، وأعلم أنها ستنمو سريعًا، لقد مر الآن خمسة أعوام، أوراقها تفرعت وغصونها امتدّت، أريد أن تحصدي زهرها يا فرح.

أريد أن نلمس سويًا جذعها لنخبره معًا أن الأوطان يمكنها أن تصمد وقتًا أطول مما نظن

أنتِ وطن صامد بداخلي وسأتمسك بك حتى النهاية

لمْ أكد أنتهي من صلاتي حتى سمعت صوت الطبيب وهو يخبرني بالحضور في لحظات لا أعرف كيف حملتني قدماي، لا لا يمكن أن تكون رحلت دقات قلبي، صوتها

يطغى على كل شيء، الأجهزة الممرضين المرضى ونظراتهم القلقة، كل شيء بدا ضئيلًا حد الاختناق، حين وصلت لغرفة العناية المركزة وقد أفاقت فرح والطبيب بجانبي يبتسم، لا أعرف ماذا فعلوا، كانت عيناي جامدة لا تتحرك كأن كل شيء توقف هنا أمامها، إنهم يتحركون يمنةً ويسرة، تناول أحدهم الهاتف يتصل بمن لا أدري، طبيب آخر يخبرهم بإحضار شيء ينعش القلب، ما هذا الاسم؟ لا أعرفه إنه ينعش القلوب وأنا طبيب للقلب لا أعرف شيئًا سوى أنها أفاقت، ابنتي أفاقت،

فرح، لماذا أبي لماذا؟ ماذا يا فرح؟ لماذا لم تفعل مثلهم؟ لماذا لم تنسَ وتمضِ، أخبروني بكل شيء، لماذا تبتسم يا أبي؟ لماذا لا تجيب؟

وهل حديث القلب بحاجة للإجابة فرح، رحت ألمس كتبك الجديدة، أراني بقوة بين السطور وحول الثنايا وقرب العين والقلب، وكأن نبضات قلبك هي ما تكتب، قاطعتها قائلًا: تبدين مرهقة، لا تخف أبي إن العلاج الطبيعي يؤتي ثماره، تحسنت حركتي كثيرًا يبدو أنني نمت كثيرًا

أخبريني حينما تصلين أنَّ الرحلة تستغرق ساعتين، كوني حذرة، لا ترهقي نفسك كثيرًا، أرسلي سلامي لزوجك، لا تنسي موعد دوائك، ولا تنسي مكالمتنا اليومية، ارحلي يا فرح للحب وللفرح، أعلميني أنك بخير، ارسمي مشاعرك على الورق، أفرغي ما في جوفك أولًا بأول، يمكننا دائمًا البدء من جديد

أمر أخير أبي، أخبرني هل كان زاهر مثلك؟ هل تمسك بي حتى النهاية؟ أخبرني

تبسمت قائلًا إنه يحبك... إنه يحبك فرح، كثيرون يبحثون عن الحب الأكثر توفيقًا من الله من يجدونه

سأشتاق لك أبي كثيرًا، لا تبكي يا فتاة، ابتسمي أيتها الصغيرة، الابتسامة جميلة عليك، أرسلي لي أشعارك وسنقرأها سويًّا كما كنا نفعل في الماضي، هيا هيا لم يتبقَّ على موعد طائرتك سوى القليل

أحبك أبي

شاهدتها تغادر، كم انتظرتك فرح، والآن أودعك وكأنه كتب على قلبي الفراق لمن أحب

جمال متى كبرت؟ قالتها أمي حين قررت زيارتها

قد مضى وقت طويل منذ آخر لقاء، كيف أصبحت؟ هل تزوجت؟ أنت ما زلت تحب الصيد، أعرف هذا، لم تلبث أن يدركها النوم لتفيق وهي لا تعرفني إنه الكبر، عشت أعوامًا عدة دونك وعشتِ وقتًا أطول أمي... ليتنا كنا فيه غاليتي نملك ذكريات مشتركة، قلبي خال لكنني أعرف الآن وأسامحك لأنني رغم كل شيء أحبك أمي

عدت لشقتي الصغيرة ذات الإيجار المعقول نوعًا ما، جرفني الحنين للغرفة الفارغة التي وضعت فيها في عجالة بقايا ما حصلت عليه من ذكريات من بيت الجد منذ أعوام

رحت أنفض الغبار عن اللوحات، رصصتها في نظمٍ منسقٍ، دققت النظر وأنا أرقب ما هذا الجمال؟

شوق ما جعلني أحنّ لصوتِ جدّي، تلمست مصحفه، حملته سقطت منه ورقة، علت وجهي دهشة، إنها تبدو صفراء قديمة جدًا، ترى ماذا فيها؟ دققت نظري وتناولت نظارتي، إنه خط جدي

السمكة ضعيفة في الصحراء؛ لأنها ستكون وحدها، ستموت في النهاية قوية في الماء؛ لأن هذا عالمها ومكانها، لا تكن ضعيفًا جمال، اصنع عائلة وتمنَّ الحب، عليك أن تكون سعيدًا وأن تتخلى عن أحزانك لا أن تعلق فيها، ستدرك أنك نضجت وستعرف أنك كبرت لتصبح أفضل حين تتوقف عن النحيب وحين يصبح الماضي ذكرى تقويك لا تقوضك ستعرف المعنى حين تغلق صفحة من حياتك وتبدأ أخرى ولا تنظر إلى الخلف عندها ستفهم وستصبح سعيدًا قادرًا على التسامح وستبتسم

عذرًا لأن لكل منا حياة لن نتشارك إلا بعضًا منها

عذرًا؛ لأن عالمي وحياتي ليست مثلك

عذرًا لكل رحيل وكل آت دون من تحب

لن تكون وحدك، سيكون لديك قضية ما كي تحيا من أجلها، وأمل ما كي لا تتخلى عنه وستتمسك به حتى النهاية

أعرف أنك ستكون شيئًا عظيمًا في المستقبل، كنت أقلَّ حظًّا كي لا أحصد الثمار، مات أبوك باكرًا، لكنك أنت الحصاد، حتى لو لم أكن وقتها على قيد الحياة سيكون لديك الكثير من العقبات، تعلّم أن تتخطاها لا أن تحوّلها لعقوبات فتعلق بها

ستقابل الإخفاق والإحباط، صادقْه وتعلم أن تتغلب عليه وحدك؛ لأنك لن تجد

من ينتزعه منك سواك، ستعرف المعنى جمال حين تدور بعينك في أرجاء المكان، سيلفت نظرك ألواح كُتبت وعُلقت على الجدران في تناغم متّسق، ستظن للوهلة الأولى أنها أعمال جاهزة لكنك حين تقترب ببطء كعادتك سترى اسمين متلاصقين؛ اسمي واسم أبيك، لن تبتسم بقدر ما ستتألم متسائلًا: إذن لماذا يا جدي لم تعلمني فنون الكتابة؟ كان لدينا الوقت الأكبر لنقضيه سويًا عوضًا عن ضياعه في الألغاز المحملة بالقسوة، لا تحزن جمال حين تراها وتسامح مع الأمر، لا نحصل على كل ما نريد، قضيت وقتًا في الماضي وأنا أرسم الأحلام وأصنع الابتسامة وأشكل حياة نتشاركها أنا وأبوك، لكنه رحل ورحلت معه قدرتي على العطاء

سامحني جمال، سامح وطنًا بداخلي لم أملك العيش فيه بقدر رغبتي الدائمة في المغادرة من أجل أوجاعي، اقرأ أخطائي بين السطور وحوّلها لآمال عظيمة، أصلح أمورك في الحب كن أنت البادئ، الحب معقد جمال، ممتلئ بأشياء عليك التمسك بها وأخرى عليك التخلي عنها، عالج أمورك في الحب وإن لم تفلح فلا تبتأس، لقد حاولت، الوحدة ليست سيئة إلى هذا الحد، أعلم أنك ستأخذ وقتًا كبيرًا حتى تجد تلك الرسالة، ستكون تخليت وقتها عن غضبك وسيحن قلبك لفتح مصحفي الذي تعلم مدى أهميته عندي، أعرف أنك لو تخليت عن الجدران وآثرت الابتعاد وقررت الانسحاب من الماضي فسيظل جزء منك عالقًا هنا، ستفتح المصحف وستجد الرسالة وستبتسم وأنت تغلقها

والآن مهما كان مقدار يأسك وألمك تمسّك دومًا بالدعاء واعلم أنك لست وحدك وأن الله معك وأن كل عسر زائل بيسر يذهلك، فكن على يقين بذلك... وأنك لست أبدًا نسيانًا... ولأنني رغم كل شيء

أحبك جمال

الجبل الصامد

أسأل نفسي يزيد، لماذا أحببت امرأة قلبها ضعيف؟ لكان حالك سيصبح أفضل، لربما عالمك سيصبح خاليًا من الداء والدواء، لكانت عيادات الأطباء ومراكز الأشعة وأصوات أجهزة قياس نبض القلب لا وجود لها، كم أنتِ قاسية وفاء حين تتفوهين بهذه الكلمات..

ماذا أريد من الحياة غيرك؟

إنه الحب إذن، كيف أبدو كبيرًا قويًا عملاقًا هناك في هذا العالم البعيد عنك، وكيف أصبح صغيرًا ضعيفًا حدّ الهلاك بين يديك وبجانب قلبك الجميل، هذا أنا أحبك..

كم ظننت أن الحب قول يعيش على وصفه أولئك الذين يتفننون به حالمين ويملؤون الأوراق حديثًا عنه ويتربحون منه ومن خلاله، لماذا أترك كل شيء ولا ألقي لأوجاعي التي تخنق صدري في العمل والعلم والطريق وفي الحياة

في النهاية لا أحنّ إلا لك ولا أعود إلا إليك

أخبريني ماذا فعلتِ بي كي يرق القلب هكذا؟ أرأيت يزيد أنتَ تجيب

يبدو أن مرضي قد انتقل إليك، يبدو أن ضعفه قد وجد طريقه إليك، وكأن جسرًا بين القلبين قد امتدّ واشتدّ، ابتسم في رقة قائلًا: أتعلمين أعجبني الأمر، إن جسور الحب نافعة ويانعة كي تجعلني إلى جانبك سعيدًا إلى هذا الحد

ما هذا وفاء؟ لماذا لا تتناولين دواءك هذا؟ إن ميعاده قد فات، هل يعقل أن أكتشف كل فترة هذا؟ أرجوك هي مواعيد لا تضيعي وقتها، لا تقلق يزيد سأكون حذرة في المرة القادمة، أين جيهان؟ كان لديها اختبارٌ اليوم، ترى ماذا فعلت فيه؟ إن المرحلة الثانوية هامة والمواد الدراسية صعبة ومرهقة، إن نادية هي الأخرى مجهدة، الأيام الأولى في زواجها لم أكن معها، إنني قلقه عليها، لا تقلقي وفاء أنتِ معهما بدعائك، لا تمر دقيقة حتى وهم خارج البيت إلا بالسؤال والاتصال الدائم، بارك الله لنا فيهم، ثمَّ إن يوسف خطّه تحسن كثيرًا، معلمه فرح به وأخبرني أنه ماهر في العلوم والفنون، وأنه حتمًا سيبدع

فيهما حال كبره، آه يزيد كم أتمنّى أن أفرح بجيهان هي الأخرى، وأحزن كثيرًا على وقتها الكثير الذي تمضيه في المطبخ وتنظيف البيت ورعايته، إنها تبدو جيشي القوي، تتحمل مسؤوليتي وتمرضني وتعطيني دوائي، وحتى تنهدات قلبي هي دائمًا الراعية، أتعلم حين أدعو لها أطلب راجية من الله أن تلاحقها دعواتي دائمًا حتى لو فارقت الحياة..

أمي... نعم جيهان، ها حبيبتي كيف الحال اليوم؟ بل أخبريني أنتِ ما أخبار الدراسة؟ وما أخبارك أنتِ تبدينَ مرهقة؟ دعك مني لا تحملي لي همًّا، ما هذا لا أعلم إنّ أبي في الصالة وصوته عال، ماذا حدث؟

لا أعلم مؤكد أن هناك مشكلة ما

لا أعرف جيهان، لكن هناك تحاليل ما نتيجتها كانت اليوم، إذن سأخرج لأرى ما الأمر؟ لم أكد أصل إلى باب الغرفة حتى اندفع أبي بشدة وثورة من الغضب قد اجتاحت وجهه أنصتي لي وفاء لأن هذا قرار وقد اتخذته ولن تعارضيني، لقد أظهرت التحاليل الطبية أنك حامل وقراري لا بدّ أن يتم الإجهاض

صحتك لن تحتمل إجهاد الحمل والتوقف عن الدواء، وهذا قرار لا رجعة فيه، جنبت نفسي وابتعدت حال النقاش، أعرف أبي وأعرف أمي وأعرف نفسي حين أخبرها ليتني أحظى بحبّ جميل كذاك الذي بينهما، أعرفها في ثورته غاضبًا كيف تحتويه كيف تهدئه وكيف يصبح في لحظات بين يديها مقتنعًا بعكس ما يريد، إنها تجيد الصمت حال الغضب والإنصات له حين التحدث والرحمة حين تلاحقه مصائب الدنيا، إنها حقًّا السكن له، إنها نبض القلب، إنها أمي

لا يمكن أن أقتل روحًا أمست بداخلي، أنتِ عنيدة هناك فتوى تبيح الأمر

أجابت: لا يعنيني شيء، لا يعنيني سوى أن قلبًا ينبض بداخلي الآن وهو جزء منك

أردف في غضب: كم أنتِ صلبة الرأي، سأغادر الآن، أمسكت يدي برفق وهممت بنزعها حين لم أقوَ إلا على الاستسلام لها قائلًا: أنا بحاجه لك وفاء لا يمكن أن يكون قرارك هذا ملكًا لك وحدك، ثمة نصف لكِ هنا يتألم، الجسر بين قلبي وقلبك بات لا وجود له، وأمسيت لا أرى في هذه الدنيا غيرك، ولا يشرق نهاري وينتصف ليلي إلا حين أغدو إليكِ حاكيًا عن متاعب الأعمال وهمّ المال والشارع ومشكلات الأهل والأصحاب، لماذا تصرّين على شيء سيجعلك واهنة وسيزيد مرضك؟ الحمل منهكٌ

فكيف بقلبك الضعيف هذا؟!

أكملت وكأنها لم تسمع شيئًا مما أقوله

أتريده صبيًا أم فتاة؟

أرجوكِ وفاء فكّري في الأمر مرة أخرى يا إلهي تبتسمين لماذا؟ قالها وهو يتظاهر بكتم ابتسامته هو الآخر؛ لأنك لا تتعلم يزيد، تعرف أنني حين أتخذ قرارًا فقد انتهى الأمر خاصة فيما يتعلق بالأولاد

يسرا أسميتها يسرا علّ اليسر والسعادة ترافق دربها في الحياة التي أعلم أنني لن أكون جزءًا منها

أرجوكِ أمي بل أرجوكِ أنتِ جيهان، أنصتي لي، أعلم يا حبيبتي أنكِ ما زلت يافعة غضة نضرة على مسؤولية كبيرة كهذه، وأعلم أنني أظلمك بالوصية على والدك وإخوتك، كم كنت أتمنّى أن أكون بجانبك في شتّى أمور حياتك، زواجك، نجاحك، إنجابك، تفاصيل يومك، أردت أن أكون الراعية إكمالًا لك حتى في أحلامك، لكنكِ كنتِ أنتِ هديتي، جيهان تختلفين عن إخوتك جميعًا تضمدين جروحي وتنعشين القلب دون أجهزة أو معدات، لا تبرحين من وطني ولا تغادرين سكنًا لا يعرف وجهته بدونك، لا قارب ينجو دون قبطان قوي يرشده نحو الحياة ويضعه على مشارف اليابسة قويًا كي لا يعود بعدها مهددًا في أعماق البحار بالغرق وبالهلاك، سيكون الحمل عظيمًا وسيبدو قلبك في وقت ما ضعيفًا وسيصيبه العسر، كوني قوية، تحملي وتعلمي المضي دون أن يكسرك شيء أو يهزك أمر، وستنتصرين بالحب وحسن النية ونقاء السريرة، إن يوسف ويسرا ما زالا طفلين وسيُحرمان من وجودي وقد شارفت على الرحيل، أخبريهم دومًا عني واصنعي معهم نسيجًا من الأحلام، أنصتي لهما حين يتكلمان، واكتبي معهما أمنياتهما، ارسمي معهما بألوان الأمل لوحة براقة املئيها بالنّصح والإرشاد، وامنحيهما وقتًا يفتقدانه لأنني لست معهما، أعلم أنك صغيرة كثيرًا كي تحتملي كل هذا وحدك، وأعلم أيضًا أنكِ ستكونين قوية بذاتك وقلبك، وستمضين في هذه الحياة سعيدة وحالمة، أعرف أنك جبل شامخ صامد جيهان..

لماذا كانت سنوات قليلة فقط هي تلك التي عشتها بعد عقدك الرابع أمي؟

لماذا كانت أوقاتنا تائهةً ضائعةً هكذا؟

لماذا كان عمل أبي وانشغاله وانشغالي بالدراسة وقودًا راكزًا دون اشتعال؟؟

لماذا كان أبي هادئًا مستسلمًا صامتًا ومستجيبًا متفهمًا فقط في حضورك؟ ولماذا كان عاصفًا عصبيًا منتقدًا لكل شيء خائفًا من كل شيء متصلبًا برأي لا يعود عنه تحريك جبل من مكانه كان أسهل من إقناعه؟ لماذا كان رحيلك حاملًا لكل بذور الرحمة بداخل أركان هذا البيت؟ بيت لم أعد أجد فيه مظاهر الراحة أو حتى القدرة على المواجهة والاحتمال أو الدراسة والعمل، الهروب يمنحني وقتًا، يمنحني رئة، يمكن للهواء أن يجد طريقه إليها..

لا يعرف أبي سنواتنا الدراسية ولا تفاصيل هم التحصيل الشاقّة التي كنت أخوض معاركها وحدي مع نفسي ومن أجل إخوتي دون مساعدة من أحد

الجبال خلقت لتكون صلبة لا يمكن تحريكها، إنها تثبت الأرض، تجعل الآية الكونية في شرع الله تتحقق

لماذا كنت جبلًا يصمد أمام كل العواصف في البيت والعمل وفي الجامعة؟ لماذا كان الجبل يبدو شامخًا حد نفور الغير مني ظنًا أن قوتي سهم يمكنه أن يجرحهم؟

لماذا كان الجبل ظاهرًا للعين قابعًا في قلبي هشًا ضعيفًا ومتضائلًا حد السكون؟

الجبال أقنعة نضعها أحيانًا كي تحمينا في ظل صراعات لم يكن لنا فيها وقع ولا ذنب!

أخطاء علينا تحملها، تأقلمنا معها حد الامتزاج امتثالًا للأوامر دون مناقشة، انصياعًا للرغبات دون حوار، بحثًا عن بدائل يمكن من خلالها تحقيق رغبات إخوتي..

كنت جبلهم المدافع النمر الذي يقف دائمًا مساعدًا ملهمًا وصابرًا دون شكوى أو اعتراض

البحث عن حلول كانت بالنسبة لهم مهارة يفتقدونها لأنهم أضعف، لأنني موجودة، ولأنني كنت بحاجة لهم أكثر من حاجتهم لي..

كانت غرفتي آمَنَ مكان ليوسف ويسرا، بقعة صغيرة تضم أوجاعهم وتحتضن أحلامهم ويختبئون بخوف بين طياتها خوفًا من الضرب المبرح والعقاب الذي لا يعرفون أسبابًا منطقية له..

لم أقطع طريقًا لعودتي للبيت على مهل، لم يكن لتلك الرفاهية وجود ضمن يومياتي، كان الحضور سريعًا للبيت، أمر يقلق يومي كثيرًا في العمل والدراسة

لأنني الجبل

الجبل الصامد الذي يحميهم، يمنع الألم ويقف حائطًا مدافعًا دون تراجع أو استسلام،

مهنة الطب إنها مهنة لا أراها صعبة

إن الأوراق البيضاء التي يملكونها وقد كتب في عليتها اسمهم وما حصلوا عليه من شهادات أرى الأمر بسيطًا وهم يخطون بأقلامهم كتابات عليها يمنحوننا جيشًا من الدواء كي ينمو جيش أكبر دفاعيًا في دمائنا عن الحياة ومن أجل الحياة

لقد هُزم جيش أمي بسهولة، أما أنا فأصبحت بلا جيش يرعاني دونها

كوني قوية

لم أعد أذكر من كلماتها سوى هذه الجملة البسيطة، كوني قوية جيهان، كوني قوية، رددتها مرارًا هيّا جيهان تنهّدي ولا تستسلمي، لديك عمل كثير اليوم، جلي الصحون، طبخ الطعام، ترتيب المنزل، إنها أمورٌ لا تأخذ وقتًا مني، ولا تؤثر على دراستي، لا تقلق أبي.

إن يسرا ما زالت صغيرة، عامين ونصف، هي بحاجة للعب لا أكثر، أبي أجابني بحدة:

لا يعنيني هذا الأمر، لا أريد صخبًا، ولا أريد سماع صوتها، يكفي أنها كانت سببًا في موتها

أبي ألم نفرغ حديثًا من هذا الأمر؟

جيهان توقفي، لا تحاولي إقناعي، سأرتاح قليلًا، أنا تعِبٌ، كنت أظن أن مسؤوليتي عن البيت وإخوتي وحتى أبي هي جلّ همومي، لكن هم أبي الأكبر كان ألا يجد قلبها الذي كان يحتضنه في أوقات عسره مهونًا، ولم نكن لنفلح جميعًا في رفع هذا العسر عنه دونها هي..

فاجأني صوت يوسف الباكي ما بك؟

لا أعرف أن الهندسة أمر صعب للغاية، ما الصعب فيها؟ لا أعلم، إنني أحاول فهمها، لا يمكنني معرفة كيفية القياس، أنا لا أفهم هذا عوضًا عن درس اللغة العربية، إن الإعراب متشابه والأمور أصبحت في عقلي متعاقبة متلاحقة، هل هذا عقاب ما؟ ملتُ عليه قائلة: لا تقلق سأشرح لك أسرارهم، أجاب بتعجب أسرارهم؟! ماذا تعنين؟! يبدو

وكأنكِ تتحدثين عن أشخاص لا مسائل معقدة، يوسف حبيبي أعني أن الأمر سهل وأنكَ يمكنك فهمه، هيا هل تعدني بكوب من الشاي ضعيف السكر بعد الانتهاء.

أحبك جيهان نعم أحبك، وأشعر أن أمي لم تمت؛ لأنكِ هنا بجانبي، لماذا كانت كلماتك يوسف هذه طعنة في قلبي؟ لماذا قضيت ليلتي على وسادتي أبكيها وأبكي وجودها وأبكي ضعفي الذي أنشد فيه قوة أوصتني هي بها فلا أقف لالتقاط الأنفاس ولا يصبح متاحًا لي أن أبكي كطفلة وأن أغفو كطفلة مستندة على دعم معنوي لن يكون موجودًا في عالمي، يا لها من فرحة حين ترمين بأوجاعك لقلب يحبك ليخبرك أن كل شيء سيصبح جيدًا وأن كل خيبة ووجع سيبحر بعيدًا طمأنينة سيمنحك إياها حتى لو لم يجد حلًا لمشكلتك..

يبدو أن بوادر النجاح معهم يا أمي تزين عالمهم الآن، أمّا عالمي دونك فكان مظلم، عمّتي لا بأس إن كان هذا الأمر سيجعله سعيدًا، جيهان لقد أبلغني أن أتحدث معك وأرى أن وجود زوجة في البيت سيجعل الأمور أفضل، ربما يخرج من أحزانه قليلًا، فينشغل بالحياة، ومؤكد أن الحمل سيخف قليلًا عليك، أنتِ الآن في الجامعة ومستقبلك هام عليك الاجتهاد والمثابرة، إن نجاحك وتفوقك سيفرح أمك بالتأكيد وربما تلتقطين أنفاسك قليلًا، والله إني لأراك جبلاً أخشى عليه من الصمود أكثر مما ينبغي، أحبك عمتي لا تنسيني من دعواتك..

وجود شخص جديد في البيت، افتعال المشكلات، الغضب على أقل الأسباب، محاولتي المستمرة لتهدئتها ومصاحبتها وإنجاز كل الأعمال التي تخص إخوتي،

العمل صباحًا في حضانة للأطفال، والراحة الظهيرة ثم عمل جانبي مسائي في المشفى قسم الحسابات، العودة، غسل ملابس إخوتي، المذاكرة، شرح الدروس، حل الواجبات، والأكثر أهمية هو علاج المشكلات، الأصحاب والأصدقاء وصوت يعلو وكأن عاصفة ما على وشك القدوم

إنها لا تجيد تهدئته، إنها بارعة في إيغار صدره ومنحه ألمًا أكبر لا معالجته من أوجاعه وأحزانه، وحين كان الطريق معه مسدودًا أصبحت تمهد لاختلاق المشاكل معنا

النتيجة التي تسعى للحصول عليها، وأنك أصبحت مطالبًا بتنفيذها، إن كنت تريدني داخل هذا البيت فعليهم الخروج منه، استأجر شقة أخرى لهم، ابحث عن بديل،

لا يهمني كيف، لا يهمني متى، ومتى يعني الآن، لن أحتمل أكثر من هذا..

هذا بيت أمهم، تريدينني أن أخرجهم؟ هذا قرارك الأخير؟ نعم في انتظار تنفيذك إن كنت تريد الهدوء والراحة فدعني أحظى بخصوصية كي أسعدك، لكن ميادة سعادتي في وجودهم بجانبي، وتقبلك أنتِ لهذا الأمر، تغير وجهها مرة أخرى في تحدٍّ مقيت قائلة: إذن عليك تحمل العقبات

أنت، كم أنتَ مهمل يوسف، لا أعرف حدًا لإهمالك هذا، ماذا تريدين؟ ارتفع صوت يوسف الذي بدا لي من غرفتي وكأن بركانًا بداخله كان يختزن غضبه، وقد أذِنَ له بالخروج من الفوهة بعد صبر دام طويلًا ولم ألحظه حتى همّت مقبلة عليه وقد احمرَّ وجهها وهي تقول بانفعال: ترفع صوتك في وجهي حتى همت بضربه لتجدني أمامها.

كوني قوية، كلمة أمي التي دائمًا أسمعها، جيهان كوني قوية، القوة تعني أخذ الحق دون غضب ودون ظلم ودون أن نطغى على الآخرين

القوة تعني التغافل مع القدرة والتماس العذر حدًا ما لحلم أرجوه رحمةً بكل من في هذا البيت، أولهم أبي وإخوتي، وآخرهم نفسي ومشاعري

أردفت قائلة: ماذا حدث

أجابتني وقد تراجعت إلى الخلف عدة خطوات قائلة في حنق: لا شيء عليك تعليمه ألا يرفع صوته على من هم أكبر منه، هذه آداب عليه تعلمها، أمسكت بيوسف الذي أراد التكلم مرّة أخرى حين منعته بحركة يفهمها كلٌّ منا فلدينا لغتنا الخاصة ثم التفت لها في هدوء قائلة: حاضر

الهدوء لا البكاء وغرفتي الصغيرة التي نجتمع فيها جميعًا حين تحضر نادية وابنتها الصغيرة دينا لا نكف يومها عن الضحك، إنه يوم الإجازة الأسبوعية

تفرح نادية كثيرًا بطبخي، تخبرني أنها مهما أنتجت من طعام ومهما استمعت لبرامج الطبخ المعتادة فإنها لا تتقنها كما أتقنها أنا

أنتِ أمي جيهان بالرغم من أنني أكبرك كثيرًا، أجابه يوسف: بل أمي أنا، هذه الصغيرة يسرا تائهة بينكما، لعلها تعرف عندما تكبر أنني أكون سعيدًا حين أراها خائفةً مني قليلًا وأنا أداعبها في صورة السيد صاحب البيت الكبير في السن وأحكم عليها أن تضم ألعابها في صندوقها الخاص وحين تهم هكذا في استسلام أساعدها من قلبي رقةً لم

أعرف معناها إلا منك، جيهان أخبريني: كيف يمكن أن يكون المرء قويًا إلى هذا الحد؟ وكيف يمكنه أن يكون في ذات الوقت رقيقًا رحيمًا مثلك؟

أتعرف كيف يوسف؟

كن على حق دائمًا، ستشعر بالقوة وأن الله يدعمك ويؤيدك ولا تجعل اليأس يتملكك يومًا حتى لو اجتمع عليك الظلم في الحب في العمل وفي الحياة

القوّة لا تعني أنّكَ لست متعبًا ولا تعني أنّكَ لا تتألم، لكنها تعني أن تمتلك الشجاعة لتواصل السعي

كن على حق تكن قويًا

أوه ما هذا الصوت؟ لقد تشاجرت دينا ويسرا، ما العمل الآن؟ كي نفصل بينهما؟ هيا إلى الغرفة أصلح الأمر يوسف كعادتك، أجابني وهو يبتعد.. لا تقلقي

نظرت لوجه نادية، ها ما بك؟ لديك شيءٌ تريدين إخباري به، أربعة أعوام في الجامعة أراد خطبتك وأنت تصدينه وترفضين مرارًا، وتقدّم لأبي ما منع أبي الأمر إلا لإصرارك الشديد في الرفض لماذا جيهان؟

تعلمين أن هذه أمنية أمّنا وأن هذا سيسعدها كثيرًا

ماذا تقولين نادية؟ يوسف ويسرا كيف أتركهما؟ الزواج مسؤولية ورعاية وانشغال لا أستطيع تركهما، لقد نذرت عمري لهما، لا أريد الزواج نهائيًا، هذا خطأ جيهان فكري في الأمر، ثم إن كليهما سيكونان بخير، لا تقلقي عليهما

نادية أنت لا تعيشين معنا، ولا ترين ما يحدث، أصبحت الأمور مجهدة، أبوك أيضًا أرى انحدارًا في صحته، وأخشى عليه كثيرًا، قطع حديثنا صوتٌ عال هممنا بالخروج حين ذُعر الأطفال

لأجد رياحًا من الغضب المتبادل بين أبي وزوجته، ثم اصرارًا منها على الطلاق، وأنها لم تعد تحتمل حياة نحن فيها نشكّل جانبه الأول واهتمامه القوى

لم نكن نبحث إلا عن الهدوء

هدوء غرفتي الممتلئة بالكتب

الكتب التي أجد فيها إجابة عن كل شيء

أحزاني فرحتي التي أنشدها مع كل بطلة تحصل على ما تريد، فهم لحالات الناس

ومآسيهم التي أصطدم بها يوميًا في المشفى مساءً وفي الحضانة صباحًا، القبح الذي يطغى على الجمال، والقسوة التي تلتهم الرحمة، الغلظة التي تغلق القلوب، والران الذي يعلو بعضها حين تسد آذانها عن النصيحة

المعادن التي لا تظهر إلا في وقت الشدة والفرح، ونفائس نفوس الناس حين تتجلى معلنة عن نفسها، كنت أرى كل هذا ولا أرى للحب مساحة كي أحلم به

عالم الحياة والعمل بكل ما يحمله من وجوه تقترب وتفترق وتمضي ككل الأشياء الجميلة والقبيحة التي ترحل

كيف تكون سعيدًا؟ إنه عنوان كتاب

لكنه ليس وصفة سحرية يمكننا من خلالها اجتراع كأسها أو اتباع خطواتها خطوة خطوة حتى النهاية، كان الأمر سيصبح سهلًا عندها، لكنني وجدت سعادتي هنا معهم، مع إخوتي، فقط معهم.

لقد غادرت نادية اليوم حزينة تتمنى أن تفرح بي وأتمنى أنا أن أجد فرحتي معلقة أزهار عبيرها حولهم، يوسف يسرا وحتى أنت نادية

تنهّد قلبي وأنا أفكر، حازم لا أعلم حقًّا ما سرّ إصراره عليّ؟ ما الشيء المميز في؟ ما الذي يجذبه لي؟

ولماذا لا ينجذب قلبي لأي شيء؟

إن الحب ليس مدرجًا ضمن طروحاتي

إنه ليس حاضرًا في تفكيري، لماذا أرى هذا الأمر يشكل فضاءً حالمًا لصديقاتي وصويحبات المدرسة والجامعة وميدان العمل

لماذا لا يهتم قلبي حتى بعبارات الحب وحكاياته؟ لماذا أرى هذا الأمر جبلًا يصدّني يبعدني ويغرقني ولا يقنعني بعكس ما به من خير وراحة وسعادة وأحلام تتعلق بالأمومة؟ لماذا وقد رأيته يتجلى في عين أبي وأمي أيكون الرحيل أحيانًا سببًا؟ أيكون الغياب بعد كل تلك المشاعر هو الإجابة؟

ربما أجد الإجابة يومًا في كتاب أو في الحياة، لكن الذي أتيقّنه الآن هو أنه لا من أجلهم لا.

الألوان الهادئة ونسيم الصباح ليوم الإجازة الأسبوعية من كل شيء إلا منهم،

أحب غرفتي، تبدو في بعض الأحيان خير ما أملك من هذه الدنيا، حين يجتمعون وحين تصل ضحكاتهم فيها وتتعالى ليصل صوتها لأبي وكأن رسائل الحمام الزاجل أخبرته بالحضور والمشاركة

الهواء البحري المنعش من نافذتي، والأمطار التي حضرت مع بداية الشتاء، أحب رائحة المطر، ويفاجئني الشتاء كل عام مع أنني أعرف وقته وميعاده ويشغل وقتي من بعدها غسل البطانيات وإدخال ملابس إخوتي وإخراج غيرها كتبديل سنوي، ودفء لا أنشده؛ لأن ثمة حبًّا هنا يغنيني عن كل شيء خارج حدود هذه الجدران وخلف تلك الرائحة التي أعشقها رائحة المطر

إن أمور البيت في تحسن ويبدو أن فصلًا ربيعيًا زاهرًا سيحل على أركان البيت بعد خريفٍ قاس ممتلئ بأوراق جافة قاحلة سحقت دون سحق للفؤاد

عام مضى، يوسف يكبر وقلقي معه ينمو

إن المرحلة الثانوية شديدة، والسباق للالتحاق بركب الجامعة بحاجة لعزيمة عظيمة

يسرا لا تنمو بشكل جيد، لا أعرف ما المشكلة؟ أخبرتني سهيلة أن هناك طبيبًا للأطفال، إنه حتمًا سيعرف حالتها جيدًا وسيرشدنا للصواب

لم أكد أمضي لغرفة الكشف إلا وقد زاد القلق أضعافًا بعد الخروج منها

إنها مشكلة في الهرمونات، إنها بحاجة لطبيب متخصص في الغدد، ولا أخفي عليك أن هذا العلاج مكلف ونتائجه مقلقة، وعدم البدء فيه له عواقب وخيمة، قالها الطبيب وقد أخرج ورقة كاتبًا عنوانًا لعيادة طبيب مشهور في القاهرة

أعرفها جيدًا تلك الورقة البيضاء، شاهدتها مع أمي، ورقة خالية وعنوانها يحمل تعريفًا بكل تلك الإنجازات العملاقة التي حصل عليها أطباء الطفل والبطن والعين والعظام وأهمها الفؤاد

لا يهم ماذا تعني يا أبي، لا يهم، دعيها تموت، يكفي أنها كانت سببًا في موتها، كمحاولة إقناع الطيور ألا تهاجر، أن تعكس طبيعتها ومواسمها، لن تستمع لن تغير وجهتها

الأمر في إقناع أبي يشبه في صعوبته إطلاق نمر من قفصه

عمّتي ما بك جيهان

أريد خدمة منك، سأخبر أبي بالقدوم لزيارتك، لكن ذلك الوقت سأحضر يسرا للطبيب وأريد البدء في علاجها، لا أريد منك سوى أن تكوني معي في هذا الأمر دون أن يعلم والدي بذلك

لا بأس غاليتي أنا في انتظارك

العلاج مكلفٌ التأخر يعني تراجعًا في حركتها ونشاطها

يصرف العلاج عن طريق التأمين الصحي يمكن لوالدك تولي الإجراءات الرسمية والأوراق لن يأخذ الأمر وقتًا

كان الطبيب يتحدّث وكأنه قد وجد مخرجًا من كهف جبل

جبل أظن أن تحريكه من مكانه أهون من مناقشة أبي في هذا الأمر

الأوراق والتعقيدات ينبغي أن تتمَّ من خلاله لا أعرف حقًّا ماذا أفعل

كتلك الأعاصير التي تهدم أمامها كل شيء، كتلك السدود التي تُهْلِكُ ويَهْلِكُ معها الزرع والنبات والأهم الإنسانية

تدخل زوجة أبي وكأنها قد وجدت فرصتها الذهبية

فرصة تبث فيها السم وترحل واصفة تصرفي بالخيانة الكبرى وذهابي للطبيب دون إذن عزوفًا عن أمانة هذا البيت وتمردًا على صاحب المنزل الذي أعيش فيه، اتهامات كلها ما كانت لتهز جبلًا لأنني أعرف كيف يمكن للحق أن ينازع الباطل وكيف يمكن للباطل أن يكون حمالًا للأوجه دون رحمة

وكيف يصبح الدفاع ضعيفًا متضائلًا حد الهزيمة؛ لأن عنفًا كبيرًا قد اتجه بكل قوته نحو يسرا

يسرا الضعيفة حد الهزال ضرب مبرح غير مفسر

مشاركة في تأديبها، عقاب أرادوا أن يعلنوا فيها من خلالي حائطًا مانعًا كي أخشى منهم على نفسي عليها من تكرار الأمر

وثورة بداخلي كاملة لا تهدأ

لن أسمح لكم بفعل هذا

ما هذا الظلم؟ لن يكلفك الأمر شيئًا؟ لماذا تفعل ذلك بنا؟ لا يمكنني الموافقة على مثل أفعالكم تلك؟ لا تمدي يدك عليها أنا أحذرك

تحذرينها؟! أجابني أبي هل فقدتِ عقلك

أي جرأة تلك التي تتحدثين بها هل نسيتِ نفسك

اخرجي خارج هذا البيت، لا مكان لك هنا، احزمي حقائبك، لا يهمني إلى أين تذهبين، هيا لا أريد رؤية وجهك في بيتي ثانية

الحقيبة التي نحملها لا تكون ثقيلة بقدر ثقل أوجاع الخيبة داخل القلوب، الحقائب خلقت لتحمل سعادتنا لا تعاستنا

نحملها مع الفرح منطلقين لحياة جديدة

البدايات نفسها تشكل وجدانًا وعالمًا نتمنى فيه الرحمة، الابتسامة النابعة من الداخل لا الهجر، العظام خلقت لتحمي أعضائنا الداخلية، القفص الصدري لم يخلق إلا كي يحمي القلوب

كيف يمكن له بعد الهدم أن يشكل دفاعًا

دفاعًا عن يسرا الضعيفة الوحيدة في حضرتها

قلقًا على يوسف الخائف باستمرار من أبي حد خوفي عليه من فقد شخصيته وضعف إمكانياته وفشله الدراسي في سنة الثانوية بكل ما تحمله من مصاعب دون رحمة

بيت عمي كبير يجيد استقبالي بعفوية

طيب القلب يسأل عن أحوالي باستمرار، يجاهد كي يجد وقتًا للحديث، منشغل بعمله، أضاف فيه عمرًا باحثًا عن حياة، حياة لا يقطعها سوى فراغ قاحل حوله لأنه لم ينجب

يختلف كثيرًا عن أبي، لا أملك وقتًا لحديثي معه، لكن هناك هدوء ما افتقدته كل تلك الأعوام بعد رحيل أمي، هدوء قاتل يرغمني على التفكير المطلق بحال يسرا التي بحاجه للعلاج وحال يوسف وإرادته الهشة والضوء الذي يستمدّه مني

وزوجة عمي المجردة من المشاعر حد عدم السؤال عن صحتي، أحلامي سحابة الكدر التي ترتسم بقوة على وجهي فيلاحظها جميع الغرباء إلا هم

لا سؤال عن غدائي أو عن وقتي، لا حضور ملهمًا بل يبدو أن هناك انزعاجًا من وقت بسيط لأستار الليل فقط حين أبيت قضاء الوقت كاملًا بالخارج انغماسًا في العمل رغبة في جمع المال، يسرا بحاجة للعلاج، أوقات السهر في المشفى، السعي للحصول على

شفت آخر ليلي، يظنونني مادية متلهفة للمال من أجل نفسي، وأنا لا ألتفت، كان لدي أشياء عظيمة أقوى كي أقلق بشأنها

جيهان، أجبته نعم عمي، تعلمين أنني لا يمكن أن يكون وجودك مقلقًا لي

لكن تعرفين أن إخوتك بحاجة لك، أخشى عليهم من زوجة أبيكِ ورأسه المسلمة لها

أعرف عمي، إن قلقي عليهم أذهب النوم من عيني

أرجوك عمي عليك السعي بكل قوتك، حاول مع أبي

إذن ستفعلين ما أخبرك به، ستعتذرين لزوجة أبيك، وستحملين هدية عظيمة من أجلها، ستعودين وكأنهما المنتصران

أتفهم كل هذا عمي، لا شيء يمكن أن أخشاه أكثر من هذا، تعجب عمي دامعًا، أعرف أن الأمر شاقٌّ، قاطعته قائلة: لا عمي بالعكس كنت أفكر في نفس الحل، لا تهمني نفسي بقدر قلقي عليهم

متى كبرتِ جيهان؟ كيف أصبحت هكذا عارفة بكل الأمور مدركة لأبعاد القضايا، وأحسن قاضٍ يمكنه اللحاق بالركب وإبداء الحكم، كيف أمكنك أن تكوني عادلة هكذا دوننا جميعًا

أنتِ جبل صامد أخشى عليه حقًّا، ليتنا كنا بمثل صمودك ونحن نشق طريق الحياة في بدايتها مستائين متأففين محملين غيرنا أوزارنا بمهارة وضاغطين دون رحمة على الجروح ومترقبين لرد الفعل حتى دقت على رؤوسنا طبول الابتلاءات فوعى آثارها من وعى وسخط الغافل منا على كل شيء، وصنع الصابر منها عناقيد ممتدة زيّن بها عالمه

ليتك تصمدين جيهان ليتك تصمدين حبيبتي

حبيبتي كم عشت عمرًا دون أن يصفني أحدٌ بهذا الوصف، هل الحب هو السبب؟ لماذا لا يغادر عالمنا؟ لماذا وقعه هكذا يؤلم؟ هل كان رحيل أمي رحيلًا للحب؟ أم أنه لم يكن موجودًا منذ البداية؟ الحقيبة التي حملتها طردًا من بيت أبي كانت ثقيلة لكنها كانت كثقل جبل عائدة بها وحدي دونها

الاعتذار، الوجوه التي لم أكن أفلح في قراءتها، وجه أبي الجامد الصامت صامدًا في حضرة عمي واعترافه بخطئي الكبير الذي لن يتكرّر أبدًا، وجه فرح زهوًا بانتصار

عظيم حققته زوجة أبي، وجه منكسر كوجه يوسف ناظرًا لمسرحية عملاقة لا مكان للضحك فيها حد البكاء

وجه فرح كعودة الأم لبيتها، كاستقبال الوليد السعادة بلا سبب، احتضنتني يسرا كما لم يحتضنّي أحد من قبل، قبلات وشوق جعل الجبل بداخلي يتهاوى، يقسم أنني لن أتركها، كانت تبدو هزيلةً، وكأن وزنها قد قلّ، يوسف هو الآخر مال بجانبي قائلًا: افتقدتك كثيرًا، بدوت لهم نافذة رحيمة يتنفسون من خلالها، ولا مخرج لهم سواي.

كان التحدي الأكبر هو خروج يسرا معي والاتفاق مع عمي على وقت الذهاب للطبيب العيادة الطبية في القاهرة والوقت المتأخر والعودة إلى محافظتي ثانية، هذا الوقت كل شهر، ترى ما الحجج التي يمكن اختراعها لجعل الأمر يمر بسلام؟ كان عمي معي في هذا الأمر

وظللت أدعو الله ألا ينكشف

يسرا هزيلة ضعيفة تصنع الحقن بداخلها وريدًا حارقًا يجعلها هامدة معظم الوقت غير قادرة على القيام من مكانها، تأخر دراسي، إغماء متكرر لتعب المدرسة، الحضور اليومي يقلقها

المديرة كائن لا يتفهم، تصر على إخبار ولي الأمر بكل المشكلات، تريد قذفي بمهارة لموقد لا أعلم إن كنت سأنجو منه مرة أخرى أم لا

مكتب الوكيلة يجاور المديرة لمست فيها وجهًا طيبًا

اعتدت في الحياة على النضال حتى النهاية، الجهاد حد عدم اليأس، ثم محاولة النجاة من أجل الاستمرار، كنت أعرفها، أعرف وفاء، ماذا تعرفين أمي؟ نعم كانت صديقة الطفولة، لا تعرفين كم لها من فضل عظيم، قلبها كان جميلًا ضعيفًا لا يحتمل شقاء هذا العالم، قلبها كان أنقى من أن يناضل وسط كل هذه الحروب والانكسارات

كانت في الحق جبلًا لا تهزّه ريح مصلحة أو تعليمات مناهضة أو اتهام بالتقصير، كانت تعرف الحق فتتبعه وتعرف الظلم فتجتنبه

جبلًا مثلك، إن سعيك جيهان من أجل يسرا هذا أمر يستحق التقدير لا الصد، المساعدة لا الممانعة، الرحمة لا التعنت

لا تقلقي لن تعرف المديرة أوقات غياب يسرا، سأتولاها، تحضر يومين فقط في

الأسبوع، أكملي علاجها واجعليني أطمئنُّ عليكِ، أجبتها تقصدين على يسرا،

تناولت نظارتها قائلةً: بل عليكِ أنتِ جيهان

تحسن ملحوظ بعد فترة كبيرة من الصبر والعلاج، شعاع من السعادة كان يضيء قلبي حين أراها تنمو كالأزهار، وضوء معتم كان يقتلني حين كانت أعراض الدواء الجانبية تكشر عن أنيابها فلا أرى نشاطها وحركتها بل وضحكتها التي تملأ أرجاء المكان، وبالأخص غرفتي، ويتملكني الخوف ألا يستجيب جسدها للعلاج أو أن يكون التأثير الجانبي الخطر متمثلًا وحاضرًا، ما كان يجعل قلبي مطمئنًا الثقة مع معية الله، فيختفي القلق فلا أحزن..

لا أريد الزواج أبي

لا جيهان يا إلهي، حدثتك نادية مرة أخرى، لا أعرف مدى إصراره الشديد لهذه الدرجة، إنه يحبك جيهان، قالها أبي برفق وهو يمسح دموعه، إنه يحبك، لا تجعلي الحب يغادرك، ولا تسمحي له بالرحيل، يكفي أن الموت يفصلنا عمن نحب، يكفي أنه يحجز لقلوبنا مكانًا على سفينة الأحزان، يتخذ موقعه منها فلا يجعلها تغادر أبدًا الميناء.

الحب وطن فلا تخسريه

لكن أبي، لقد أعطيته كلمة جيهان، وستتم الخطبة في نطاق عائلي ضيق

كان بداخلي مزيج من الخوف ومن السعادة، وقفت أمام مرآتي أتفحص ملامح وجهي وخصلات شعري، ولا أحلام تزور كياني ككل صديقاتي ممن مررن بتلك المرحلة الحب! هل حقًّا يحبني حازم إلى ذلك الحد

شاهدت الحب متجسدًا بين أبي وأمي، أخبرني كلاهما عنه، وضعا له تعريفًا فهمته أحيانًا ووقفت عنده صامتة دون معرفة أحيانًا أخرى

ما هذا الكائن؟

رأيته كثيرًا حين حدثتني عنه عمتي توحيدة وصديقتي سعاد

إن البيت مملكتك جيهان، مشاعر الأمومة، القلب الذي يستقبل حزنك ويقيم روحك ويخشى عليك من الآخرين، يتألم من أجلك ويشتعل غضبًا حين يعلم أن ثمة أمرًا ما أزعجك، أو أنَّ أحدًا قد ضايقك، يفرح لفرحك ويرسم الأحلام عنك ومعك ومن أجلك، هم يصفونه هكذا، فلماذا لا أعرف عنه شيئًا؟

كنت قلقة، قلقة جدًا، وشرطي الأول لحازم كان أن تطول فترة الخطبة وألا يطلب مني الزواج إلا عندما أكون حقًّا مستعدة، وأن يعدني بعدم الضغط عليّ وأن يقدر قلقي الشديد على يوسف ويسرا

أنا موافق جيهان موافق

كان رقيقًا بالقدر الكافي كي يجعلني أحبه

يمر صيف، تذبل الأشجار، وتسحق الرياح أوراق الخريف الجافة تحملها بعيدًا لتختفي وتختفي معها أوجاعي وقلقي، ثم تعاود الظهور من جديد وكأن لا نهاية مرجوة

يوسف أسعدني كثيرًا، إنني أنسى اليأس حين النجاح وأشد من أزره كي يبني حياته معتمدًا على ذاته، أدفعه لتغيير كل شيء وأرشدة كي يكتب باجتهاده علامات لطريق يحدد وجهته، فيتحدد معها عالمٌ ممتلئ بالفرح، أريدك مهندسًا مميزًا يوسف..

لا تقلقي ما دمت أحمل قلبًا نبت على يديك فسأصبح بخير

إنني قلق على أبي جيهان، لا تقلق يوسف، لقد خاطبت طبيبًا في المستشفى حيث أعمل، وقد حجزت موعدًا له سيكون كل شيء بخير، انتبه أنتَ لنفسك أنتَ على سفر يوم غد، ارتحْ قليلًا وغدا سأطلعك على النتائج

فشل كلوي، إنّ المرحلة متقدمة

لكن كيف؟

قلتها للطبيب وأنا يكاد قلبي يتوقف من هول المفاجأة

لم يشتكِ أبدًا، ما السبب؟ لكن يبدو وكالعادة لم يكترث لخوفي، ثم أكمل لا أعلم التحاليل وأرقامها تقول إنه ينبغي البدء بسرعة حتى لا تتدهور صحته..

لكن هناك علاجات بديلة، هل يمكن أن يكون هناك بديل؟ التفت لي في حنق وبدا لي وهو يقول متململًا لم تكررين الكلام؟

لديك تحاليلك وأعطيتك رأيي

تملكني ضيق من عدم سعة صدره وزاد الأمر أسفي على أبي الذي أصبحت قدماه غير قادرة على حمله

وحازم يتّصل بي ها ما الأخبار جيهان؟ أريدك أن تختاري الألوان المناسبة علينا الإنجاز قليلًا العمال يستغرقون وقتًا

أنتَ لا تفهم حازم

أنتَ تشكل ضغطًا هائلًا، انسَ الأمر هذا العام، إنّ أبي مريض وهو بحاجة للرعاية، ثم إنّ زوجته أصبحت حادة وهي لا تطيق تمريضه، إنّ مرضه عملاق مارد وألمه شديد، وبداية أولى جلسات الغسيل مرهقة لقلبه..

الأوردة والمحاليل الملحية المعلقة، صعوبة الحصول على إذن الغسيل، الأوراق التي ينبغي أن تنجز، والمعاملات التي تستغرق منك وقتًا، تيسير الله لي حين لا تستغرق معي وقتًا كوني أعمل في المشفى ويتسابق الجميع لمساعدتي ويتأخر آخرون عن المضي؛ لأنهم لا يملكون ميزتي تلك

إنّ الذهاب للمشفى بشكل دوري مرهقٌ له يزداد حنقًا، يتألم بشدة، يشعر باقتراب الموت، يكتئب أحيانًا، وجهه عابس، ضوء من الدمع يغادر عينيه، ينظر لي بثبات جندي لكنه أصبح هشًا وكأنه يقول:

لا تتركيني جيهان

تملكين قلبها، احتملت عيوبي كاملةً، عالجت أخطاء الماضي، أمك لم تكن مثابرة مناضلة إلا معي، كانت تجعل حياتي أفضل، كيف آذيتك بهذا الشكل جيهان؟ كيف طحنت أوجاعي من خلالك؟ لِمَ لَمْ تثوري مائة مرة؟ لِمَ كان الاستسلام صمتًا صامدًا حد الجبال معك؟ ليتنا نجيد تمزيقَ الماضي، ليتنا نجيد إحضار أوراق بيضاء في كل مرة، ليتنا نناضل لصنع سعادة حتى لو كانت شفافة، ليتنا لا نؤلم من نحب، أراك جيهان لا تفعلين شيئًا سوى الابتسام لي، لا نتوقف عن فعل الحماقات، لا نمتنع عن الأخطاء، جيهان لا نجاهد لتغير أفعالنا للأفضل..

ورغم كل شيء تبقين هنا بجانبي، أمك كانت تعرف تمامًا كيف تبتسم بالرغم من كل تلك الظلمة التي تحيط بها

لم أكن أعلم هل أبتسم أم أبكي؟ هل أفرح بحاضري معه عائدًا لي كأب اشتقت لوجوده وحضوره وحنانه أم أحزن لأن أوقاتنا معًا كانت ضعيفة مختنقة قليلة؟ كيف أضعنا العمر أبي هكذا في القصائد المحملة باللوم المطلق

أين كانت قلوبنا؟

عائشة ساعدتني، علمتني كيفية تركيب محلول ملحي، طريقة الحقن في الوريد،

تركيب أنبوبة في اليد صغيرة تحمل الدواء ويسكن من خلالها الداء، مواعيد الأقراص، الحبات الكثيرة المتنوعة بألوانها وأحجامها، والتدهور الذي ينذر بالرحيل

لا شيء أكثر رعبًا من لحظات الاحتضار، كان البقاء معًا حتى اللحظة الأخيرة

اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء اللحظة التي يتوقف فيها القلب عن الحياة

اللحظة التي لم يعش وقعها أحد مع أبي وأمي سواي

لم تصمد زوجة أبي، نعم لم تصمد، رحلت سريعًا كرحيل المواسم في سرعتها، لم تحتمل مرضه ولم يكن هناك حبٌّ ليجعلها تبقى، إنها تعلم وكأن كليهما يعيشان أيامًا تمضي، أما أيامي أنا معه فلا

أعوامه الخمسة كم كانت سريعة، وأيامي بعد رحيله ما أبطأها، وحازم رغم كل شيء صابر منتظر

لا؟ ماذا تعني بلا حازم؟ أعني لن أنتظر أكثر من هذا، ألم تكن خمسة أعوام كافية؟

غادرته وآثرت تركه حتى يهدأ

حتى هاتفني عمي

جيهان انتهى الأمر لقد كلمني حازم لو كان والدك على قيد الحياة ما كان ليرضيه هذا التأخير

لكن عمي قاطعني قائلًا لقد حددت موعدًا للزواج، سيكون في شهر يناير، سيكون قد مر على وفاة أبيكِ أربعة أشهر..

لكن عمي، انتهى الأمر، ثم أردف في حنان: افتحي قلبك جيهان تخلي عن المسؤولية ولو قليلًا، تستحقين الحب، سأكون وكيلك، أعرف أن تلك اللحظة ستكون صعبة قاسية عليك وأنت عروسٌ دون أبيك، وأعرف أن تلك كسرة لقلبك العظيم هذا، لكنهما سيكونان سعيدين جيهان

جيهان أريدك أن تتركي العمل، أخبرني حازم في حذر وقلق من ردة فعلي، توقع فيها أن أتمسّك بعملي ثم أحدثه عن طموحي وكياني إلى آخر هذه الأشياء، لكن الذي أفرحني وأدهشه أنني سأكون لأول مرة مسؤولة من أحد، وكأن هدنة من الناس ومن الحياة ومن كل شيء وأي شيء ستبدأ

أحب بزوغ الفجر، لونه المعتم، وانفراج الليل تاركًا بصمته بكل تاريخها في الخلف،

البداية الجديدة والضوء الناعم والنسيم الرقيق الذي يشهد ميلاد يوم جديد

مؤكد أنّ الأمر سيختلف، جيهان قلتها لنفسي وأنا أستعد للنهوض ويبدو أن هاتفي لن يتوقف اليوم عن الرنين، ستلومني نادية على عدم النهوض

وسيخبرني يوسف أنه قادم في الطريق، يسرى هي الأخرى محتارة بين فستانين وحيرتني معها في الاختيار، وجهي يبتسم أما قلبي فكان يتألم بشدة، لقد ساعدني يوسف على الاختيار، ثم وافق الجميع حين كان الاجتماع في غرفتي والمناقشة قائمة ومعقودة حين تخلينا جميعًا عن الحديث في كل أمورنا ثم عدنا لذكريات الضحك والمسامرة والوقت الممتلئ بسعادة حقيقية نابعة من القلب

حبيبتي يسرى إنها المرة الأولى التي نفترق

لقد انتقلت يسرى للعيش مع نادية، إن ابنتها في نفس السن وكلتاهما تشكلان ثنائيًا رائعًا

يوسف هو الآخر أسبوعه يقضيه في جامعته بالقاهرة، إنه يعود في أوقات الإجازات

أصبحت كل الطرق ممهدة ميسرة

ابتسمي جيهان، قلتها لنفسي وأنا أعد كوبًا من الشاي الساخن، وأمسكت به وضممته في رفق وكأنني أودّعه وانتظرت حضور الجميع حين غفلت برهة ورأيت أمي، كم هي رائعة الأحلام والرؤى، وكأنها إطار للحب

لوحة ما رسمت بأنامل ناعمة وزينت الحياة بألوانها التي تبعث على الدفء كجمال ألوان قوس قزح حين تجتمع، وتلك التي حين تفترق تفقد بريقها

وكأن الحب شطران لا يمكن الفصل أو الفراق

أحببته وشعرت لأول مرة أن قلبي قد بدأ يعزف لحنًا هادئًا هانئًا

لقد تزيّن البيت بقدومك اليوم جيهان، قالها حازم في رقة وأنا أدخل شقتنا وفستاني الأبيض قد أخذ مكانًا كبيرًا

كم انتظرت، كم تمنيت تلك اللحظة التي يجتمع فيها قلبانا معًا تحت سقف واحد، مؤكد أن الحلم تحقق الآن، قالها حازم في فرح حتى رن جرس الباب، ها ما الأمر؟ لا عزيزتي إن أمي فقط تريد محادثتك

أهلًا بك تفضلي..

كيف حالك زوجة ابني، بيتنا استنار اليوم بقدومك، لكن هناك حديث ينبغي أن تعلميه وتتعلميه، إن كنت تريدين الاستمرار في هذا البيت شعرت بقبضة ما في قلبي وأسدلت ابتسامتي ستارها عن فمي ورحت أحدث جوفي قائلة: ما الأمر؟

وماذا تعني بقولها؟ ثم لماذا هي متجهمة هكذا ووجهها عابس بتلك الطريقة؟ راحت تحدثني عن بعض النصائح والتوجيهات ولمست فيها غلظة الحموات لا نصح الأمهات لبناتهن في تلك الليلة، ثم ختمت حديثها قائلة: والأمر الأهم هو إخوتك عليكِ أن تنسي تلك المرحلة، لا يوجد زيارات، لا مجال لتلك المرحلة الفائتة من عمرك، الآن بيتك وزوجك أولى بوقتك ومجهودك، هذه قاعدة: إن البنت حين تتزوج تصبح ملكًا لزوجها وأهله ملزمة بهم..

لا مجال لتضييع وقت أو التحجج بالذهاب إليهم أو حتى استقبالهم هنا، وعليكِ أن تتعلمي تمامًا طاعة هذه الأوامر جيدًا ثم أردفت قائلة: ثم إنكِ يتيمة لا أب ولا أم هذا شيء يجعلك تعرفين تمامًا أن مصلحتك هنا معي لا يوجد من تلجئين إليه وقد أصبحتِ الآن بلا عمل هذا يعني تفرغك من كل شيء

كصدمة الزهر حين يقررون قطفه ونزع أوراقه دون رحمة يمنحونه الموت ويمنحهم هو وقتًا ضئيلًا من العطر

تركتها حتى أفرغت ما بداخل قلبها ثم التفت إلى حازم قائلة:

طلقني

ماذا تقولين؟ لقد سمعتماني

هذه حقيبتي فوق خزانة الملابس ناولني إياها سأحزمها الآن وأغادر

أخبرتك أنني لا أريد الزواج وأن حياتي وعالمي هم إخوتي وأن لا شيء في هذا الكون يمكنه التفريق بيننا، إلا إخوتي إلا إخوتي، هذا ليس من حقك ولن أجادلك أو أجادلها

لن أقبل ما تقولين ولا يمكنك منعي من ودهم أو زيارتهم هذا لن يحدث

إن وافقت على ذلك ستستمر حياتنا، أما إن أصررت على العكس فلتوصلني إلى بيت أبي الآن

أنا لا أخشى شيئًا

أردفتْ في غلظة وهي تقول أنتِ وأهلك لن تتحملوا عقبات هذا الأمر كوني عاقلة

أجبتها: أقول لكِ أنا لا أخشى شيئًا، وهل أخشى من الحياة أكثر مما فعلته بي؟ وهل هناك تبعات أكبر مما طحنته الدنيا بمطرقتها على رأسي خلال كل ذلك الوقت لتتصوري ولو للحظة ودون أدنى حق منك أنني سأقبل بهذا؟ لا والله ما كان ولن يكون

وجدتها وقد بدأت في الانسحاب قائلة: إذن اهدئي الآن

يبدو أنكِ متوترة حاولي أن ترتاحي

كان حازم صامتا

حاول تهدئتي وقد بدت عليه علامات الاستياء الممزوجة بالخجل من كل ما حصل، التفت إليه حين حاول إمساك يدي، قائلة في حزم: ستبيت ليلتك في غرفة الضيوف

بداية اليوم حتى النهاية كانت كفيلة لا أن أبكي على ما حدث ولا أن أفكر لماذا

كان الأمر يبدو وكأنّ معركة أخرى من أجل البقاء على قيد الحياة قد وضعتني رغمًا عني داخل حلبة للمصارعة، لكن الأكثر أسى هو أنني لم أرد يومًا المحاربة

في طفولتي كنت لا أعترف بالنهايات السعيدة

الأمير سيؤذي الأميرة في النهاية

بعض الأسئلة قد لا نجد لها إجابة أحيانًا خاصة عندما تكون في الحب

اليوم الأخير في الحضانة رقية صامتة، إنها لا تبكي أبدًا، أخبرتني أنها تريد نقل هذا الفيديو من هاتفي لهاتف أختها، حدثتني أنها تحب رؤية أمها تحتضنها، قالت إنّها شعرت بسعادة كبيرة ذلك اليوم؛ لأن أمها تخلت عن العمل من أجل أن تحضر حفلتها وكيف أن يومها كان مميزًا، إنني أريد الاحتفاظ بهذا المشهد

أخبرني أبي أن البكاء للضعفاء أستاذة جيهان وأنني ينبغي أن أفرح لأن أمي في الجنة، وأن الأمر أيام تمضي حتى نذهب لها كل يوم أستاذة جيهان، أريده أن يمضي سريعًا وأن أنفذ وعد أبي، أنا لا أبكي لأنني قوية

في شتى أمور حياتي وأشدها عنفًا وضيقًا كان الوقت والصبر كفيلين بتغيير كل شيء، لكن يومي الأخير في الحضانة كان صادمًا صامتًا من أي شيء سوى أنني لن أكون موجودة بجانب رقية كي أرفع عنها هذا الحمل، حمل القوة

وأدعها تبكي دون لوم لتفرغ الأنين ولتحصل على تبعات الحنين

ما أوجع فراقنا رقية!!

وما أشد قوتي وقوتك الآن ونحن نحتمل جهاد الدنيا ثابتتين دون دموع!!

غرفتي بيتي وزوجي، لقد مر وقت كافٍ، كان حازم صادقًا في محاولته لإصلاح الأمور، وكان قلبي أكثر رغبة في تصديقه، وتولى هو أمر تهدئة أمه تارة وتحملها تارة أخرى وبين إزعاجي وإيلامي من وقت لآخر

الوعيد والوعود التي أرادتها كانت تنفذها بطريقة أو بأخرى، منع إخوتي، منعي أحيانًا ثم المقاومة مني، ثم العتب وتعب القلب والعقل، المهم أن يكون هناك جذب وشد وشحن وتقلب، المهم ألا نحظى بحياة هادئة ومستقرة

وأنا بينهما وبين قلبي وحياتي، مطمئنة على قدمي ثابتة وأحدث نفسي بأنها أمه وأنه ربما حبها له وغيرتها عليه سبب، وأن الدفع بالإحسان يرقق القلوب..

المودّة لها رغم الأذى، والزيارة، صنع الكعك وقضاء وقت مميز، حث زوجي على ذلك كان أولى اهتماماتي، كان أمرًا أحتسبه لله، علّني ألقاه مع أولادي عند الكبر، ورحت أحلم أنني أمتلك بيتًا كبيرًا وأن أولادي الثلاثة بجانبي وحولي، وظللت أفكر في أولادهم وزوجاتهم وعائلة كبيرة وأنني سأكون لهم الأم، أطمئن الخائف وأنشر البهجة والود، أتبع النصح لمن يطلب، وأرحل بالرأي إن لم يرد أحد مني التدخل، سأكون لهم وطنًا.

كم تمنيت لو كانت لي أمٌّ تحتويني لا تحاربني وتجادلني، تشاركني الحب لا أن تشاطرني إياه

تمنّيت الحنان منها، ورحت أفكّر كم كان الأمر سيكون ملهمًا وآسرًا لكنني توقفت عن المحاولة بعد عدة سنوات، فلا أحد يغير أحدًا والقلوب هداها بيد الله وحده كاستحالة زوال الجبال لا تزول الطبائع.

لكنك تكمل رغم كل هذا الإرهاق؛ لأنك مسؤول وبدا الأمر وكأنني عبرت وادي الدموع وخرجت منه ظلًّا

راحتي الخاصة هناك حين نجتمع في بيت أبي، المنازل لا تسندها الجدران بل تسندها ضحكات إخوتنا وفرحة اللقاء في كل مرة ورائحة طعامنا المفضل والشوق الذي يحمله في كل المناسبات، وحتى الأحزان العائلة هي التي أراها المخرج الوحيد

لي وذكرياتنا المشتركة مع يوسف يسرا ونادية وأولادها وأنا ومشاعري وما أشكله لهم وكيف أحيانًا كوننا على رغم من ضعفنا سندًا لمن هم أضعف، ولأن هشاشتنا قد تكون هي جيشنا الوحيد رغم انعدام الرحمة من قلوب أخرى حولنا صلبة مثل الجبال يكون اليوم مميزًا، أغدو بعده عائدة قادرة على الصمود والمواصلة والحب؛ ولأنني خلف كل تلك الأوقات وحول كل تلك اللحظات ورغم كل شيء أجد نفسي راضية، ويسرا الآن على أعتاب الزواج

صغيرتي يسرا كم أحنّ للمس شعرها المسدول بعناية، لم تناقشني يومًا بتغييره وأنا أصففه لها صباحًا وأعد لها قائمة الطعام

يسرا عروس لم أستطع منحها نصائح ذلك اليوم، تركت الأمر لنادية بينما ظللت أرقب ضحكاتها من بعيد وأبتسم، لا يمكنني الحديث اليوم ولا حتى البكاء فرحًا من أجلها وشوقًا لمن ستفارقني من البيت والحياة إلى عالمها الخاص

ها جيهان قالتها يسرا وهي تحاول إبعاد دمعة صغيرة من عينيها قائلة

لماذا أنت صامتة؟ حتى بسمتك حزينة جيهان

اكتفيت بضمها إلى صدري ورحت أدعو الله لها أن تلقى الخير والسعادة وأن يرزقها الله الراحة والستر وأن يمن عليها بفضائل كرمه وعفوه

سأغادر وستلحقين بي إن الغربة أصبحت وجهتي الآن سافر حازم

وسألحق بك، كلانا كان يدرك وجع المغادرة وأنين العودة ليس حاضرًا لا في أي وقت ولا تحت أي ظرف

في الغربة تعلمك الدنيا ملامح مختلفة عن تلك التي لم تعشها تحت سماء وطنك

الأمور متفاوتة، أوجاعك أحزانك وحتى أفراحك تمنحك ريًّا لظمئك

ما بك حازم؟ لا شيء ماذا تقول؟ أعرفك حين تكون مهمومًا

الحقيقة جيهان أن العمل يمر بضائقة شديدة أصبحنا مهددين بتقليص العمالة وخفض التكاليف، ثم كانت المفاجأة اليوم تركت العمل ولدي فرصة لنقل كفالتي والبحث عن عمل جديد، لا تقلق يمكنني العمل وتحمل المسؤولية معك حازم لا تخشى من هذا الأمر

الرزق بيد الله

ميدان العمل الذي تخليت عنه فرحًا بأنني سأكون مسؤولة من أحد آخر
وأن هذا الهم بكل ما يحمله من تبعات وانعكاسات لم يعد مطروحًا كاختيار
وأن البيت والأولاد وحتى حازم جميعهم بحاجه لي الآن
عمل يمر بنجاحات إخفاقات وتقلبات، وحازم يحصل على فرصة بأجر أقل وجهد أعلى ولا يملك رفاهية الرفض أو المفاصلة وأولادي يكبرون وأكبر معهم
الاتصالات الهاتفية تنقل الأشواق، تمنحك حنينًا لمن غابوا هناك في الطرف الآخر من العالم هناك في الوطن
واتصال هاتفي من يسرا انقبض قلبي، تناولت هاتفي ها خيرًا يسرا ما الأمر أقلقتني عليك ما أخبار ابنك؟
لترد بصوت مختنق جيهان أريد الطلاق
ماذا؟! ارتخى صوتها وانخفض في همس وهي ترد: نعم أنا تعبة وهو يريد فرض شروط عليّ لا أحتملها
تتحدثين عن الطلاق
ردت بتلعثم، لكن جيهان أجابتني بصوتٍ مضطرب حين لم أسمح لها بالإكمال
يسرا ابحثي عن حل، لا تتفوهي بحماقات الطلاق مرة أخرى، بيتك حافظي عليه، إنها تخشاني نعم أعرف يسرا تخافني كأمّ لها لا تقوى على معارضتي، كلمتي لها سيف لا يمكن مناقشته خوفًا من حدّة نصله أين كريم
أهلا أستاذة جيهان
أردفت بغضب اجعلها تفعل ما تريده منها دون إجبار أجابني كيف
لأرد بنفس اللهجة كيف
هذه مشكلتك الآن، فكر أريد ردًا منكما معًا بعد يومين بأن الخلاف قد حُلّ وأن أموركما قد زالت عوائقها
هذه مسؤوليتك نحو زوجتك وطفلك ولا تستمع لحمقها عن الطلاق، احتوِ زوجتك دون أن تظلمها أو تظلم نفسك، ولتعلم أنك لو استمعت لأمر الطلاق هذا فاستعد لما سأفعله بك حين عودتي
هاتفني بعد يومين ها ما أخباركما؟ كان صوتي جادًا جدًا ليجيب بخير أستاذة

جيهان جيد، كريم ما هذا الصوت؟ إنه صوت يسرا وهي تضحك

فرحت هكذا بداخلي لكنني أكملت بنفس اللهجة الصارمة، جيّد أتمنى أن أسمع عنكما كل خير شكرًا جيهان قالتها وهي تودّعني، لقد منحتني القوة شكرًا غاليتي شكرًا على كل شيء، أجبتها وأنا أودّعها: وأنتِ أيضًا يسرا أكرمي كريم إن كنتِ تحبّينني صدقًا أكرميه

فاجأني صغيري معاذ وهو يهمس حين أمرته بإحضار كوب ماء لي

أمي معاذ يخاف

همست له وأنا أقترب قائلة بنفس نبرة صوته: مم يخاف معاذ؟ ليكمل بنفس صوته الهامس من الثلاجة أمي ألا تسمعين صوتها

ما الذي يخيفك؟ أتعرف ما الحل لهذه المشكلة العملاقة؟ أجابني ببراءة ما الحل أمي؟ ثم أردف قائلًا مستبقًا لردي: الحل أن تكوني معي وأنا أفتحها

تبسمت وأنا أنظر لعينيه الصغيرتين، بل الحل أن تذكر الله، قل بسم الله الرحمن الرحيم يطمئن قلبك أوتعلم من سيكون معك حينها؟ سيكون معك الله في كل أمورك وشتّى أحوالك

أنتِ رائعة أمي كم أحبك

لقد أخبرت أخي زياد أن هناك ماردًا عملاقًا يسكن الثلاجة، أمي أريده أن يخاف لكن سفيان أخوك صغير كيف تخيفه هكذا؟

ابتسم ماكرًا وهو يقول لا أمي إنها فقط كذبة بيضاء

أمسكته من رأسه برفق قائلة: لا سفيان الكذبة البيضاء تظل كذبة حتى لو حاول أحدهم إقناعك، إنّها ظل للحقيقة، هذا تحايل رخيص عليك أن تعدني ألا يتكرر الأمر حاضر أمي سأفعل

التدرج الطفيف للعاصفة حين ترسل نغماتها الأولى محذرة ثم يعقب الأمر هدوء حاد يمهد لميلاد أمر سيئ في النهاية أمرا لا تخشاه بقدر ما تخشى ما يتركه من أثر سيئ إن نتوءات الأوجاع في القلب تصبح مع الزمن خناجر، تُرى ماذا كان سيصبح حالي لو لم تكن تلك الحرب منها حاضرة؟ ماذا لو كان هو تارة جيدًا متفهمًا ومئات المرات عنيدًا مقتنعًا بعكس ما هو غير صحيح وقاسيًا؟ ماذا لو كانت بالنسبة لي بمثابة أمي فأحنّ لمجلسها وأحزن لتركها وأعلم حين تغيب أنها ترعى الغياب والحضور رحمة من الله

ماذا لو كانت للقلب مودة بيننا لكان قد أقيم جسرٌ بين القلبين كذاك الجسر الذي كان بين أبي وأمي، لكنت أصبحت أكثر سعادة متناسية شقاء الماضي والحاضر حين تمر الأيام والشهور وأنفق ما أجنيه من أجلهم جميعًا، لا لشيء إلا ليكونوا سعداء، ولا طمعًا في شيء سوى ثناء يخلد في الوجدان معنى، حتى هذا لم يكونوا ليرونه غفلة من قلوبهم، كم تمنيت حقًّا عائلة تحل لي مشاكلي، أن أكون ولو لمرة على الجانب الآخر من الشاطئ

الجانب الذي ينتظر الحلول ويقبع ضعيفًا مستكينًا مستسلمًا منتظرًا للمنقذ الجانب الآخر من الشاطئ حيث هدوء الرياح ونسيمها العليل لا عواصف لا تناحر ولا انتظار الدفاع عن قضايا صغيرة تافهة يجعلونها عملاقة بحجم حمقهم

وأظل ألهث خلف العمل الذي لا يكفي كدخل حين يفقد حازم عمله لعصبيته الشديدة مع كفيله، ثم يغدو رفضه المستمر لكل عمل يعرض عليه أمرًا يجد فيه راحة لأن البدائل متوفرة

بدائل كنت أحمل فيها حقائب التسويق لمنتجات متنوعة ندلف إلى البيوت ننتظر على الأعتاب ويطول الانتظار ونقابل بالرفض أحيانًا لا لشيء إلا لرغبات غير متوفرة، فنجر الحقائب باحثين عن منهج جديد في عالم آخر الفوز وتحقيق نسبة مبيعات لم تكن تحمل للقلب فرحة الحصول على المال أو زهو نجاح ما

طعمها كان مختلفًا؛ لأن حازم كان مختلقًا لنكد معهود كي يحصل عليه كاملًا دون أن يبدي ولو حتى ابتسامة، كانت محاولة الإرضاء شاقة كتلك المشقة التي خبرتها على كل عتبة وخلف كل درج أرهق قلبي صعودًا ونزولًا

حقائب الأعمال لم تكن أكثر ظلمًا من حقيبتي خارجة من بيت أبي وعائدة له معتذرة عن ذنب لم أعرفه

حقائب لم تكن أكثر رحمة من حقائب المغادرة من الوطن والبحث عن حياة في جانب آخر من العالم ربما يكون أكثر رحمة

حقائب متنوعة تتشارك وتفترق ويفهم أهميتها من يفهم ويغفل عنها من يغفل لكن لا أحد أبدًا يفكر في حملها بدلًا عني

المناهج الدراسية التي أجدت شرحها ليوسف ويسرا، التدريس مهنة أشق لا أترك بابًا دون طرق، لا أتوقف عن المحاولة لأنني الجبل الذي يصفونني به

عملي الذي أحضر منه أموالًا فأقف على أعتاب البيوت انتظارًا وأدلف شارحة لكل أنواع المناهج الدراسية، حاملة أوراقي وعقلي وعائدة مجهدة محملة بالمال الذي لا أجده في حقيبتي

طواحين الهواء صنعوها لكنهم ظلموها، جعلوها تدور في ساقية معلقة لا تتوقف لالتقاط الأنفاس ولا لاستعادة كيانها ولا حتى للبحث عن بدائل

تضعنا الحياة رغمًا عنا في شقاء متصل أما حتى كلمات الشكر فلا نجد

الجبال في الوطن كنت أراها على الخرائط في المواد الدراسية التي أشرحها لإخوتي بمتعة كبيرة فأعرف مواقعها ونظمها وأسماءها لكنني لم أرها في الحقيقة في وطني، لم يكن هذا الأمر متاحًا دقات عمري كانت لا تسمح لي بمغادرة محافظتي، أعرف عن آثارها تاريخها العظيم ضوءُها الذي أنار العالم وسيظل

بيت أبي بكل أوجاعه وعينا يوسف ويسرا شكّلا لي حياة أطرافها كاملة حد الجبال

الجبال هنا في الغربة مجاورة تختبر مسافة بسيطة بينك وبينها تنظم عنها قصصًا في رأسك حتى تكاد تلمسها

هل كنت حقًّا جبلًا صامدًا مثلها لم لا أجرب لمسها؟ لم كل شيء يبدو لا قيمة له الآن؟

إن يسرا ويوسف وحتى نادية ينتظرون حلًا والذي يكون على مائدة الحديث سريعًا وحاضرًا

أما أنا فيمر الوقت ويرن في سمعي قول عمتي أنتِ يا جيهان جبل أخشى عليه من الصمود أكثر مما ينبغي

ما عاد للأحمال مهما كثرت ثقل مؤثر

لقد اعتاد الجبل التحمل، لم تزر قلبه مشاعر القسوة برغم كل ما حملته له العواصف والرياح، لم يتأثر؛ لأنه أقر منذ زمن أجر الاحتساب

قطع تفكيري صوت هاتف لا يتوقف، انقبض قلبي لا بدّ أن شيئًا ما قد حدث

تهاتفني يسرا أدركت قبل أن تبدأ أن هناك مشكلة ما، ودون أن أنطق أخبرتني قائلة

لقد طلقني، جيهان لا!! صاعقة قد وضعت أوزارها في محيطي، مثل تلك اللحظة لا أعرف كيف أفكر، لا يجيب على الهاتف، تصنع أمه خلفه جبلًا كي يصمد، تأخذ

ابنها منها، ترمي بها لأنها تريد تأديبها تريد كسرها كي تخضع، تختلق الأكاذيب وهو بجانبها منكسرٌ منصاعٌ منقادٌ لرغباتها دون فكر، لا تفلح المعالجات أو المناقشات في ثنيه عن رأيه، تقسم إنّها ستجعلها تعود راكعة وترسم لابنها مسارًا كي يمشي عليه منفذًا خطوات ظالمة، تريد أكل حقها اتهامها بالباطل النزاع الدائم أن تقف على أبواب المحاكم حتى إذا أرهقها الوقت عادت بلا وطن سوى وطن ترسم هي ملامحه وتزهق روح يسرا الضعيفة حد الإرهاق المستمر؛ لأنها تعرف مرضها الشديد، أعتاب المحاكم وأتعاب المحامين ولا مكان تمضي إليه لأن بيت أبي قد تم بيعه، يوسف أراد الزواج والحياة مكلفة، نادية هي الأخرى أبناؤها الأربعة تكاليف التعليم وضائقة المال المستمر لأن العمل راتبه قليل ورحيل يسرا لبيت يوسف دون أي شيء، دون ملبس جيد أو تفاصيل يمكنها من خلالها أن تحصل على هواء ولو ضعيف، لا عمل يمكن أن تتحمل يسرا إجهاده وحدود غرفتها في بيت أخي كانت مسارًا لا تغادره، يشبه حدود غرفتي في بيت عمي حين كانت صغيرة وحدها دوني في بيت أبي

كيف أصبحت يسرا دوني هكذا مرة أخرى؟ لا أعرف حقًّا كيف أرسل لها مالي، إن كل تفاصيلي يعرفها حازم لا بد أن عاصفة ما ستنشأ، لا بد أنا الكدر سيكون له حضور وستكون عواقب هذا الأمر كبيرة، صديقتي نجوى تبدع حقًّا في إيجاد حل لي

أجدها تطبب الوجع دون تفاصيل، تجد معي حلولًا وتدفع بها كي يكون الطرف الآخر من الشاطئ هادئًا، تداوي الألم دون أن يعرف أحد، لقد وصل المال ليسرا أجدها كالأرض لا تصدق كيف ساعدها المال، لقد أحضرت هدية لزوجة أخي أرادت أن تطفئ نصحها المستمر بالعودة والتحمل والتقبل والخضوع، أخبرتني أنها كبرت بالقدر الكافي لتعرف كم هي ثقيلة في بيت أخيها وكم هي خفيفة حد ريش الطيور معي محلقة

لا أعرف حقًّا جيهان ليتني لم أخبرك لكنني لا أجد من يسمعني أحبك جيهان سوف أعمل سأجني المال وسيكون هذا أمانة أردها لك عند عودتك لسماء الوطن، كم طال الغياب جيهان، أشتاق لك حقًّا، أردت أن أشكرك على كل شيء بفضلك تمكنت من الابتسام في كثير من الظروف الصعبة، تجعلينني أشعر دائمًا أن الحياة جميلة وأن الصمود قرار لا يغادرنا متى أردنا التعلق به، وأن الظلم مهما كان جائرًا لضعفنا فلا ينبغي أبدًا أن ننحني له، ولا أن نرتضي به، أحبك جيهان وأخشى من احتراق قلبك في

الأنحاء ومن انخفاض روحك حدًا لا يراه غيرك؛ لأنك الجبل وأنا صغيرتك الضعيفة أقف في المنتصف أكتفي بالنظرات العابرة والمسافة مرهقة مرهقة جدًا

أعلم أن أمورك ليست جيدة أشعر بهذا من صوتك، أعرفك وأعرف قلبك جيهان أنت لا تخبريني بتفاصيلك لم أستمع يومًا لمشاعرك كيف أمكنني أن أكون غافلة لهذا الحد؟

أنت جبل جيهان لم تتحدثي يومًا عن مشاكلك كنت دومًا حلًّا لمشاكلنا جميعًا تخرج الحلول بمهارة المحاربين الذين نذروا أنفسهم لحماية الأوطان، أجدت الدفاع عنا دائمًا

أخاطب يسرا لا تقلقي ستكون كل أمورك بخير حبيبتي، قطع سفيان تفكيري وهو يقول أمي، نعم سفيان ما الأمر؟ هل أنهيت دروسك؟ إن المرحلة الإعدادية هامة ومجهدة، لا تقلقي أنا بخير حال

أوتعلمين أمي إنني حقًّا أتعجب منكِ، أستغربكِ، أراكِ كائنًا غريبًا، تجهمتُ من قوله وأنا استفهم لماذا؟ ثم توقفتُ قائلة ماذا تعني؟

أعني أمي أنك بعد كل تلك الفصول وخلف كل تلك الأوقات من التحمل لم أركِ يومًا تبسطين الحكايا وتنسجين من خلالي رفضًا، لم توصِيني بعكس ما يمكن أن يحدث برغم كل متاعب قلبك من ناحية جدتي وأحيانًا أبي، الطبيعي أن يحدث العكس أن تغضبي وأن تطلبي مني عدم الترحاب وقلة الهمة وضعف العزيمة، أوقفته بإشارة مني قائلة: سفيان إنني أرعى الله فيكم، أنتم أحفاد وأريد تربيتكم تربية صحيحة لا دخل لكم بشيء، هذا أمر يخصني وحدي، والله إني لأرى عطاء الله فيكم، لكن أمي أنا أتألم لك لم تشتكِ يومًا لكنني كم تعبت حين كنت أراكِ تعانين تجاهدين وحدك تفكرين كثيرًا وتشعرين بعمق، وهذا مزيج خطير مؤلم أنا هنا أمي أنا أرى

أنا أعرف لم تأخذي حقك، أمي أرى هذا ضعفًا، لا سفيان

لا تعني القوة أخذ الحق دائمًا أحيانًا تكون في التخلي عنه

أريد أن أصبح جبلًا مثلك أمي، جبلًا يخشاني الناس مهابةً فلا أنكسر أظل شامخًا لا يمكن سحقي أو التعدي علي

لا تقاس الأمور هكذا سفيان أحيانًا تحدث أشياء مريعة ومفزعة، هذه الأشياء تمتحن صلابتنا وصبرنا الحياة مسارات متعرجة لا يمكن يومًا أن تطوي الطريق وكأنه سجل قد يصبح طريقك سهلًا ناعمًا مباشرا وقد يمتلئ بانحناءات لقلبك عظيمة وقاتلة

الأهم أن تعرف الإجابة، أن تكون مرنًا لتفادي ظلامها ولتتعافى كي تكملها الحياة رسالة سفيان اجعلها في كل مرة بداية لا تظلم فيها أحدًا الجبال صلبة كن مثلها صلبًا في الحق قاضيًا عادلًا بين الخلق برحمة احمل دائمًا أشرعتك وأبحر بها نحو السعادة، السعادة هي ألا تظلم أحدًا أبدًا، لديك حياة عظيمة لتحياها ستسأل عن كل لحظة فيها، ستعيش بعين تبصر ما وراء المشهد وبأذن تسمع وراء ما يقال بفكر يفهم ما يختبئ خلف الكلمات والأفعال وأقوالها، وفي كل مرة ستعود لتقف لكن هذه المرة برؤية أوضح وبقلب كبير متسع كالمحيط ومتسامح ستفهم بعد كل جولة المقصد وستعرف أن طعنة القريب تدمي الروح لكن بقدر ألمها تجعل منك شخصًا أصلب أقوى أوعى، تهدمك بالقدر الذي لا تتوقع بعده أنك ستقف ثانية تكسرك بالقدر الذي ليس له جبر، لكن صدقني سرعان ما تتعافى، تجاوزت كل ألم في الماضي في كل مرة ارتديت فيها قناع السعادة وخبأت خلفه أوجاعًا كادت أن تقتل روحي، ومع كل غصة ابتلعتها كي أكمل كمحارب أعزل بلا سلاح ولا درع لكنني وقفت في ساحة الحرب صدقًا ببسالة وتجنبت المعارك لا لضعف بل لرحمة وانتظرت الجزاء وطويت الحزن بداخلي بصبر كالجبال

الحياة يا عزيزي رسائل، كن أكثر حظًا كي تعيها باكرًا وأكثر رحمة كي تتجنب أخطاءها وأكثر حكمة كي تفهمها، كن جبلًا حقيقيًا عادلًا لا ظالمًا

أحبك جبلًا صامدًا.... أحبك أمي

شرائطي البيضاء
الصف الأخير

لا أريد أن أكتب شيئًا، لماذا؟ لا فائدة من الأمر، لا شيء سيتغير على أية حال، العالم يمضي والأشخاص يتزاورون، يقفون على الأعتاب مودعين بابتسامة ومؤدين لواجب السؤال كيف الحال؟ ما أخبارك؟ هل أنتِ جيدة؟ فأجيب نعم الحمد لله، ولا أحد يقرأ عينيّ؛ لذلك لا فائدة من كتابة شيء لن يقرأه أحد في النهاية سيحل الهجر وسيبقى قلبي وحيدًا على وسادته ليلًا

أنت محقة زينب، لكنني مستعدة لقراءة ما تكتبينه، جربي الأمر مرة ولنرى، سيتحسن خطك تبهرني طريقتك الهادئة، حدثيني عن كل أمورك وستجدين حلًا لمشكلتك، أطرقت رأسي مودعة غرفة الأخصائية الاجتماعية وأنا أردد نعم سأحضر دومًا

إنّ صوت الإذاعة المدرسية اليوم ممتلئ بأحاديث عن الأمهات؛ فضلهنّ مآثرهنّ ونماذج من قصصهنّ العظيمة مع الأبناء، وثمة تاريخ يُروى وصوت عذب يُنهي القصة بخبر وفاة الأم ورحيلها لتتصاعد بعدها التنهدات، وتندفع مئات العيون حولي وأنا أتساءل: لماذا يبكين؟ إنهن يملكن أمهات في عالمهن، ما الذي يشجيهن ويجعل قلوبهن وعيونهن تتأثر إلى ذلك الحد، ترى ما التاريخ الذي بينهن؟ وما هي تلك الليالي التي يملكنها ويحدثن غيرهنّ عنها؟ لما يتساءلن في حصة الرسم عن كيفية عمل لوحة جميلة يردْن تزيينها بالشرائط والألوان التي يستخدمنها، الطريقة التي يمسكن بها الأوراق، المحاولات التي يردن بها صنع شيء مميز للإهداء ولماذا لماذا يبكين وأنا لا؟

لا أعرف هذا التاريخ وعالمي لم يكن ممتلئًا بأوراق الحب بين كل أم وابنتها، أوراق الذكرى التي لا ترحل عن القلب والعقل، لا أغمض عيني لأتذكر، لا شيء هناك في الذاكرة سوى الرحيل وربيع عمري السادس يخبر قلبي أنه لم يعد لي أم

لا أذكر يومها سوى أنني كنت في غرفتي أحاول اللعب وأختي الصغيرة تبكي طلبًا للحليب وأبي بعد العودة لا يجيد صنع شيء ويتذمر كون البيت كبيرًا ولا يمكنه

المضي من هنا لهناك طيلة الوقت كي يلبي احتياجاتنا التي لا تنتهي

لن يصمد طويلًا، أعلم هذا، سيعلن عن رغباته وإرهاقه وحاجته

إلى ذلك الحين سيغمس رأسه في العمل، شاهدته وهو يحزم حقائبنا، يضع فيها تنورتي التي أحب ارتداءها، إنها ذات لون شجي يا إلهي كم أعشقها، ملابسي الأخرى ملابس النوم وحذائي الجديد ملابس المدرسة كانت حلمًا، كنت أضعها في علبة جديدة استعدادًا لتلك المرحلة التي أنتظرها وأخبر نفسي نعم سأذهب لعلّي لم أكن في وعيي وقتها، إن المدرسة عمل ذهني مرهق بحاجة لجهاد كي نتعلم وبحاجة لمساعدة أكبر كي نستمرَّ دون أن نكون في الصف الأخير في تلك المنطقة التي يطلقون عليها بلداء.

يبدو أن أبي قد جمع كل شيء، فخزانتي باتت فارغة، يبدو أن الرحيل عن المنزل سيكون طويلًا، وربما إلى الأبد، لم تكن حبات شعري ناعمة، كان يأخذ وقتًا طويلًا في التصفيف، وشرائطي البيضاء كانت دائمًا تضيع

جدتي لم تحتفظ بشرائط بديلة، ويكون الأمر مجهدًا ونحن نبحث عنها صباحًا في أكوام الغسيل، وبجانب النافذة وبين طيات الملابس لأشفق على جدتي التي تبدو من أقل عمل مجهدة على الدوام لأقول لها لا تقلقي سأقف في طابور الذنب عوضًا عن ذلك لا بأس

لم يسألني أحد عن سرّ ضياع شرائطي البيضاء بشكلٍ دائم ولم أكن أعرف بماذا أجيبهم

كل ما كنت أعرفه أنه عليّ انتظار العقاب مرةً بالحرمان من الحصة الأولى أو الوقوف أمام الانتظام المدرسي الصفي كمثل للمعاقبين

أما أنا مع الوقت اعتدت الأمر واعتاد الجميع على صفتي تلك لأكون دائمًا في الصف الأخير

الصف الذي لا يحسن عمل الواجب ولا حل المسائل بسرعة، الصف الذي يبدو دائمًا أنه لا يهتم شغبًا، أما أنا فلم أكن أعرف إلا شيئًا واحدًا أنا لا أجد من يساعدني أو يخبرني ماذا أفعل، وأتمنى لو كنت حقًّا أجيد الكتابة وتجنب أخطاء العقاب كي أخطو ولو خطوة واحدة للأمام لتلك الصفوف التي يقدمون فيها الهدايا لأوائل الصف، حصة الخط كانت أجمل حصة، كانت معلمتي رقيقة وهادئة لم تكن تنهرني ولم تصدمها رداءة خطي، لم تسألني عن السبب وتمنيت لبرهة لو فعلت

تمنيت للحظة لو كانت هي أمي، أن أجرب ذلك الشيء الذي يتحدثون عنه ويخبرون غيرهم عن مدى روعته، إنه حضن الأم، أردت أن أعرف ما هو هذا الشعور؟ كيف يبدو؟ أن تعود يومًا لتجد أمك في البيت، تُرى هل يفعلون مثلي؟ إن جدتي تضع لي الأرز والدجاج لكنها لا تسألني إن كان قد أعجبني، نفضت أفكاري تلك بعيدًا، لم أبكِ يومًا على تلك القصص التي يبكون من أجلها في الإذاعة المدرسية، لا أعلم لماذا معلمتي تمسك بيدي تخبرني أن الأهم هو أن نعرف جيدًا كيف نمسك بالقلم وأن يكون السطر بمحاذاة خطي، هذه النقطة الأولى، خط الرقعة وخط النسخ هناك أنواع وأشكال من الخطوط تعرض علينا أشكالًا منها ننبهر لكنها تخبرنا كيف نبدأ وإلى أي منطقة من الحب يمكننا أن نصل

عدت سعيدة، لقد بدأت في تعلم شيء جديد، مؤكد أنه مع الوقت والمداومة سننتقل كما تقول معلمتي من مرحلة الابتداء إلى مرحلة الإتقان، والأهم على حد قولها هو أن نحب ما نفعل، ربما تكون تلك مشكلتي، لم أحب يومًا المدرسة، كانت صورتها الذهنية تعني ملابس جديدة وحقيبة أظل أضع فيها الكتب وأرتب مكان الكراسات وأتجول بين جيوبها وأغلق السحاب مرارًا وتكرارًا، فرحة أنا، أملك حقيبة وعلى الظهر تُلبس، ربما كما تقول ينبغي أن نتعامل مع كل شيء بحب

الانتظام في الطابور المدرسي كان شيئًا أخشاه أظل أختبئ حتى مع قدومي باكرًا في كل مرة أنتظر أن يصطف الجميع بسرعة بزهو وأحيانًا بفخر نحو الصفوف الأولى صف الإذاعة المدرسية للمتفوقين، أزهار تعلق على أعناق الحاصلين على الدرجات النهائية، شهادات التكريم في حفل، نظل نحن نرقب الفخر في عيون الحاضرين من الأمهات، الأحضان الرقيقة حين تتلهف، كل بنت بشرائطها البيضاء الناصعة التي أحسنت الأمهات كيّها ونظمها، والصف الأخير الذي ألزمه دومًا مختبئة في خجل؛ لأني لست مثلهم ولا أستحق التكريم، الفرحة التي يعودون بها إلى أوطانهم والخزي الذي أعود به وحدي إلى بيت الجدة

الأقلام صنعت دومًا للكتابة لنعرف من خلالها إن كانت أوقاتنا وأحلامنا قابلة للتحقيق

الأوراق خلقت لتسعدنا حين نحضر درجات تعبّر عن الاجتهاد في وقت ما وتحمل

همومنا إلى عالم يقسو علينا أحيانًا؛ لأنني بلا أم التفاصيل الملهمة لقلوبنا والرغبات التي نحلم بها ونخشى الإفصاح عنها، القارب الذي نحلم به لينقلنا نحو بيت آخر عالم مختلف عالم لا أخشى فيه لومًا لضعف دراستي ولا لقلة استيعابي لمنهج كان أثقل على قلبي من فقد أمي

فرحتي الوقتية لم تكتمل، لقد كان أبي يزورنا من حين إلى حين، يحضر لنا الحلوى، كنت أفرح بلقائه، يحمل معه أكياسًا كثيرة من الحلوى والبسكوت، يحضر لنا فساتين لم أفرح بها، نحن لا نخرج كثيرًا، أين سألبسها لكنه هذه المرة أحضر فستانًا مطرزًا يشبه فساتين الأعراس، أسرعت بارتدائه ثم وجدته يتحدث مع جدتي عن قاعة لفرح وميعاد العرس وتناقشه، مما يدل على أنها كانت تعرف كل شيء عن الأمر، غادر بعد أن طبع على وجنتي قبلة وطبع في قلبي عقب سيجار أطفأه دون رحمة، ربما لو كان أخبرني لكنت ابتسمت، لكن ما التصق بأذني هو جملته الأخيرة لجدتي سأضم البنتين لرعايتها يكفيكِ ما قمتِ به من جهد كل تلك الفترة الماضية، أبدت هي الأخرى ارتياحًا، فرعاية أطفال في سنّها وبكل ما تحمله من أمراض أمرٌ منهك لها، لكنها لم تستطع أن تقاوم عينيها حين أبحرت دمعة منطلقة عبر وجه ظننته لا يبكي أبدًا

كان بيت أبي قد أعيد ترتيبه، يبدو أن العروس الجديدة قد قامت بتغييرات وصنعت لمسة خاصة أحببتها، أحببت البيت الجديد، وأحببت أصناف الأكل التي تصنعها بمهارة، أحببت عودتي من المدرسة كي أجد أحدًا في انتظاري وأحببت شيئًا جديدًا يشبه ما تخبرني به صديقاتي، وأحسست بزهو التماثل وأنني رويدًا رويدًا أصبحت مثلهم

كان البيت كبيرًا وأبي يغيب بالأيام والشهور، إن معارف أبي كثر وبيتنا لا يهدأ من الزيارات والتضايف، العمل كثير وزوجة أبي مع الوقت أصبح لكل منا عمله، التنظيف المسح البراد الذي ينبغي أن يُغسل باستمرار فناء البيت الفسيح يمتلئ بالغبار لو ترك يومًا دون كنس جلي الصحون كان هناك الكثير من العمل، وكنت قد اعتدت الأمر، فهي تصنع لنا أصناف أكل مميز وحلوى كان لا بد لها من الاستعانة بنا، أصبح هذا الأمر شقاءً ينتهي بحلول الليل، علمتني كل الفنون ومهارات الطبخ ورعاية البيت حتى إذا أجدتُها أوكلت لي المهمة كاملة

التمست لها العذر فالبيت كبير وهي الأخرى تبدو مجهدة من العمل المستمر، مؤكد

أن كل صديقاتي هكذا، هذا أمر طبيعي، إذن لقد أصبح لي أم الآن، إنني أملك منزلًا وأمًا مثلهن، لكن لماذا لا أشعر بما يشعرون به؟ لم لا أملك قلبًا يرق عند ذكر قصص الأمهات في خطابات الإذاعة المدرسية؟ لماذا هذا الأمر يشكل لي لغزًا لا يمكنني حله حتى قررت أن أسأل صديقتي هند نعم سأتشجع

هند لِمَ تبكين؟ أنتِ تملكين أمًا تحبك، العادة أن نبكي على الأشياء التي تنقصنا لا تلك التي نَمتلكها، على كل تلك المشاعر التي في عالمنا تسبح لا تلك التي نفتقدها، على كل الأمور التي تشعرنا بالسعادة لأنها حية في قلوبنا لا تلك التي عن أوقاتنا رحلت

هذا ليس سؤالًا هينًا زينب، إن الحب حين تتذوقينه لا يمكنك بعدها تخيل حياتك دونه، أن ينغمس رأسك في صدر أمك، أن تخبريها بكل أوجاعك وآلامك وأحلام المستقبل ومخاوفك، أن تجدي عينًا تستقبلك في كل أوقاتك التعيسة والسعيدة أن تزهر أزهارك فقط لأنها تبتسم لك، أن تعيد لك ثقتك بنفسك التي تهتز عبر أعوام عمرك وزمنك مرارًا لتخبرك أنّكِ جميلتها وأنها ستظل تدعمك دون شكوى أو تململ، أن تغمضي عينيك هاربة من كل شيء لأنها هنا معك، أن يكون لكل أمر تفعلانه معًا رونقًا ونبضًا وحياة، هذا أمر حين تفكرين أنه يمكنك أن تفقديه تجدين عندها قلبك يئنّ لتخبر عيناك العالم كله بهذا الحب المنسدل عبر القطرات، أن تصدقك حين يكذبك العالم أجمع، إنها المرة الأولى التي تنسدل دموعي يا هند إن كلماتك موجعة

إنها المرة الأولى التي أقرر أن أكتب ما أتمنى، ما كنت أريده، لكن ما نفع كتابة الأوجاع إن لم نجد من يقرأ صحائفنا، ما نفع سرد حكايا قلوبنا المجروحة حين نتسول المشاعر، ما نفع أي شيء إن لم يكن الله وحده من يجبر قلوبنا المرهقة وأرواحنا المتهالكة

أعددت كراستي الجميلة واتبعت نصح معلمتي حتى تحسن الخط وانتقلت بعدها للصف الأول، لقد أهدتني معلمتي شريطًا جديدًا، أخبرتني أنها انتقته مخصصًا لي ولا أعلم يومها لم بكيت، لم أبكِ يومًا على أوقات العقاب لتركه فلماذا أبكي وقد حصلت عليه في التكريم؟ إنها المرحلة الإعدادية، اعتدت الإذاعة ومشاهد التأثر ومواضيع التعبير عن الأم، ألفت الأمر وابتسمت لأنني اكتشفت سرًا لم يكتشفوه

حتى آثر أبي أن أتزوج صغيرة، رحبت زوجة أبي بالأمر، شاركت في كل الإعدادات وأخواتي البنات كنَّ ما زلْنَ صغارًا، اختار أبي فساتين الأعراس بعناية، إنه يملك ذوق

خبير، جدتي لم تصمد عدة أعوام بعد رحيلنا من بيتها، رحلت هي الأخرى وعالمي الجديد بدا رحبًا وجميلًا، فضلت الالتحاق بعمل مكتبي بسيط، راتب بسيط يشعرني بالوجود ويمنحني قليلًا من السعادة، وأبي يخبرني دائمًا أكملي تعليمك يا زينب لا تقفي عند حد معين لديك الوقت وزوجك لن يمانع، أعده وأمنح نفسي وقتًا فيمر من بين يدي منسابًا كالماء

الحمل طفلة صغيرة، مشاغل الزوج، كل شيء يجعل ذلك الأمر مؤجلًا لأمد بعيد ثم أصبح بعد برهة محالًا

إن اليوم أول أيام الدراسة يا رهف، أمي لا أعلم لم سميتني بهذا الاسم؟ إنه اسم جميل يعني الرقة والنعومة، تملكين قلبًا رقيقًا صغيرتي فاحرصي دومًا على أن تملئيه بالخير، حافظي عليه وسط كل هذا الزخم والتزاحم

ستجدين صدري يتَّسع دومًا لكل الحكايا، سننقش ضفائرها معًا سنحمل الأحلام في ذكرياتنا المشتركة

تعود دائمًا لي بلهفة، لا يمر يوم دون أن أرقب الباب انتظارًا، تهرول ناحيتي أحتضنها أعلن في بهجة سعادتي التي نمت باستقبالها، أهذب شعرها، تعرف طريقها إلى قلبي كل يوم في نفس الموعد، تقص عليّ حكايا اليوم منذ بدء الجرس الصباحي حتى الانتهاء تخبرني عن صديقتها التي تضايقها أحيانًا

تشكرني لأن المعلمة أبهرتها لوحة الفصل التي صنعتها بمهارة وزينتها لأن خطي جميل، تخبرني أن المعلمات منبهرات وأن صف التكريم سيكون مميزًا وأن حضوري سيجعلها متألقة كعادتها

وأن الصف الأخير لا مكان له في حفل يوم الأمهات وأن المعلمة أخبرتنا هذا العام بمسابقة مميزة تكتب فيها الأمهات وصايا شكر وثناء للمعلمات والإدارة في رسائل ثم سيتم اختيار أفضل الرسائل وستمنح الأم وابنتها جائزة مميزة عندها

نهرت معلمتي سعاد أصحاب الصف الأخير، اليوم أمي أخبرتهم أنه لا مكان لهم وأن الاجتهاد وحده هو ما يصنع التفوق

انطلقت رهف فرحة، تركتني دلفت إلى غرفتها في سعادة تحلم بالغد وترتب فستان الحفل وتتساءل عن هدايا التكريم كيف ستكون

تناولت ورقة عادية لم أستطع تزينها خلفت كل مشاعري خوفًا
ثم كتبت
أرجوكم
رفقًا بالصف الأخير
ضوء ضعيف
صوت ملائكي

عليك أن تكون حذرًا وأنتَ تخاطب امرأة عن التعدد وهي تمسك بيدها كوبًا من الشاي الساخن، حاول أن تهرب من أمامها حتى لا تكون نهاية النقاش التقاء المحتوى بأجزاء من جسدك مزاحًا لا أكثر، ضحكنا جميعًا وغادر معظم الجمع إلى أعمالهم فحديثنا لا ينتهي وتجمعنا صحبة وقعها وأثرها في النفس جميل، ظلت هادئة وقرأت في عينيها وجعًا، فهي مرهفة الحس وتملك عزة نفس لم أرَ لها مثيلًا، أنا نموذج مثالي للتعدد، حاولت مرارًا أن أخبره أن يتزوج، أردت له حياة طبيعية وهانئة وحبي له كان سيجعلني أتحمل أي وجع لكنه أبى

معجزة أردت إخبار العالم كله عنها ولم أتوقف لحظة عن سرد حكايتي للبشر أصدقاء العمل الأهل جيران طيبي المعشر، أردت مرارًا أن أخبر الأوطان وقارات الدنيا، خاطبت العصافير شكرًا لسماعي لصوتها مرارًا، وأحصيت أصوات الكائنات أرضًا وبحرًا وسماءً حمدًا لربي، وصلت الماضي بالحاضر ولم أفكر يومًا في المستقبل الأمر يتعدّى زمني وكياني وأحلامي، الأمر مذهل في تفاصيله وروعته وقسوته وزهوته، الأمر ضوء لا يخطر على قلبك ولا تفكرين فيه، حُلُمٌ لا تعرفين كيف يمكن أن ينقلك الحب، كيف يغير زمنك، كيف يمحو حزنك، كيف يزرع أملك في أن تحيي
الحياة نفسها، حلم مكان تتصور أنك لا وجود لك فيه
لأنك ببساطة أعمى

أن تولد بلا حبيبتين تطل منهما على العالم فلا تزهر الدنيا في عينيك كما يصفون لك، ولا تصف روعة الجمال الكوني لغيرك افتقارًا لما تفقد ولا تختبر صبرك على اللقيا والانتظار والوداع، المشاهد التي تكررها في عقلك ويصنع الخيال فيها ملعبًا كبيرًا مساحة لا يفقه عنها المبصرون، ووقع أقدام تميزين فيها أصوات البشر فتعرفينهم

دون أن يتكلموا فيتعجبون وتبتسمين في أسى من حسدهم لموهبتك

ترين الناس بقلبك وينسج عقلك عنهم حكايا في رأسك، تحبين الصادق وتلفظين الطماعين، تستمعين لحكايا الحب وتبتسمين بوقع التسلية، ولا تخاطبين جوفك عنها، هذا الأمر لا يَذَرُ قلبك، ثم تفكرين ما المانع؟ الأمر دعوة فترفعين لله دعوة أن يرزقك الله الحب والحياة ثم تنسين، يمضي الوقت وحقًّا تنسين، تنشغلين في الحياة وتشغلك هي الأخرى أيضًا، تقفين عند مشهد واحد، أب ضرير وأبناء ستة نصفهم مبصر والنصف الآخر غاب عنهم هذا الضوء، وأنا منهم وصوت يعلو بك للسماء

عمل أبي كان محفظًا للقرآن في مسجد قريتنا الصغيرة، كان خادمًا له وحرص على أن يزفنا إليه عرائس من الصبر، فيه وجدت السكينة، وكان اسمي كوصف وقع الأمر في قلبي، سكينة كنت صغيرة وضيق اليد لا يمنحك فرصًا للتعليم وخيال يتجلى في الاستماع للأصوات الملائكية، فتبتعد عن منايا الدنيا وتسافر بقلبك للآخرة في حارتنا، ثمة منزل جميل وله عتب عليه، أجلس من الحين إلى الحين اخترق صوت تلاوتي قلبه

كان صوتي جميلًا ووجهي صغيرًا وحفظي لكلمات الله أسهمًا تخترق فؤادي في سرعة باهرة

صوت عذب لا يسمعه أحد دون أن يخترق قلبه فيصنع هالة نور عملاق لا يعرف عنه المبصرون شيئًا، كان العم عبد الرحيم رجلًا طيبًا

أخذ بيدي إلى معهد النور والأمل، كنت ذكية وأتعلم بسرعة، استأذن أبي في كفالتي التعليمية، مد لي يد العون وفتح لي بابًا من الأمل حتى أبهرت الجميع اندهاشًا، تعلمت القراءة فلمس حروف طريقة برايل، عمودين متقابلين كل منهما ثلاثة صفوف، ولكل حرف في اللغة عدة نقاط بارزة من تلك النقاط الستة، وبمجرد وضع يدي على العمودين واستشعار مكان البروز على الورقة أعرف الحرف المكتوب وأقرأ، ومن خلالها أحلق في عالم يخترق الضوء فيه عقلي وقلبي حدًا أراه منيرًا رغم كل تلك الظلمة التي تحيط بي، طريقة ترجمها عقلي في لحظات، والمسابقات التي كنت أغدو فيها الأولى لم تكن مزعجةً أو متعبة كوصفهم، كان الأمر بالنسبة لي سهلًا يتعجبون وأبتسم أنا في داخلي في كل خطوة، كان جوفي يلهج بالحمد مع كل درجة أصعدها، كنت أبتهج شكرًا وجذور الأمل تغرز بذورها في قلبي، وحسن ظن بالله يملأ كياني كوعاء بادر الماء

نضوجًا بما فيه

زيارة لوفد أجنبي للمعهد أرادوا أن يجربوا العلم، اختاروا سبعة رأوا أن التجربة من الممكن أن تفلح معهم، وكنت أنا من ضمنهم، أرادوا تجربة العلم فينا، وأردنا نحن أن نحيا وقع التجربة دون ضجر، محاولات تجريبية يختبرون فيها نجاحهم في إعادة البصر وتختبر قلوبنا وجع الفشل بعد فقد الأمل، وقت ثقيل يمر، لفائف الشاش طويلة مرهقة وقلبي دقاته يصل مداها للبحار، وتخترق أصوات البشر وضوضاء المدن، لم أعرف الخوف في حياتي كتلك اللحظة ولم أختبر السعادة من قلبي إلا بعدها

ضوء ضعيف

شيء ما يظهر، أدقق ما هذا؟ لا لون أسود هناك شيء ما يخترقه ملامح باهتة أشياء تنظر إليّ والصورة تكتمل شيئًا فشيئًا، أرفع يدي أنظر نعم هذه خمسة أصابع، أختبر أطوالها وأنظر ما هذه؟ هذه يد نعم، هذا إصبع أصوات المخاطبين تشتتني، أشخاص رأيتهم في عقلي ويختلفون عن الواقع عند رؤيتهم، الأمر كان بمثابة فتاة صغيرة بعقل ناضج كبير تكتشف الحياة وتعيد لمس الأشياء ويتشتت ذهنك، هذا لون أحمر هذا أخضر هذا أبيض، الأخضر لون الزرع، أين الزرع؟ أريد لمسه، الأزرق لون السماء السماء فوقنا، هذه فاكهة وهذا لونها، ملمس الدوائر يختلف، البرتقال مستدير قشرته تختلف عن الرمان وحبات الطماطم، لونها أحمر دومًا كنت أخطئ، هذا اللون استغرق الأمر منّي وقتًا عظيمًا كي أحفظه عن ظهر قلب، وكانت سعادتي لا تُصدّق

أنا أرى نعم أنا أرى

سبعة من أصل مئات في المعهد أجريت لهم تلك المحاولات فلم تنجح المحاولة سوى معي أنا نعم أنا

أنا من بين كل هؤلاء المئات... أنا

تفتحت عيني على الدنيا وباتت زواياها لي، طفت الشوارع والحارات، دخلت بيوت الأهل وآنست وقع فرحتهم العظيمة بي، احتضنت إخوتي الذين لم يحالفهم حظ التعليم مثلي، ورأيت من خلالهم ضعفي وقلة حيلتي عندما كنت مثلهم

آلمني ماضيهم الحاضر الذي يشبهني ومستقبلهم الذي لا يحلمون به كما كنت في السابق، جبت حلبة الرزق، عملت ووضعت قرشًا فوق قرش حتى زوجتهم جميعًا،

التحقت بكلية الآداب وتفوّقت وبمؤهلي حصلت على أمان الوظيفة الحكومية، الجامعة صرح كبير، خفت في البداية الملابس البسيطة، وملبس واحد طوال العام شيء واحد، لكنك تجيدين كيه وتنظيفه، وعين راضية لا تمتد لحياة الآخرين ولا لزهو ألوانها ولا يشغل عقلك سوى الأب الإخوة والأحبة، العطية التي يمنحك الله إياها وتغنيك عن الدنيا بأسرها، وقلبي يخفق للمرة الأولى، التقيته هناك نعم هناك أحبني من أعماق قلبه وسألت نفسي لماذا أنا؟

لماذا أحبني؟ ما المبهر الذي جعله يختارني هكذا بلا وقع ولا مقدمات ولا زهو انبهاري؟ تعجبت نعم تعجبت، من أنا حتى يزورني الحب؟ من أنا كي أحصل على هذا الحق والحلم والسعادة

غزا قلبي ووطني وكياني بأكمله، الخطبة لم تدم كثيرًا، خاطبته مرارًا حبًا له، يمكنك أن تجد الحب مع غيري، أمامك العمر بأكمله، كيف يمكنك أن تدفن حياتك معي، طرحت له حلولًا كثيرة وقلبه لا يصغي أنا أحبك ألا يكفيكِ هذا الأمر

أراد أن يكتب كتابنا ويجمع بين قلبينا قسيمة الزواج وتأجيل الزفاف حتى التخرج كنت زوجته التي لم يلمس لها يد حبيبته التي يخشى عليها من كل شيء ويحرص على إيصالها كل يوم، نعم كل يوم لمنزل أبيها من الجامعة فهو يعلم أن نسبة إبصاري ضعيفة وأنني أرى المحيط القريب فقط مني حتى تكسرات أطراف الطرق لا أعرفها وحين تقترب قدمي في غفلة يحذّرني وقع صوته الراعي لي، حتى أصل فأتفادى الأذى وتدمع عيني من أفعاله التي تخترق كياني ويمتنع لساني عن ذكر كلمات الحب له حياء

كيف يمكن لدعوة في جوف الليل من جوف القلب أن ترينها مجابة بهذا الشكل؟ أيكون هذا حقًّا؟ الحب الذي تمنيته كنت أقع كثيرًا، لكنني كنت ماهرة في مواصلة النهوض، التخرج والعمل كأمينة مكتبة في مدرسة

القراءة دائمًا كانت غذاء عقلي ومكتبتي، دومًا كنت أرتب بحورها في عقلي فلا يسأل أحد عن كتاب إلا وأخبره موقعه في أي رف من أي صف وعند أي عمود، وأمارس مهارتي الخاصة وأنا أجلس مع زملاء العمل لأخبرهم بالقادم من وقع طرق قدمه فينبهرون ونضحك جميعًا في سعادة أقاطعها هامسة أتعرفين ماذا يخبرونني عنك؟ كم أنتِ كريمة وكم تسارعين دائمًا لإحضار كل شيء نهم نحن لجلبه فتفوزين بفضلك

عليهم وحسن خلقك، تبتسم في صمت ثم تتنهد بعمق وعيناها دامعة، ماذا ما بك؟ هل أثرت استياءك؟ أتمنى ألا تنزعجي، تردد قائلة: لا أنا لست منزعجة، لكن تلك الدموع تراود عيني كلما تذكرت فرحتي الأولى بميلاد طفلي الأول، فحديث الطبيب يخبرني أنني بمنطق الطب عجوز عقيم، فيمسك بيدي زوجي قائلًا: أنا أريدك أنتِ وسأظل معك لنهاية العمر مهما كان، وحيرة تمتلكني متسائلةً: لماذا يفعل ذلك معي هل يعقل أن هذا ثمرة دعائي برزق الحب.

يخبرني أنتِ سكني وعالمي، لا يحلو وقتي بدونك ولا أمتلك نكهة للحياة بلا وقع حديثي معك، وأنا أخبره أنتَ في حياتي معجزة حتى في لحظات يأسي كان لي مطبًا وحين تدمع عيناي يغازلني قائلًا: تملكين عينًا جميلة تأسر قلبي، وأخبره أنتَ تعلم أن عيني لا تبصر سواك ولا وقع أجود من رؤيتك في حياتي حارسًا قلبي ينبض بك عشر سنوات كاملة مضت بعدها، وتعب أرهقني فزرت المستشفى الحكومي الذي اعتدت زيارته ليخبرني العلم أني حامل في الشهر السادس وأنا لا أدري عن ذلك الأمر شيئًا، لم أصدق قلبي حينها بكيت

بكيت كما لم أبكِ على شيء قط، لم أصدق تلك الهبة التي أرسلها لي ربي ونذرت يومها نذرًا أنني لو اكتمل حملي وأنجبت هذا الطفل فلن أجلس يومًا في البيت ولن آخذ أي إجازات، كان طفلًا صغيرًا جميلًا خرجت به بعد أن أجدت لفه، طفت به على كل الناس، أردت أن أخبر الأوطان عن عطاء الله، عن النعمة التي حلت على قلبي عشر سنوات بعدها وطفلي يكبر بيننا فرحين به ليحدث الحمل مرة أخرى فأرزق بالابنة الثانية ثم الثالثة، زهرتان تختصران معاني الحب، وأختبر روعة حياتي بهن، بيتي الصغير لم أكن قادرةً على شغل مفارش الزينة به، فتلك الهبة تحتاج لنظر قوي ورغبتي تتحقق بإهداءات صديقاتي لي فتملأ أركان بيتي بالمزايا ويرقص قلبي فرحًا بكل إضافة فيه مهما كانت بسيطة، سعدت جدًا حين امتلكت تفريزًا جيدًا في أوعية الثلاجات تلك، وأصبحت أخزن ما ينقصني شتاء وما أرغبه صيفًا فتختبئ المفاجآت في أرففي ويتفاجأ الجميع بعرضها في غير وقتها انبهارًا، أبنائي ساعدناهم، رسمنا لهم ملامح الطريق وأكملوا هم حتى النهاية، سعادة جمة تغزو قلبي أنا وزوجي حين نتسابق على الأعمال المنزلية ولا نكف عن الضحك وسرد الحكايا والذكريات، فنحن الآن على المعاش

ورسالة الشقاء انتهت بهمّ الأبناء والبحث عن بداية الحياة لهم

إرهاقات العمر وشقاء طلب الرزق وهم الأمنيات

أحمد ينازع مشاكل العمل، تختبر زوجته صبره دائمًا يجاهد لطلب الرزق وترهقه الماديات

ابتسام عامها الأول في الجامعة كان محملًا بالمقارنات المستمرة ودعوات الصبر مني بمثابة غرس أتمنّى أن يحصدوه في طريقهم صعودًا ونزولًا على امتداد أعمارهم

خديجة وردة تتفتح عروسًا يطرق باب بيتنا البسيط خاطبٌ فتطير فرحًا به، أراها مزهرة خداها كورد الجوري، جمالها الطبيعي النادر وضحكتها التي تنمّ عن سعادة نادرة ما أسرع مرور الأيام، خديجه لن أحمل همًّا اليوم لن أفكر في أقساط الجهاز المتراكمة ولا في ثمن الأكواب والصحون والأجهزة إن المفروشات تتعاظم أسعارها والألحفة والستائر أنواع السجاد بيتها مساحته ستكون كبيرة ملابسها تحتاج ميزانية لا بأس ستساهم الجمعيات في حل الأمر، سأرتب أولوياتي كي أشرفها أمام أهل زوجها، سأبيع الذهب دون علمهم، سأخبر صديقتي كوثر أن تجعلني الأولى في القبض وسأخاطب البائع بتقسيط الأجهزة وحتمًا سيكون متعاونًا

تنهّدت وأنا غارقة في التفكير، ثم شرعت ألتقط الصور الجميلة صورًا تسجل الأفراح تخاطب القلب بالذكرى

الذكرى التي تظل قابعة في خواطرنا ولا تغيرها الأحلام والألحان، الذكرى التي تنقلنا لغد آخر يختلف عن كل ماضينا بأتراحه وأفراحه، الذكرى التي إما أن ننساها وإما أن تحمل في أعماقنا حكمة فنتعايش معها ونهديها نصحًا للأحباب فيتقبلها من يتقبلها ويرفضها كبرًا من يرفضها ويحملها في أعماقه امتنانًا من يحملها

كفى أمي كفى أطلقت خديجة صرخة ظننت من شدتها أنها ستنتزع جدران قلبي

قلبي الذي لم يحمل في جوفه حبًا وعطاء سوى لهم قالتها خديجة وهي تبكي

تركني عادل حين عرفت والدته قصتك، خشيت على أحفادها من هذا العيب اللعين، خشيت أن ننجب العيوب لا الميزات، هي تريد سلالة زاهره تفتخر بها، أضعت فرصة عمري التي انتظرتها أعوامًا أردت الرحيل عن هذا البيت، تأملي الجدران أمي تأملي كيف هي بالية، تأملي نوع السجاد وشكل الأرض وحدود شقتنا الضيقة وشارعنا

المتهالك لقد أفسدت عليّ عالمي، حلمت بشقة كبيرة بوقت لا أحتاج فيه لشيء فأظل أعمل أعوامًا لتحقيقه لقد رحل كل شيء الآن

لم تتوقفي أبدًا عن سرد قصتك البائسة، تفكرين وكأنه شيئًا يدعو للفخر، تكتبين رسائل للصحب وكل الغرباء، تذكرين القصة وتبكين لا أعرف لماذا

حقًّا لماذا لماذا تفعلين ذلك لقد سحقتِ قلبي بقوة

تركتني خديجة صافقة باب غرفتها بقوة قوة كانت كافية لطحن روحي بمطرقة حديدية

وكأن محيطًا كاملًا فارغًا حولي

كيف أمكنني أن أؤذي قلبك خديجة هكذا؟ لم أقصد ابنتي ربما ذهابي إلى والدة خطيبها يسهم في رأب الصدع الحادث، أخطأت حقًّا، ربما كان لقصتي الحق أن تبقى سرًا، كيف أمكنني أن أجرح قلب ابنتي هكذا

كان اللقاء باردًا عقيمًا ظللت في ردهة بيتهم وقتًا أحصيت عدد ورود السجاد تحت قدمي على امتداد نظري الذي أملكه، وشعرت بوقع قدم قادمة من بعيد يبدو حقًّا أن بيتهم واسع

الوقت الذي تستغرقه واختلاف وقع صوت القادم يعلمك تمامًا مدى تردد الحضور، كان صوتها الشيء الذي ألحظه أما وجهها كانت الملامح كالعادة باهتة حد الشعور بالندم، وأن الغياب كان لقلبي أكرم من الحضور، وأن صناعة الود لا تكتب لمن غابت عن عالمه ثقافة الابتلاء وضمته

كان طريق العودة ثقيلًا محملًا بخوف خوف أكبر من خوفي لحظة نزع الشاش عن عيني

طريق أثقل من قلقي الدائم كل يوم عائدة في طريق لا راعي لي فيه غير الله

قدمي التي لامست الأرض زحفًا شقاء خلف العمل وجمعًا لمال من أجل أب قليل الحيلة وأخوة ينتظرون الدعم، ضوء أضاء عالمي لا لشيء إلا لهم

ضوء لم يكن مكانه عيني بل قلبي، ضوء تمكن من فؤادي فأشعل الحياة لكل من عرفني حتى زوجي، ضوء ما هبة بقدر منحة أرادها الله لي

لم أكد أصل حتى وجدت خديجة تبكي بشدة، هاتفني عادل شارحًا لي أسباب

الزيارة لماذا أمي لماذا؟

كخنجر صدأ اخترق قلبي قبل قلبها

أسابيع لا تريد مخاطبتي، أسمعها عائدة من العمل أعرف وقع قدميها أميز صوته عن أخيها أحمد وأختها ابتسام، أضع لها الطعام الذي تحبه، أحاول الاعتذار وكأن جريمة ما قد ارتكبتها

شيء أعرفه عن ظهر قلب إنه نفس الضوء

ضوء أراه ضعيفًا لماذا يرتكز عاليًا يتكرر هذا الصوت؛ صوت عجلات المشافي لم أنسَ وقعه في قلبي

الذين يترددون على المشافي حاملين بذور الأمل وعائدين أحيانًا دونها لا شيء كان يتطرق إلى أذني سوى ذلك الصوت الملائكي يدندن داخلي بآيات حسبتها في كل مرة رسائل لقلبي

وظللت أسأل الله دومًا أن يبعث لي رسائله

ما أضيع الوقت بين الحالتين! أشياء يضعونها خلف ظهري أخرى تمتد عبر أصابعي، وقع الأقدام يعلمني من الطبيب ومن المساعد من المشرف على الحالة، نبضات ثابتة، شيء يهبط ويصعد في تناغم باهت، أراهم بقلبي أفتح عيني بجهد محارب أراها خديجة عيناها كاسات سابحة منتفخة حمراء كورد الجوري الذي أحبه كان فادي بارعًا في إهدائي إياه، يحمل لي حلقات الحب مشيًا حتى نهاية الطريق بجانب حديقة فنقضي الوقت ثم نعود ضاحكين على كل تلك الأشياء التي لا نملكها، اللون الأحمر الذي أجهدني في حفظه وحرص فادي على إهدائي ورودًا منه حتى حفظته عن ظهر قلب، ليتني لم أدرك معناه الذي أخبرني بحزنك ودموعك صغيرتي

كانت خديجة تبكي، تعتذر، تقسم إنّها لن تفعل شيئًا يؤذيني أو يجرحني، لم ألحظ شيئًا سوى حزنها الشديد، لم أنتبه كعادتي كل مرة لأذني التي تخبرني كل شيء

أمر واحد أردته لك خديجة

توقفي حبيبتي عن البكاء

واعلمي أنني ما أردت لك سوى كل الخير أردت الزهر نابعًا متصلًا بالقلب

خديجة عذرًا لأن العين لم تكن مبصرة، عذرًا لأن قلبي كان دومًا هو مرشدي،

عذرًا حبيبتي لنصف أم ونصف وقت ونصف قلب ونصف عين ونصف حياة، عذرًا لأنني لم أكن كاملة بالقدر الذي يرضيكِ، سامحي قلبي الذي لم يرَ سواكم، سامحي الحب الذي ملأ قلبي فظللت أذكر عطاء الله شكرًا، سامحي الوقت والدموع

اجعلي قلبك دائمًا مرشدك، اجعلي قلبك مع الله حبيبتي، امنحي كل دقة من دقات قلبك شكرًا لله على عطاياه، ولا تكوني صلبة قاسية فينكسر عودك، لا تفسدي حياتك بالبكاء على ما مضى ولا تكوني مثلهم خديجة، جددي أوراق قلبك دائمًا لا تجعليها فريسة للغلف والختم ثم القسوة كالحجارة، عالجي جروح قلبك، امنحي الحياة دائمًا فرصة علها تجعلك سعيدة هانئة، هناك قلوب لا تعرف الكراهية مهما ظلمتها وهناك قلوب لا تعرف أن تحب مهما فعلتَ من أجلها، الرائعون فقط من يشعرون دائمًا بقيمة ما نقدمه مهما كان بسيطًا، الوقوع في الحب أمر سهل لكن الاستمرار فيه هو الاختبار الأكبر

للحب يا ابنتي ألوان عدة، كنت محظوظة لأجربها، لكن لا حب أبدًا كحب الله، فضله كان عظيمًا وشكري لنعمته كان قليلًا، الجنود التي لا أراها وبعثها الله لي راعية الرضا الذي كسا قلبي وغمر حياتي، سعادة الطريق الذي حفظني في كل لحظة من كل مكر وقبح وأذى يا ابنتي، كل شيء يحدث في حياتنا إما رسالة أو حكمة أو استحقاق لولا الظلام لما عرفنا النور أبدًا

اطردي الحزن والدموع وابدئي في كل مرة صفحة جديدة عن الحب حتى لو لم أكن معك حتى لو كان هذا هو آخر اللقاء بيننا

اجعلي من قلبك نورًا يشع للآخرين في حياتك يا ابنتي وفي عالمك وحول أولادك وكل من تحبين

لا تتوقفي أبدًا عن صقل هذا الضوء في جوفك
حتى لو كان مجرد
ضوء ضعيف

أخطاء الماضي

الرباط

الحب لا يرحل، اصطناع الهم والمشكلات تجعل كل شيء يتضاءل، ماذا تقصد؟

لا أقصد شيئًا، بل تقصد، هل تريد أن تقول إنّني أفتعل المشاكل؟ هل كانت حياتك وبالك أهدأ حالًا؟ لا أعرف، لِمَ لا تشعر بي؟ المسؤولية الملقاة على أكتافي، البيت، مذاكرة الولدين، مسؤوليتي كمديرة لَلمدرسة، إن هذا يشكل ضغطًا هائلًا ومع ذلك لمْ أقصر، أنتَ بنفسك ترى مدى دقة ترتيب البيت، مدى النظام والانتباه لمواعيد الدرس والغذاء والنظافة، أقترب من المثالية أما أنتَ فلا ترى

لا أرى؟! هذا هو وصفك، لقد أصبح البيت رتيبًا خاليًا من الروح والبهجة، تجعلينا نعيش وكأننا في مدرسة، أفيقي هذا بيتنا لا بأس ببعض الصخب بعض اللعب وبعض الفوضى الممزوجة بالضحك، اجعلي يحيى يعيش سنه، إنه طفل، ثم إن أخاه الصغير تلبين له كل طلباته باستمرار، إنني أرى عيني يحيى، كوني عادلة

أرجوك عاصم أنتَ لا تعرف

ثم إن طريقتي ليست قاسية، إنني أمنحهما وقتًا ومكافآت حين يصنعان وينصتان لي

أخبرتني أمي أن الأولاد يحتاجون للشدة وأنهم متعبون في تربيتهم أكثر من البنات

لا أعرف غادة ماذا حدث لك كنتِ أكثر إشراقًا

أخبرتك أن تتركي العمل، عودي لَنا، خذي وقتًا مستقطعًا من أجلك من أجلنا

ماذا حدث لأزهار الحب التي كانت تملأ عالمك وعالمي؟ ماذا حدث للهدوء الذي كان يزينها كالثريا؟ أخبريني لما أصبح الهم يلازمك والدموع لا تفارقك من وقت لآخر

أنتَ لا تفهمني أنا خائفة عليهم لا تنسَ ما حدث لنا

تزوجت كبيرة وظللت أعوامًا عدة حتى أنجبت أشعر أنني لن أصمد كثيرًا أريد تركهم أقويًاء

لا أريد أن أربيهم ضعفاء الحياة التي مررت خلالها والعمل الذي تقابل فيه الماكر والمنافق والطماع

أريد أن يتعلم أن يعيش، أن يبدو قويًا وأن يقاوم القبح في الخلق والقول والعقول، أريده ألا يهتز حين يفقد الحب وأن يملك قلبًا صلبًا كي يصمد في معركة الحياة فترة أطول لا أريده أن يتأذى

لا أريد أن يحب بشدة كي لا ينجرح بشدة مثلي، آلمني موت أمي وأخي في شهر واحد، جعلني هذا الأمر غير قادرة على التنفس، آلمني حتى تمنيت لو لم يكن لدينا حب ولا حنين، الأمر مؤلم عاصم

أعرف غادة لكن عليك أن تهدئي قليلًا، وأن تمنحي نفسك فرصة لالتقاط الأنفاس الأحزان أمدها بأيدينا

اجعلي مساحتها تتقلص دون انتقاص من قوة إيمانك وصبرك قلبك لن يطمئن إلا إذا كان هذا هو اعتقادك صدقيني

هذه عادتك تتحدث عن الأمر وكأنه هين عاصم

معي سيصبح هينًا غادة، لكن أرجوك لا أريد سماعك تدعين على يحيى مرة أخرى مهما كان عنيدًا ومشاغبًا لعلَّ أبواب السماء تكون مفتوحة العقاب لا أريد سماع هذه الكلمة لا أحبها

اسألي له الهداية هذا أفضل لكليكما

ما هذا أنت

لا أمي لم أفعل أخبرني سمير بأن يحيى هو من تعمد تخريب الغرفة بهذا الشكل

تعرف أنني سأعاقبك وعقابك هو الحرمان من أخذك معي بيت جدتك

ولن آخذك معي سآخذ سمير إنه يستمع لكلامي ولا يعصي أوامري

لا أمي أرجوكِ أريد أن آتي معك لا تتركيني

لا لن آخذك

إذن سأرتب الغرفة، أجبته بحدة مهما فعلت هذا قرار عليك تحمل نتيجة أفعالك

إذن لن تأخذيني حتى لو فعلت أجبته نعم

هيا سمير تناول حقيبتك وأنت انتظرنا هنا حتى المساء سنعود بعد أربع ساعات

التفتّ لأرى وجهه قد تغير أخذت يد سمير ورحت أحدث نفسي أنه سيشاهد التلفاز أو ربما ينام كل هذا الوقت حتى أعود

تركت الأنوار مضاءة ثم دلفت إلى الخارج

بيت أمي يبعد مسافة قصيرة لكنني أفضل ركوب الحافلة، لم تعد قدماي قويتان كالسابق ولا أريد إجهاد سمير ماشيًا

منتصف الطريق يا إلهي لَمَ لَمْ أسامحه؟ لِمَ لَمْ أفعل كما نصحني عاصم؟

ربما عليّ أن أهدأ وأن أغيّر طريقتي وتوتري الدائم وحزمي المتزايد على كل صغيرة وكبيرة

نكاد نصل

غادرت الحافلة أنا وسمير صعدت درجات السلم وصلت لشقة أمي إنها المرة الأولى بعد وفاتها لكن لا بدّ أن أحافظ على نظافتها، لكنني لم أكد ألمس مفتاح الباب حتى انقبض قلبي، أخرجت المفتاح بسرعة حملت سمير، هبطت درجات السلم في عجلة أردت العودة سريعًا، لا أعلم لم قلقت فجأة هكذا على يحيى، سأعود سأخبره أنني سامحته، سأجعله يرتدي بنطاله الجديد كما كان يريد وسآخذه

لا أعرف كيف اختفت العربات كيف يمكن لكل هذا الوقت أن يمر دون أن تمر حافلة واحدة أو أي وسيلة أخرى

ازدادت ضربات قلبي ولم أكد أعرف حالي إلا وأنا أركض الطريق بأكمله حاملة سمير مسرعة لا أعرف لِمَ بدا الطريق طويلًا لا ينتهي

إن صعود السلم أرهقني وإسراعي في إخراج المفاتيح وتعثرها وسقوطها يا الله ضربت الجرس مرارًا، أردته أن يقفز فرحًا ليقف خلف الباب مشاكسًا لي في براءة لا لن أفتح فأغريه بالمال أو بما أحضرته له من عصائر لكن كان هناك هدوءٌ قاتل.

أسرعت للدخول بدا البيت كما تركته لا شيء تغير

باب غرفته مفتوح إذن لَمْ ينم، لَمْ يطفئ الأضواء

إذن أين هو؟

يحيى يحيى أين أنتَ؟ ثم تسمرت مكاني وأنا أشاهده يتأرجح من حبل لفه حول عنقه بإحكام وربطه في ثنايا النافذة، وكأنّه صانع ماهر لا أعرف ماذا حدث بعدها سمير

كان يصرخ، اتّجه إلى الباب الذي لم أغلقه، تعالت الصيحات، تجمّع الجيران وأنا ما زلت واقفة أنظر إليه دون حراك وكأن الزمن والأرض والكواكب كلها توقفت وأنا لم أعد أنا..

كان كثيرون يتحركون حولي وأنا لا أفقه ماذا حدث، هل حملوني أنا أيضًا؟ أين أنا؟ يبدو أنني أجريت عملية جراحية ربما هذه الأسرة والملاءات البيضاء شيء مؤلم يتصل بيدي ويتدلى محلولٌ ما، من الأعلى طبيب ممرضة وزوجي وسمير، إن أمي تقف بجانبهم أيضًا هل هذا حلم؟ ربما نعم إنه حلمٌ آخرُ، ما أذكره محاولة تنظيف بيت أمي، سمير في يدي، الحافلة، ربما أصابني انخفاض مفاجئ في الضغط وتم نقلي إلى هنا، نعم سأخبر عاصم أن يحضر لي يحيى، أريد أن أعتذر له لكن ما الأمر؟ إنني لا أستطيع تحريك لساني لا يمكنني الكلام ماذا حدث؟

أنا لا أفهم شيئًا، عينا عاصم تبدو غريبة ومتورمة، لماذا لَمْ يقف كثيرًا، لقد خرج سريعًا، لَمْ أعتد ذلك منه حتى في كل تلك الأوقات التي كنت فيها عنيفة ومضطربة وقاسية، كان هو الأقوى حنينًا واحتواءً، ليس من الممكن أن يتركني الآن هكذا، مؤكد أنه يريد أن يخبرني شيئًا، أريد رؤية يحيى الآن

إذن سأطلب ورقة وقلمًا ربما أصابتني جلطة لا أعرف، لكن أين هالة؟ كانت معي هل حملتني؟ ربما نعم، أذكر أنها ساعدتني، الحل عند هالة، سأسألها لديها الأخبار ستحدثني بالتأكيد وستقص على سمعي نصائحها المعتادة التي لا أنصت لها دائمًا، ثم تختتم حديثها قائلة: لا تنصتين إلا لصوت عقلك ومع ذلك أحبك غادة

كيف حالك الآن؟

ماذا حدث هالة؟ أخبريني لما أنا هنا؟ أين عاصم؟

لقد ذهب غادة أمامه الكثير من الإجراءات

إجراءات لماذا؟ ماذا لديه؟ أريده أن يصحب يحيى وسمير أريد رؤيتهما ثم إنني لا أعي كَم من الوقت سأظل هنا

أريد يحيى، أين يحيى يا هالة؟ لِمَ أنت صامتة؟ أين ذهبت الكلمات من فمك؟ لِمَ تتوقفين عن الكلام؟ ما بالك أصبحتَ صامتة فجأة هكذا؟ ولماذا تبكين؟

لاحت أمام عيني صورته متأرجحًا، صورة يحيى وجسده الهزيل يتدلى وعنقه ملفوف بحبل سميك

يا إلهي ماذا حدث هالة أخبريني

أهداك الله هدية غادة وأراد الله أن يسترد هديته فلا تقولي إلا حمدًا

بدت حياتي بأكملها أمام عيني، انتظرت حتى انصرفت، نزعت تلك الإبر المحيطة بذراعي، لا بد أن هناك طريقة ما للذهاب إليه لا أريده أن يكون وحيدًا دوني

لَمْ أكد أخطو بضع خطوات حتى استسلم جسدي للانهيار التام

انهيار يأس وقنوط، أين رحمة الله؟! لا أدري

أخبرونا أن ثمة صدمات لا يمكنك بعدها أن تقف على قدميك من جديد، أشياء تجعلك تفقد إحساسك بكل شيء ولا تبالي

إنني أراه كثيرًا، أرى يحيى كثيرًا، أريد النوم باستمرار كي ألتقيه

عاصم سمير كل ما تبقى لي، أما أنا فلم أعد أنا

كل شيء وكل حلم وكل رغبة اختفت هناك بعيدًا في مكان آخر، أود الذهاب إليه لَمْ يعد هناك شيء لأعيش من أجله

لا فارق الآن، لا مال ولا بيت، لا أمنيات لا رغبة سوى في الرحيل والتفكير في طريقة مناسبة لذلك

أنا السبب في موته، أنا من قتلته نعم أنا السبب

كل شيء تضاءل تمامًا مع الأمواج، حياتي بأكملها تحطمت وروحي سُحِقَت، يا لها من أيام شديدة وقاسية

أريد الرحيل هالة أنا شديدة اليأس

أسميته يحيى ليحيا فكيف به مقبورًا الآن

لا غادة لا تقولي هذا أنتِ زهرة جميلة إنسانة خلقها الله كرمها

لكنني أخطأت

كلنا نخطئ عزيزتي

لكن خطأ عن خطأ يختلف هالة، ثمة أخطاء قاتلة ماحقة لا ينصلح بعدها أي شيء على الأزهار أن تغضب إذن حين نقطفها من الحدائق ونسحقها ومع ذلك لا تبكي ولا تشتكي

هذا قدر الله تقبليه

تتحدثين وكأن الأمر هين

أخطأت كثيرًا لم أكن صابرة، ارتكبت الفظائع، لا أحتمل، الذنب يمزقني وكأن هضاب الذنوب على قلبي متراكمة

أمسكت هالة بيدي ثم أردفت قائلة: هذه الجروح ستأخذ وقتًا كي تلتئم

ما الفائدة من كل هذا الآن ما تبقى لك زوجك وسمير ماذا فعلت لهم

لا أعرف هالة

ساءت علاقتي كثيرًا بهما أصبحت مهملة لدرجة كافية برغبتي للرحيل عن كل شيء

لا غادة ما زال بداخلك قلب ينبض اجعلي الأمر بداية جديدة مع الله أولًا ثم معهما

لا تجعلي للشيطان سلطانًا عليك ولا سبيلًا، انظري للسماء وستجدين الإجابة

عيشي كل يوم واغتنميه فإنه لا يعود، الشفاء ستجدينه في قلبك والجنة بأنهارها ونسائمها ونظرة النعيم في رحابها كل شيء يتبدل

الحزن لفرح والتعاسة لسعادة واليأس لأمل والدموع لخشية والسخط لرضا، لا تجعلي العوائق تتسرب إلى نفسك الإحباط والتفكير في الماضي جاهديه، حاولي أن تحصدي فضله، أن تفكري في الرسالة غادة

الرسالة التي وضعها الله في قلبك، الرسالة التي أرسلنا الله على الأرض كي نعرفها، البعض يكتبها قصائد لطريق يسبقه للجنة والبعض يغفل عنها والأوقع حظًا من ينكرون وجودها

الموت رسالة والحياة رسالة لا تغادري الأرض دون أن تعيها جيدًا

اغرسي أشجار نخل في الجنة بتسبيحك، اكتبي السعادة صنعًا لكل صغير وكبير وفقير وغني يفتقد الرحمة

أدركي الحكمة كي لا تهدري حياتك دون جدوى الله يعلم عن كل تلك الأشياء التي ثقبتْ وأثقلت قلوبنا حتى أصبحنا لا نجد لها مَخرجًا ومِرفقًا

الله يربط على قلوبنا لأن لنا في الجنة مقاعد ومنازل يمكن دائمًا تحويل المأساة إلى نصر حتى لو تحطّمت أوتار القلوب يمنحنا الله في وقت ما رباطًا يا غادة

أسأل الله لك الرباط على قلبك

الرباط رباط كنت أصنعه وسط فستاني فأهزه، وأنا أطوف فرحة أيام العيد

والرباط الذي كنت أحكمه حول معصمي حين كانت أوتار يدي تؤلمني كحال أوتار قلبي حاليًا، الأوتار التي كلما اهتزّت خيوطها زاد ألمي بكاء عليه، وكأن نبعًا عملاقًا من الأرض امتدّ كي يملأ قلبي حزنًا

الرباط الذي يكشف أحيانًا قلوب الناس حولنا من سيمسك به؟ من سيتنازل عنه؟ من سيحرره كي يمضي بعيدًا عنا ليتركنا وحدنا؟

لكن الرباط مع الله باق، ما كان شعور أم موسى وهي تقذف به في اليم ثم تكاد ألا تفعل حتى يربط الله على قلبها

الرباط عطاء ممتد ليته يكون مثمرًا في حياتنا حتى اللقاء

الرباط الذي نتمسك به قليلًا ثم ننساه ونمضي لأن النسيان من طبائعنا، الرباط الذي كان ينبغي أن يكون معنا منذ البداية فلا يهز قلوبنا فكر أو قلق مما هو قادم

الرباط الذي كان ينبغي أن يجعل حاضرنا أكثر سعادة، الرباط الذي كان ينبغي أن يربط قلبه بقلبي بالحب لا اللوم والعتب ومحاولة الهرب من الخوف على أشياء بائسة وبالية

الرباط الذي ظللت أحلم به في الحب وظننته سيكون عظيمًا باهرًا بقدر نجاحي في عملي كدعوة للفخر أمام الغير، غفلت عن وقعه حقيقة في عالمي فأضعت الحب، الرباط الذي ظننت وأنا ألهث في إثبات دائم لعناصر النجاح والحياة، كان قشرة خارجية ضعيفة خالية من المشاعر

الرباط كان يستحق قلبًا يلين عند ذكر آية ويخشع، هل كان الرباط بعيدًا عني كبعد قلبي؟

هل كان ينبغي أن يحدث أمرٌ عظيمٌ لقلبي كي يستحق الرباط

هل كان الرباط شرطًا لمعية الله

كيف كان حال قلبي وقتها وكيف أصبح هشًا حد عدم قدرتي على رؤية أحد ضعيفًا أو متألمًا

كيف كان صلبًا لا يبالي؟ هل كنت متحجرة القلب إلى هذا القدر؟

هل كان السبب قلبي منذ البداية

كان الفرح يغادرني كالبخار المنبعث من الوعاء المغلي، كان القلق عظيمًا قاتلًا حد حلول التعاسة عوضًا عن السعادة

كانت الصعاب في حياة الكثيرين حولي تعلمني أن أغير حياتي دون انتظار دفعة من أحد ربما لا تأتي أبدًا، أمي أخي، عاصم الذي ظنّ يومًا أن زواجه مني بمثابة الراحة من كل ألم عاشه في الماضي، وأن يحيى وسمير هما أكبر إنجازاته وأن الرحيل وحش كاسر يخشاه، وأن الحب كان يعني الرحمة التي ظل ينشدها وتمنى أن أراها يومًا وأنا أحط بمنطادي عن كل مخاوفي، أعبر من خلالها ثم أجعلها تمضي ولماذا لم أفعل؟

الخوف الحقيقي أن نعلق بها والطمأنينة الحقة هي تقبلها

ظننت يومًا أن القسوة قد تجعل منا أقويّاء قادرين على مواصلة الحياة أحيانًا

أنت قاسية كيف عاصم

تبدين شجرة بلا جذور رقيقة ناعمة كالزجاج تتصنعين القوة، احذري أن تكوني مثله غادة فتنكسرين بسهولة، كانت كلمات عاصم دائمًا ناقوسًا يدق في أذني حتى ظننت لبرهة أن الذين حرموا تلك النعمة استراحوا من النصائح المحملة بالوجع

الرباط جعلني أتغير، أقترب من الحلول وأدركُ المسافات، وأعلم أن الثبات رزق وأن الزلل قريب حد الخيط الفاصل بين انفراج الفجر وسرعة التقائه مع ضوء الصباح

رأيتُ الحياة بشكل مختلف بعد يحيى، لماذا كنت أتذمر من سماعي لحديث عاصم عن كل أوجاعه؟ لماذا كان شلالًا هادرًا عفويًا لا يريد سوى أن يخبرني بكل الماضي؟ لماذا كان ماضيه جبلًا أراد أن يفرغه لمن يحب؟ ولماذا كان الحديث بالنسبة لي جبلًا من الهم لا أريد سماعه؟ لماذا كانت التفاصيل ترهق قلبي وكأن عقلي أراد الرحيل لعالم آخر لا وقت فيه للمشاعر؟ لماذا جنبت قلبي منذ البداية ومن أجل ماذا؟ لماذا لم يهز قلبي ظرف لمعلمة ولا أتقبل عصبية معلم؟ لا أنظر لجوانب قلوبهم التي جعلتهم هكذا؟ لماذا كان الصباح وبدايته همًّا لا أبدؤه سوى بالصراخ على كل كبيرة وصغيرة لا انفراجًا ليوم جديد نبدؤه بالأمل لأننا على قيد الحياة؟ لماذا لم أحمل أكواب الشاي لأجلس مع عاصم أحدثه عن مخاوفي وانزعاجي وعن أخطاء الآخرين وقلقي فيبتسم وهو يصف لي طريقته الماهرة في حل المشكلات ثم يقص عليّ خبرته في الناس وفي الحياة، والأهم في الحب لماذا لم يكن لكوب الشاي ومقعد أمام النافذة أرقب بها حجب الغيوم لأشعة الشمس وأرقب معها خريف العمر وهو يمضي وأستعيد ذكريات جنيناها بفرحة أنا وعاصم، لماذا كنت أبعد الناس عن احتياج النصيحة حتى بتّ وحدي دونهم؟ هل كان قلبي يخطو خطواته

الأولى نحو القسوة؟ هل موت يحيى منقذ له؟ كيف أصبح عمري بعدك يحيى هكذا؟

كيف أصبح حالي بعيدًا عنك عاصم؟ لا ألومك حتى لو رحلت لو جربت حياتك مع أخرى تستند لقصص الحب وتعامل قلبك برأفة لم تدرك وقعها معي

هل أحببتك حقًّا؟ ولماذا كان كل رحيل بعد يحيى غير هام وساكن

هل حقًّا لا ندرك ماهية الحب إلا حين نخسره؟

هل كانت أواصر الحب ومعالمه ليست حاضرة لنفقده هكذا؟

هل يتسرب من بين أيدينا لأفعالنا أم أنه كان هدية لم ندرك معناها منذ البداية ورحلنا نصطنع السعادة ونظن أننا بخير أما قلوبنا فكانت تئن

أي أخطاء للماضي حملناها فأصبح الحاضر أكثر خطأ مما نظن

الأضواء المعلقة لشارع بسيط والكراسي التي يحملها الناس ويفرشون حبيبات خشبية ثم يجعلون بعضها ملونًا يعلنون فرحتهم ولا أهم يومًا لتلبية دعوة ربما كانت ستجبر خاطر صابرة، صابرة اليتيمة التي نعرف مهدها منذ النشأة، لم يكن لمشاعرهم بالنسبة لي غاية كي أحصد البسمة التي يزرعها الآخرون في قلوب الناس

صابرة بعد عدة سنوات من الصبر تجاهد وقد نزع الشقاق بينها وبين زوجها، نزاع العواصف دون هدوء وباتت مشاكل قلبها حاضرة على الموائد وخلف الأكواب وفي كل تجمع

أنا التي لم أهتم لشأن الآخرين يومًا قررت زيارة زوجها وتعريفه بنفسي ثم الاستماع للشكوى دون أن تعرف ثم عرض حل للإصلاح من جانب بعيد ثم التولي نحو الظل؛ الظل الذي نَشَدَهُ سيدنا موسى حين سقى لهما ثم تولى إلى الظل

فجاء الشكر من أبي الفتاتين على جزاء صنيع موسى، ثم سنوات البعد عن الأهل ورحلته للدعوة واحتمال الأذى ونجاته من الكَرب وعطاء الله له المشمول بالشكر والإحسان

إقناع رؤوس صلبة بمنطق مغاير، إصلاح الحياة بين زوجين متناحرين أمر مجهد لا يتم إلا بتوفيق الله

ناصرة تبحث دائمًا عن حلول تدور في دائرة مفرغة، تظن أن الحياة بحاجة دائمة لصراع، وأن الفوز هو الغاية، ولا أكف أنا عن إبداء النصح، أخاطب الطرق التي أسير

فيها عن أحوال الناس وعن حال قلبي

تخبرني الثنايا أنّ التغير هبة وأن الثبات عطية وأن الزلل خير منعه الله عنك

لماذا كانت الأضواء الباهرة وقتها وقعًا يختلف عن حياتي الآن؟ ولماذا كانت كلمات العقاب تصنع رباطًا غليظًا حول قلب عاصم فلا أشعر بصمته؟ لماذا لم أرَ حزنه الذي عاش فيه أعوامًا صغيرًا؟ ولماذا لم يفتح قلبه؟

عاصم الذي أراد الرحيل دومًا، كانت سلاسل عملاقة تجذبه إلى القاع، إلى أماكن لم تكن رحيمة في عالمه، إلى حياة وحده من تحمل تفاصيلها في قلبه، كنت أخشى الهروب، وكان هو يتمناه، كان الحل سهلًا أما أنا فرحت أدور في دائرة من الصراع من أجل العمل، عمل جعلني أخسر كل شيء، أغلاها يحيى وأهمها قلبي..

محاضرة ما أستمع لها تتحدث عن صلة الرحم، أعتبرها ومضة، أهم لزيارة عمتي ابتهال الجزء الذي تبقى من أبي، أرى في عينيها عينيه، وأظل أرقب الوقت المار في حضرتها بلوم واتهام وغوص في الماضي بكل حوافره، وحكاياها عن الميراث والتزاور والظلم الذي تظنه، ودورنا نحن فيه، وكأنه عهد من اللوم ينبغي تطبيقه في الماضي، كنت أبتعد أعقد عهدًا مثلها بأنني لن أعود لزيارتها، لا مكان لي في جو محطم بقدر قلبها، واليوم أصبحت زيارتها واحتمالها أمرًا أرقب الله فيه دون انتظار مدح أو ثناء، وكأنني عدت لمهد طفل يحاول ألا يعيش جاثيًا على قدميه، هل كان الوقوف يحتاج كل هذه الأثمان؟ هل صلاح القلوب يحتاج هكذا؟ زلزالًا أيَّ شيء يجليها، أيها يثقلها كمعدن وأيها يجعلها تئن؟

الأزمان ورسائلها، كانت ناهد أمامي نموذجا للإشراق والحياة، إنها دائمة الابتسام، لا أعرف لما أردت زيارتها، ربما دفعني الفضول لرؤية حياتها المنظمة وإيقاعها الذي ينم عن سعادة نادرة، ترى ما السر؟ متعاونة بشكل كبير، لم أستمع لها أبدًا شاكية، هذا الأمر ليس مشمولًا ضمن وقتها وكلامها، لا تتحدث عن حياتها حتى ظننا أنها تخشانا، ونخشى الحديث عنها وعن مصدر سعادتها التي تبدو جلية، كل صباح لا تمر مرة لتحصل على إذن الخروج باكرًا، ولا تطلب إجازة دون احتساب، تختفي وأختزن لها وقتًا ما أمنحها فرصًا قبل أن أصدمها بأنني أعلم كل شيء متى تحضر متى تغيب ومتى تتواجد ولماذا يغطي غيابها الجميع، هكذا ظنًا أنني لا أدري لماذا كان يتبرع آخرون

لإيصال المعنى، ويظن الغير أن مكافأة الرضا هي خير عمل له على الأرض، لماذا كانت كل الأوقات والانكسارات موجودة حاضرة على مائدة مكتبي كل صباح في عالم بعد يحيى وجدته متناحرًا وغافلًا بقدر عقول الطيور، حتى الطير يمكنه أن يهاجر أن يرحل حتى عن وطن محب وطن، يختزن ويختزل سعادته فيغدو محلقًا بعيدًا عن أوجاعه باحثًا عن بدائل حقيقية يغير واقعه بسهولة كم أغبطه!

تمنيت لو كنت طيرًا أمي أحلق أنا وأنت معًا، لماذا يحيى؟ أريد أن أبحر نحو العالم أمي أريد أن أرى أشياء جميلة ورائعة لا أعرف إن كنت سأحيا لأحقق الأحلام هل يعني اسمي الحياة أمي

الأحلام تمنحنا مسكنًا ما حتى لو كان وقتيًا لكن يفلح ولو قليلًا في جعل الألم يتوقف ناهد

أهلا أستاذة غادة بدت لي متفاجئة، لكنني كنت أكثر منها تفاجؤًا وخجلًا لم أر ترحابًا كالذي شهدته في بيتها المتواضع وأثاثها البسيط وأبنائها الثلاثة من غاب عنه الضوء، من غاب عنه الصوت، ومن غابت عنه القدرة على الحراك، غادرت بيتها وأنا أرى نفسي عبرها تحضر طعامًا بسيطًا، تشرع مسرعة، تتأكد أن الجميع قد حصل على الرعاية، تضع الأدوية وترتب أماكنها بنظام تخرج بلهفة تقف على عتبة الطريق الرئيسي تنتظر الحافلة وتراجع المال بحثًا تجنب مال العودة تضعه في جيب مخبَّأ وتخبِّئ معه قلبها القلق وقلبي اللوام، تهبط من الحافلة ويهبط معها قلبي حين أراها عابرة بسرعة للطريق، تحمل حقيبة باتت جوانبها قد صنعت الشقوق فيها مرسمًا ما، السرعة في التوقيع في دفتر الحضور، سجل يحمل الأخبار من التزم من غاب ومن قد حاول اللحاق بالركب فتأخر بضع دقائق، الوقت الذي نقضيه في العمل والعودة المحملة بيوم محمل بالأعباء، كيف يمكننا رؤية الحياة هكذا؟

لماذا عبرت الطريق كاملًا عائدة؟ لماذا كان لنسيم الظهيرة وقع مختلف اليوم؟ هل يحمل الشتاء رحمة ما؟ هل كانت المشكلة في الطريق يومًا؟ هل كان الخوف منه والقلق على جوانبه والرغبة في صنعه سلمًا نحو النجاح هو السبب؟ هل الحياة أبسط من كل هذه الأمور؟ هل الطريق هنا رسالة لم أعِ مكنونها؟

لم يعرف عقلي شفقة ولا تهاونًا في حَق أي أحد، أخط القرارات وأرفض ما أرفض

دون استيعاب أو استماع، لا أنظر للظروف ولا يهمني سوى أن يكون كل شيء جاهزًا حاضرًا وفي موعده، أقيّم الناس من المظهر الخارجي، أسعى دائمًا للصداقة مع أصحاب المكانة الاجتماعية، أقيم الحضور بالعلم والمال

كم كنت غافلة؟

الحلقات التي أردت أن أتوجه لها مرارًا ثم منعني عنها صلابة رأيي وخوفي وظني أنني هكذا أفضل ولا وقت لديّ، الخطوة التي باتت بعد مغادرة عاصم شفاء أنتظره أبدأ البسملة لا أكاد أكملها، تنهرني المعلمة بشدة، تكرر على سمعي خطأ التلاوة أكرر خلفها تسألني هل تنطق هكذا الجيم؟ ليست هكذا هذه شدة وهذا مد، مد منفصل فرقي بينهما، مد متصل هنا، أظهرتِ الغنة لم تطبقي الحكم هيا أعيدي لا أكمل كلمتين توقفني بحدة، لا تتعلمين، تصدني وتردني تنهرني أعود محبطة أظل ساهرة أستمع للحكم أكرر الآية، أعود في اليوم التالي أبدأ ولا أكاد أكمل آية تنهرني ثم تعاقبني بأنني سأجلس الوقت كاملًا دون تسميع، العقاب الذي لم أكن أفعل غيره مع يحيى سمير أصحاب العمل وحتى عاصم، هل كان ابتعادي عنه عقابًا دون أن أدري؟ تقاطع تفكيري معلمتي ها لا يمكنك الانتقال دون إجادة، لا تذهبي لحكم دون آخر، ها قد ظهرت مشكلة جديدة هذه قاف لماذا تنطقينها كافًا؟ هل أنت متعلمة؟ تكررين الأخطاء الماضية وكأنها التصقت بعقلك، أخطاء الماضي ينبغي أن تغادر، ربما من الأفضل الالتحاق بحلقات الأمين، ربما يساعدك الأمر على التحسن

الضمة الأولى التي يختبر فيها الله صدق قلوبنا والحضور الذي يشكل عقبة ما لنعرف مدى صمودنا في الطريق، ولا يقفزُ لذهني سوى الحديث الذي كان يتكرر كثيرًا في صباح الإذاعة المدرسية وأنا أستمع لها بوجهٍ متجهم..

ثم يأتي التفسير عن مسلك العلم كطريق، وكيف يكون تسهيلًا للوصول إلى الجنة، يأتي الضعف فأنصرف ثم أعود بعد عام ثم تكون الضمة أكبر ثم أعود ولا أتساءل في كل مرة إلا عن هزات قلبي وزلزاله ونبضاته

كان لدي قلب لا يحتوي على رقة أو شفقة أو عطف

قلب كان في الماضي قويًا لا يلتفت إلى الأوراق ويحط على الرسائل دون اهتمام

قلب هبط هاويًا حين تسلمت رسالة من عاصم

غادة أعلم أن الكلمات قد تكون قليلة وعاجزة وناجزة في بعض الأحيان وأعلم أن قلبك الذي ما زال يئن منذ موت يحيى غير قادر على تحمل المزيد لكن قلبي أيضًا لم يعد يحتمل

يغادرنا الحب أحيانًا ونغادره لأن البقاء أكثر وجعًا من الفراق لن يكون فراق قلبينا أصعب من فراقنا ليحيى

مغادرة وطن كان قاسيًا هو العلاج لقلبي فلا آثار الماضي ولا ظلاله ستلاحقني سيسهم الوقت في علاج الجروح

أحبك غادة رغم كل شيء، أحبك رغم الحب والحرب والدوائر العظيمة بينهما

أحبك حد عدم القدرة على الحياة فيما بعد، سيكون لدينا الكثير من الحِكَم كي نرويها والأحكام التي لن نصدرها، أصبح كل شيء مختلفًا بعد يحيى ربما كانت مغادرة يحيى لنحيا، لا نعلم حقًّا ما الذي يخبئه الله لنا، القرارات التي نأخذها قد تكون مرهقة لقلوبنا الحياة رسائل ملهمة تارة معلمة تارة وقاتلة تارة أخرى كنا أكثر انشغالًا كي نرسل أمنية أخيرة قبله ربما أو عناقًا ابتسامة ما

هذا الوقت لن يعود لن يعود أبدًا ساعاتنا في الحب كانت أجنحة ولن تكون عند الرحيل مخالب، سيكون الفراق مُسكّنًا من كل رحيل للماضي، سيكون السراح جميلًا كما كان اللقاء جميلًا، كنت أنظر للطيور وأنا أخبر يحيى أنها أكثر حظًا كي تهاجر وتحمل في قلبها هم الأوطان وتصنع عالمًا جديدًا ممتلأ بالسعادة، لكن لا أحد يعرف ماذا يكابد الطير ليحلق، كان يلزمنا قلوب أكبر كي تتسع لكل هذا الأسى، كان يلزمنا قبضة أكبر من قبضة أيدينا ونحن نحلم معه ضاحكين

أحبك غادة، سيظل الماضي وأخطاؤه ومعانيه حية في قلبي كحبك، وسيظل جزء مني عالقًا بجانبك، وسأظل أحبك مهما تباعد طريقانا، لا تعطينا الحياة دروسًا مجانية غادة، علينا أن ندفع ثمنها في النهاية

طي صفحة ما من حياتي لم يكن أمرًا يسيرًا، وطي رسالة عاصم كان طعنة لم تغادر قلبي ولم أحاول علاجها استسلامًا

الطريق يومها عائدة، بل كل الطرق باتت أصغر، وكأن الأتساع غادرها لضيق مناظر لا تبصرها إلا عيني فقط، الأشجار باتت أصغر والمنازل أصغر كل شيء بدا

متضائلًا حد الاختناق

قضيت حياتي بأكملها بداخل علبه علبة صغيرة بصغر حجم قلبي وقتها أضيق من كف اليد الذي يماثل القلب حين نقبضه، كنت أخبره دائمًا أن قبضتي أكبر من قبضته لأن قلبي يشمل قلبه بداخلي، لماذا لم يكن للعبة وقعٌ بيننا، يحيي وعاصم وحتى أنتَ سمير؟ لماذا لم أجد إحكام رباط جميل حولها فأظل أنثر الهدايا حولهم وأنبهر ببساطة الرباط ولونه الزاهي معهم؟ لماذا أصبح الرباط على قلبي الآن أمنية أنشدها الحلول والإجابات؟ الأسئلة التي تفكر أنك يمكن يومًا أن تعرف معناها..

الحياة وضمتها والصبر ومعانيه الرسالة التي يحملها كل منا يوميًا في جوفه والأخطاء التي نظن أننا كنا أكبر الأسباب فيها

أخطاء الماضي تلك التي ترسم لنا خطوات للحاضر وأحيانًا للمستقبل

الأهم هو أن نحرص على إصلاحها في كل يوم في كل لحظة علينا أن نفهم دروسنا الحقيقية أن نكتب أثرها أن نترك علامات لا ندبات تجرح غيرنا دون رحمة، أن نفهم الدرس جيدًا صعودًا ونزولًا وبين الطرقات وعلى حافة الأوطان

وطني قلب يرسل لي نبضات تكوي أفئدتنا بشدة أحيانًا وتجعلنا نتعافى أيضًا بشدة أحيانًا أخرى، رحيل يحيى كان رسالة

الرسالة قد تكون قاتلة لكنها في النهاية تعالج دائمًا

أخطاء الماضي

جنة

أنا أحلم جنة ألا تحلمين؟ قالتها سلمى وهي تبتسم قائلة لا يمكن لفتاة ألا تحلم بالحب، كيف يمكننا العيش إذن؟ أجبتها يا لك من خيالية كبرى أفيقي من الأحلام، وهل الأحلام سيئة جنة؟ قالتها سلمى وقد بدا عليها التأثر الشديد، وكأنني هدمت ركنًا ثابتًا من عالمها الذي تتمنى فيه الحب وتنسج عنه على وسادتها ليلًا قصصًا وحكايا، صدقيني سلمى الحلم يصبح سيئًا أحيانًا حين يؤدى لأشياء غير واقعية

أنتِ قاسية يا جنة لا علاقة للقسوة بحديثنا يا سلمى أكلمك عن الأحلام... الأحلام وقتها سريع إنها تنقلنا من الحقيقة إلى الخيال لكننا لن نمضي حياتنا بأكملها هناك

الواقع ممتلئ بالحزن والفرح والهم والمشكلات لا تسير الأمور كروعة تلك الورود التي نقطفها كل يوم من حديقة الجامعة

هذا أمر سيئ حقًّا يا سلمى لم لا تنهيني عنه؟ لأنني أعرف أنكِ تحبين الأزهار وهذا أمر أراه يتعارض مع طبيعتك، تمررين الورود على خصلات شعرك برفق وكأنك تخبرينها أن تحمل العطر لتنثره بين طياته

أرأيت سلمى هذا حلم جميل لكنه سريع العطب، أجنحة الهواء ستمر من خلاله لتحمل نغمات العطر بعيدًا، الحب سريع مثلهما لا وقت كافيًا ليظل إنه يرحل ككل الأشياء الجميلة الأخرى التي نراها تسعدنا برهة وتؤلمنا أغلب الوقت

لا فائدة حقًّا من الجدال معك جنة أتعرفين ما الجيد حقًّا سلمى أننا لم نسكن في المدينة الجامعية، لا تعجبني، إن السكن الخارجي جميل وأشعر كثيرًا بالراحة تقلقينني عليك كثيرًا جنة تمضين معظم العطلات ولا تعودين إلى أهلك أنت غريبة أسررت الأمر في نفسي قائلة: وماذا تعرفين أنت يا سلمى عن هذا السر

كلية السياحة والفنادق كانت هي الدراسة التي تمنيتها عامي الأخير قبلها كان كافيًا بالرغبة في الرحيل أما من يمانع فلا وجود له

الفنادق العالمية إنها تحمل عددًا من النجوم وتحتل موقعًا مميزًا هناك على نهر النيل كم أنا محظوظة للقبول في هذا العمل دراسة أحبها وعمل أشعر فيه بكياني لا رغبة في مال لكنه يشبع بداخلي حدس أنني مميزة وأنني الأفضل

أنتِ حقًّا لئيمة جنة لِمَ لَمْ تخبريني بشأن الإعلان؟ انتظرتِ حتى حصلت على الوظيفة!!

لكنني أخبرك الآن سلمى ثم إن التقديم ما زال مستمرًا وهناك أمرٌ آخر أنتِ محجبة لن يقبلوك، تنهدتْ بضيق ثم غادرتني في حنق قائلة لدي محاضرات إلى اللقاء لم تحاول سلمى التواجد معي بعد ذلك أو مدّي بما أريده من محاضرات أو ملخصات وكأن فجوة ما بيننا قد نشأت وسألت نفسي لماذا هذا التغيير كانت الإجابة حاضرة أمام عيني أما أنا فلم أرَ

مكان جميل نعم إنه مكان فخم وباهر أجمل من الجامعة ومن سكني مع صديقات يجمعنا مكان واحد أما القلوب فمتفرقة

نعم مكان ملهم أجمل من بيتنا الذي أتركه بالشهور وأحمل في قلبي سر البعاد أما هنّ فيتعجبن من طول البقاء

الابتعاد أصبح غايتي منذ وقت طويل لا مواعيد محددة لدينا كل منا في عالمه الخاص، أخي ياسين محمد وعبد العزيز ياسمين هي الأخرى وتيسير وأمي

لطالما أحببت النيل وحلمت ذات يوم بإطلالة جميلة من شرفتي

شرفة تستقبل هدوئي وتنسيني كل شيء دون أن تجعلني أنتقل لعالم الأحلام لا أؤمن بها الواقع هو الأبقى كي لا أغرق في بحر الصدمات كياسمين حين فقدت قدرتها على الحياة بفقد الحب، كانت أمي تلومها، الاختيار لم يكن هو الصف الرابح كان اللوم حاضرًا دائمًا وبشدة لا الاحتواء، كنت أراها أنا الأخرى وأضحك أفرح كثيرًا لأنها معاقبة، أراها تبكي فأبتسم لقد كانت تجيد كسر ألعابي تجبرني على الكراهية ولم يكن أحد ليصلح تلك العلاقة برأي أو توجيه، لم أدرس معاني الترابط هنا في الرحاب

عبد العزيز قرر هو الآخر الرحيل، الهجرة بالنسبة له اختيار عن المستقبل يبحث، أما الماضي في الوطن هنا معنا فلم يعد يهمه

لا أعرف له أرقامًا ولا أختبر وقع سؤاله عن أحوالي وأخبار الجامعة لا يهم ماذا

أرتدي ولا ما هو مسموح لي بفعله، هذه أمور تشغل أولئك الذين يعيشون على كوكب الحب ويحملون بين أيديهم أحبالًا تربطهم برباط لا بالغ الإحكام لكنه بالغ القوة

مراكب النيل يا لهشاشتها! أتأملها وأتأمل أحبالها تعجبني بساطتها ويخيفني ضعفها وأرى فيها الحب، إنها هناك، إن قاربهم هو منزلهم، معيشة بسيطة ورزق يومي يبدأ بكلمة يا رب أنتَ الرزاق أسمعهم يبدؤون يومهم بصلاة الفجر يتنسمون الهواء النقي بدءًا بالصلاة وزوجة لا تعرف رفاهية المأكل والملبس والعطر ومساحيق التجميل إن وجهها يكتسي بهزيمة الفقر، أغمض عينيّ وأعود لعملي وأنسى لأنني لست مثلهم أنا أعلى منهم بعملي ومكانتي الاجتماعية

وتحدثينني يا سلمى عن الحب يا لبأسك أيتها الصغيرة!

لم تترك لنا أمي هذا الرباط، كان هناك أمور كثيرة تفصلها عنا وأوجاعها كانت سرًا تحمله بقلبها لا تُشرِكُنَا فيه بقدر ما كان يُبعدها رغمًا عنها عنا

لقد مر على رحيلها سنوات قليلة يا لقلة أيامي معها! وكأنها كانت في هذه الدنيا عابر سبيل، الوحدة كانت رفيقًا مللته لبرهة ثم اعتدته حين لم أجد دواء لأحزاني لا عند أخ أو أخت أو أب أو حتى قريب، ثم أصبح هدوءًا يميزني وثقة ترتسم على ملامح وجهي وأنا أزينه وأضع العطر الذي ينقلني لخيال أصنع أنا حدوده، أضع البداية متى أريد وأحصل على النهاية التي أستحقها خصلات شعري أجيد تدليلها أبتسم حين يداعب هواء الوطن الرقيق أطرافها، أقف أمام مرآتي لأتساءل لست جميلة بذلك القدر

حسنة المظهر، كان الشرط الأول والأوسط والأخير لقبول الوظيفة قاعات المؤتمرات تنظيم العمل استقبال الضيوف والكثير من الأصحاب الذين يماثلونني في كل شيء أما القلوب فكثيرة وبائسة، وأغلب الوقت إن لم يكن على الدوام متناحرة سميرة غريبة حقًّا

أراها متفائلة أحيانًا ويائسة حد التفكير في الانتحار أحيانًا أخرى أحن قليلًا لمعرفة ما يضايقها والتخفيف عنها مواساتها حين أراها تختار ركنًا غريبًا بعيدًا عن الأنظار كي تبكي وحدها أتأثر لومضة ثم أنفض عن رأسي هذه الأفكار قائلة لا دخل لكِ جنة ثم أنسى ولا أهتم

وجوه متفاوتة تلك التي ترتدي الفنادق تشترك في امتلاك رفاهية المال كي تمضي وقتها في فندق عريق وتختلف في ثقافتها وفكرها ودينها بعضها يستحق الاحترام

والآخر يستحق السحق

أستاذة جنة أهلًا أم أمل؟ كيف حالك ما بك أنتِ لا ترتدين الزي قلتها لها وقد استوقفتني بالخارج طالبة مني الحديث في أمر هام وعاجل كان صوتها مختنقًا ولم أعد أتبين عينيها حين فطنت إلى مدى حمرتها وقد بدا عليها قضاء ليلة كاملة من البكاء لم أسألها عن أحوالها مرة في السابق لَمْ أرغب ولو للحظة في معرفة حياتها ومشاكلها عدد أبنائها كل ما يخص عالمها بالرغم من محاولتها العديدة لفتح مجال للحديث معي أما أنا فأتجاهل ظنًا مني أن مستواي لا يسمح للحديث مع من هم أقل وأرفع رأسي وأهندم شعري ثم أمضي وأنسى لكنني لا أعرف لماذا ولأول مرة أشعر بالتعاطف وبالشفقة والحزن على حالها

أردفت قائلة: إن مستر ياسر فصلني وهذا العمل يشكل مصدر رزق مريح لي إنه يريح بدني من شقاء أعمال أخرى غيره

لا أتصوّر أنني تم فصلي، لَمْ أفعل شيئًا يستحق، هذا إن التأخير نصف ساعة كل يوم حقًّا ليس ذنبي، هناك الكثير من أمور حياتنا لا يمكننا نشرها أو الحديث عنها أو وضعها هكذا مبررًا للآخرين، إنّ مستر ياسر لا يستمع، رجوته مرارًا لكنه صلب الرأي تحدثت مع أستاذة سميرة صدتني بشدة وغيرها كل منهم يخشي مستر ياسر يعرفون أنه من الممكن أن تكون وساطتهم سببًا في طردهم هم أيضًا وقطع رزقهم من هذا المكان مع أن الرزق بيد الله وقته وميعاده إذن أم أمل تريدين مني أن أكلم مستر ياسر نعم لقد جئت اليوم وانتظرتك بالخارج أعرف ميعاد وصولك وألمس فيك طيبة مخبئة وقلبًا يحاول الصمود خلف وجه صامت أما مشاعرك فحية بداخلك لكن قلبي أخبرني اليوم وأنا أصلي الفجر أن أحاول للمرة الأخيرة حاضر أم أمل غادرتها وودعتها دون أن أعطي لها أملًا وقد طغى عليَّ يقين هل أكون أنا تلك التي تفعل ما لم يفعله الآخرون أيكونون أشد حرصًا مني على أعمالهم ألم تعلمك الدنيا الوحدة جنة ألم تخبرك أن لا صديق ولا قريب ولا أحد ينفعك وأن خير الأمور الابتعاد والعناية بالذات دون الآخرين ضغطت زر المصعد إن عملي في الطابق السادس وغرفة مستر ياسر في آخر الرواق أما قراري كان النسيان كالعادة، شيء ما بداخلي قد أضاء أخبرتني عن صلاة الفجر وعن دعوتها لكن الأشد وقعًا في نفسي حديثها عن الرزق؛ الرزق بيد الله

فكيف تقلقين جنة

لم أكد أصل إلى مكتبه حتى وجدت مستر ياسر يتحدث بفظاظة عن وفد أمس ويمارس دوره المعتاد في التعامل بتعجرف ونقد كل شيء حين فاجأته قائلة مستر ياسر كنت أريد الحديث معك في موضوع هام هل يتسع وقتك؟ أجابني بتكبر تحدثي لكن كوني سريعة ليس لدي وقت

الحقيقة أن الموضوع لا يخصني إنه يخص أم أمل عاملة النظافة لم أكد أكمل

حتى أوقفني بإشارة منه إنها لا تحترم المواعيد تتأخر باستمرار وهي بطيئة لا أريد من يعرقل سماء نجوم هذا الفندق أو حتى أولئك الذين يتدخلون في شؤون لا تعنيهم لَمْ تخفني كلماته بقدر ما أخافني وقع خيبة الرفض على أم أمل حين تعرف حتى وجدتني أكمل دون وعي مني قائلة مستر ياسر لسنا هنا كي نجلد الآخرين لا تُقِمْ لهم محاكمة إنها بحاجة للعمل وهي تبذل جهدًا كبيرًا مقارنة بمن هم أدنى منها سنًا

إن الأرزاق بيد الله قاطعني بحدة وهل وكلتك دفاعًا عنها أرى أن تلتفتي لعملك وأنصحك أن تكوني أكثر كياسة كي لا تفقديه

هل هذا يعني رفضك للأمر؟ أجابني بثقة بل إجابة أشمل كي تكوني أكثر ذكاء وحكمة كغيرك كي تحافظي على رزقك أجبته في تحد وأنا أغادر بكلمتها

الأرزاق بيد الله مستر ياسر بيد الله وحده

أستأذنك لدي عمل كثير اليوم ورحت أفكر كيف سأنقل لها الخبر ثم إنني لَمْ أهتم بأخذ رقمها، كنت قد قررت في نفسي وأنا أقف معها عدم التدخل لذلك لم أكترث بأخذ رقمها ولا الحصول على أي تفاصيل تربطني بها يا لغبائي علّني كنت أخبرتها الآن أو حتى طيبت خاطرها ولو بكلمة، كما أنه يبدو أنني حتى لن أحصل على عنوانها أو هاتفها من مستر ياسر، إن هدم جدار أسهل من المناقشة معه كم هو فظ غليظ القلب

لكنني هونت على نفسي فلن ألتقيه مدة أسبوعين كنت قد حصلت على طلب الإجازة من أجل امتحانات السنة النهائية في الجامعة ولأنني أجدت طوال حياتي ترتيب أولوياتي وتنظيم وقتي فقد كان كل شيء محددًا وجاهزًا ارتاح ضميري قليلًا وأخذت أتناسى وجه أم أمل الذي أصبح يطاردني ولا يدق في سمعي سوى حديثها عن الدعاء في صلاة الفجر حتى وجدت نفسي لأول مرة أصلي الفجر في موعده ولأول مرة يتملكني

شعور بالاهتمام نحو الغير وأنني إن كنت لا أملك حقًّا فعل شيء لها فسأدعو لها

كان دعائي من القلب شديدًا لدرجة استغربتها لم أدعُ لأحد في حياتي وما اهتممت لأمر أحد اعتبرت الصداقة ضعفًا وإفراغ أنات القلب للغير غباء، قلبي كان أشبه ببناء ثابت لا يخشى تهديد الزلازل له ويحسم أمره جيدًا لأنه يعرف أنه حين السقوط لن يراه أحد كعمر مضى دون أن تشعر سوى أنك سراب، سراب في حياة آخرين وجميعنا نلهث نحوه في عجالة ويتملكنا الخوف كلما اقتربنا ولا نلتفت لبعضنا البعض بالرحمة أو حتى بالسؤال كم أمر القلوب محير

الأيام الجامعية الأخيرة حملت بالوداع والوعود باللقاء وعهد التواصل بعد الفراق أما أنا فلم أكن أهتم وكأن كهفًا ما قد أقمته حول نفسي ابتعادًا عن كل شيء كان النسيم جميلًا والهواء العليل يداعب خصلات شعري برقة سلمى وحديثها عن الحب ثم ابتعادها عني بعد أمر العمل محاولتها معي للنصح كانت صادقة لكنها تفتقد الصبر وسؤال أتلقاه منها بحدة الصفع

ماذا تنتظرين؟

كانت محقة لكن طريقتها معي كانت تدفعني للابتعاد

ما أصعب طريق الهداية في البداية! وما أشد وقع الكلمات على القلب! أنتَ في البدايات كطفل يخطو خطواته بحذر قد يبكي من أقل شيء وقد يتراجع عن كل شيء

ما أضعفنا ونحن نخطو خطواتنا الأولى في طريق الله وما أشدهم أولئك الذين يتخذون القسوة منهاجًا دون حكمة الموعظة الحسنة

كان قلبي يتألم بشدة أعود من العمل من الجامعة من أي مكان أقف أمام مرآتي وأخاطب قلبي بهذا الوجع الذي كان ملازمًا لي، وأتساءل بداخلي قائلة ليتني أرتدي الحجاب ثم أغفو لأبدأ يومًا جديدًا ولا أتغير مر الأسبوعان بسرعة شديدة والعودة للعمل كانت تفرحني إطلالة النيل جميلة إنها تحمل معها الأمل بالنسبة لي تمنحني قوة ما وأنا أشاهد الحب هناك بينهما وأتساءل عن سر سعادتهما الفرق بين المشهد هنا من هذه الشرفة في الطابق السادس يختلف كثيرًا عن المشهد وأنتَ تقف خارجه وتوليه ظهرك لأنه لن يسمح لي بارتداء حجابي ولَمْ أكن أنا بتلك القوة كي أهزم هذا الصراع بداخلي بقرار

كي أسمح للضوء أن يجد طريقه للخروج من عتمته قطع تفكيري صوت يناديني

ويبدو عليه ملامح الإنهاك أستاذة جنة أستاذة جنة

تفاجأت ما هذا أم أمل كيف حالك وجدتها وقد جذبتني مقبلة إياي أما أنا فاستغرقت قليلًا ثم تبين لي من زيها أنها قد عادت

اسمحي لي أن أناديك ابنتي أهلًا أم أمل

لا أعرف يا ابنتي كيف أشكرك لقد تفاجأت بمستر ياسر يتصل بي بعدها بيومين أردت أن أخبرك ولم أجرؤ على السؤال عنك حتى وجدتك في الرواق كنت سأكون تعيسة إن مر الوقت ولم أشكرك على صنيعتك معي أخبرني مستر ياسر أنك كلمته لا أستطيع أن أعبر لك عن امتناني لا أملك سوى دعوات كثيرة دعوت الله لك كثيرًا أستاذة جنة سيظل ما فعلته مصباحًا ينير سجادتي في جوف الليل أتذكرك بالدعاء ماذا تريدين أن أدعو لك أأدعو بالزوج أم بالرزق؟ اختاري لي ما تريدين تبسمت دون أن أجيب

لماذا كان سؤالها واضحًا ولماذا لم يكن لدي إجابة ولا أمنيات

كنت أكثر انشغالًا بنفسي مظهري شعوري بالرقي وأنني الأفضل قطعت تفكيري أم أمل قائلة سأدعو لك أن يرزقك الله من الخير كله ثم مالت لي هامسة بحنان وأن يرزقك زوجًا محبًا تقيًا غنيًا هكذا أدعو لابنتي لكن الأهم هو أن يعرف النور طريقه إلى قلبك

فهمت الجزء الذي يتعلق بالزواج لكنني استغربت حديثها عن الخير كله وما المقصود بأن يعرف النور طريقه إلى قلبي

حزمت حقائبي لقد أردت قضاء العيد هذا العام مع أسرتي، أراد محمد أن يكون لطيفًا ليجمعنا ويلتف الأحفاد ليتبادلوا النكات ويلعبوا ضاحكين من قلوبهم دون أن تشكل لهم أخطاء العالم وجعًا وهم يبتسمون في سعادة ولا يفكرون في الماضي الذي لا يملكونه، ولا يقلقهم المستقبل الذي ينسجون منه، إجابة فورية حين تسألهم: ماذا تريد أن تصبح؟ ليجيبك في عفوية: طيارًا أحلق في السماء، أريد أن ألمس النجوم، أو طبيبًا أساعد الناس وأخفّف عنهم أوجاعهم، أخترع ترياقًا يجعل أمي نشيطة، يجعلها لا تبكي، يجعلها تبتسم ولا تغضب من كل شيء، ويجعلها تصلي، أنا أصلّي، أخبرني معلمي في المدرسة بالطريقة الصحيحة للوضوء والصلاة، ثم أخبرني سرًا لن أخبركِ إياه، لم أكد أمسكُ بيده الصغيرة حتى فر هاربًا مني ضاحكًا لأقف حائرة وأناديه وهو يبتعد عمر أريد معرفة السر ليبتسم ملوحًا لي لن أخبركِ

كان يوم العيد مضحكًا لكن عمر كان أكثر اهتمامًا كي يأتي بعفوية ليجلس بجانبي ويقول حسنًا عمتي لقد تأثرت وأخبرت نفسي ينبغي أن تكون طيبًا عمر وألا تبخل بالعلم على غيرك سترى أثر هذا الجود في حياتك وعليك أن تخبر عمتك بكل الأمور التي ستفيدها، لم أستطع منع نفسي من الضحك وأنا أشاهده يتحدث كشخص كبير أخذ من الحكمة في الحياة ملامح دنيا لم يأخذها كهلٍ

ها أيها البطل ثم صمت وكأنه يهم بإبلاغي نبأً عظيمًا الدعاء وأنتِ ساجدة عمتي هدية كبيرة من الله أخبرني معلمي أنني حين أكونًا حزين وحين أرغب في شيء فهذا هو الطريق لكل ما أريد لكن على الأمر أن يكون نابعًا من هنا وأشار لقلبه

عمر عمر التفت لأجده قد اختفى من جانبي وقد استجاب لنداء وليد ويبدو أن وقت اللعب لا ينتهي فاصل يجعلك قادرًا على المواصلة يقتل ملل الروتين المكرر لحياتك يمنحك دفء العائلة الذي لا يتكرر إلا من عام لعام هنيئًا لأولئك الذين يعيشون فيه يبتسمون وحول الأحباب يلتفون كم هي نعمة

ترجلت من الحافلة وشرعت صاعدة إلى الشقة أخبرتني ريم وهالة ومنار ونادين كم اشتقن لي ثم شرعت هالة تحدثني عن قريبها الذي تقدم لها وأنها لا تحبه لكنها قبلت الخطبة علّ القلب يتحرك وأن الأمر كان استنادًا لنصيحة جدها الذي تكن له حبًا عملاقًا ها هالة أنا حقًّا تعبة ألم ننتهِ، ثم إن العام الدراسي يبدأ غدًا أنا تخرجت أخيرًا أما أنت ونادين أمامكم سنة هامة وصعبة لا عليك لا تقلقي سنكون بخير حال

إن أبي وعمي وعم نادين وخالة ليلى جميعهم أحضروا لنا أكلًا مميزًا وقد أوصوا علينا سكان العمارة بأكملها حصلوا على وعد منهم بالعناية والمتابعة إنهم يقلقون علينا دائمًا وأخبرتهم جارتنا حسناء أننا في عينها وأننا مثل ابنتها دارين وأننا في رعايتها

أنتِ محقة إن الخالة حسناء جميلة وحنونة هيا اتركيني الآن أريد النوم حسنًا تصبحين على خير في الصباح هاتفني مستر ياسر أستاذة جنة احضري حالًا لمكتبي ثم أغلق الهاتف مباشرة كعادته دون أن يسمع ردي الجارة حسناء هي الأخرى بدت وكأنها تريد مكالمتي في شيء تتردد لقد استغربت عودتي قائلة كنت أظن أنك ستستقرين عند أهلك وتحصلين على عمل هناك بالقرب منك ظننت أن لن تعودي لماذا أحسست يومها بضيق ينبع منها كالدخان الراكد ما الذي يشكله لك من أهمية عودتي من عدمها الأمر

بيننا هو الإيجار وأنت تحصلين على مرادك إذن ما الأمر لكنني نفضت عن رأسي تلك الأفكار جميعها بمجرد دخولي لمكتب مستر ياسر

صباح الخير:

رد التحية كعادته ببرود معتاد ثم قال أستاذة جنة أعلم أنك غير متزوجة هذا مُضمّن في سجلك تفاجأت دون أن أرد ما شأنك أنت ثم أردف دون أن أسأله هناك شخص يسأل عليك وأراد التوسط لمكالمتك وهو يبدو أنه جار لكم في العمارة التي تسكنونها وهو يريد محادثتك، لم أستوعب ما يقول لكنني أردفت وبحدة حين أوقفته بحركة من يدي وبصوت حاد ممزوج بالانفعال وقد ضايقني الأمر وأنا أحدث نفسي ما دخلك أنت كي تتكلم معي في شيء كهذا؟ إذن ربما كان هذا ما تريد جارتي حسناء الحديث معي بخصوصه قائلة: مستر ياسر لا أسمح لأحد بالحديث معي ولا أقبل هذه الطريقة لدي بيت وأهل وهذا البيت من يريد أن يتحدث معي فلن يكون هذا إلا هناك أعتذر عن إكمال الحديث لديّ عمل لأنجزه

ولا مرة من المرات أناقش أو أتحدث مع هذا الشخص دون أن يصيبني الكدر لكنني حين فرغت من العمل وعدت للبيت كنت في غاية الضيق من هذا وماذا يريد وهل تريد جارتي حسناء الحديث أم أن هناك أمرًا ما

في مساء اليوم الثاني هاتفني أخي محمد جنة أريدك أن تحضري لدي أمر هام أريد الحديث معك بشأنه

امنحيني فرصة قالها عبد الله وهو ينتظر مني ردًا بالموافقة وكتعجبي من مشاهد الحب وما تتخللها من رحمة وخوف على المحبوب تعجبت أن يدق الحب بابي وأن يسأل في عفوية وينتظر مني إجابة لم أكن أعرف لماذا ومتى وكيف حدث الأمر إنها المرة الأولى جنة قالها عبد الله منذ ثلاث أعوام في كل عام كنت أحضر إلى مصر وأسأل عنك كانت تخبرني الجارة حسناء أنكِ متزوجة ولديك ثلاثة أطفال كنت أتعجب كيف هذا وأنتِ تدرسين في الجامعة ثم تذهبين إلى عملك في كل مرة كنت أنسج حلمًا عنك جنة

وأتمنى أن أعرف الحقيقة وأن أعود كي أجدك من جديد حاولت الابتعاد وآثرت الرحيل وحكمت عقلي مرارًا وأنا أنثر مئات الأسباب أمام عيني كي لا أتبع قلبي لكنني انهرت في النهاية أمام الحب حتى وجدت نفسي أفكر في مصارحتك وأرغب في مكالمتك ومعرفة

شعورك فكان الرد الذي تلقيته هناك هو أنكِ تملكين بابًا وأن الطريق ينبغي دائمًا أن يبدأ من هنا

لا أريدك أن تعطيني ردا الآن لن تكون هناك تفاصيل تزعجك لا شيء يمكنه أن يخيفك كل ما أطلبه حجابًا يزين وجهك لأنني لا أقبل أن تكون زوجتي غير محجبة

يمكننا دائمًا البدء من جديد انتظار البدايات المشرقة بعد النهايات التعيسة

ما هو الخير إذن؟ وما هي السعادة التي ينشدها القلب في أولى خطواته لحياة جديدة

ما الأمر جنة لماذا لم يعد يعرف النوم طريقه إلى عينك؟ ولماذا أنا؟

ولماذا أطيل النظر للنجوم الآن؟ هل الطريق إليها بعيد وقاس؟ هل يستحق المجازفة؟ هل بات حلمي الآن واضحًا؟ هل ينبغي أن أكون طيرًا محلقًا مثلك عمر؟ هل حقًّا يمكننا أن نلمس النجوم؟ ماذا لو كانت تلك النجوم هي الحب لربما يستحق الأمر عناء المحاولة

كان القرار في ظل كل هذا الازدحام وصخب الإخوة وآراء القاصي والداني جميعها لتحديد رد ينتظرون فيه التأييد وأنتظر أنا فيه الرحيل أنا موافقة

أنا موافقة على ترك الوطن بأوجاعه بجسده الهزيل بأحلامه التي تتلاشي حد السعي بجهده الماثل في حبال القارب، تجاعيد الشمس قد صنعت خيوطها على وجهها وطنًا رحل برحيل أمي وأنا في سنتي الجامعية الأولى وقلبي محطم

الذين جربوا مرارة الفقد الأولى في البدايات يصبحون أصلب أكثر عقلانية، يحملون الوطن بقسوة مصائب ألمهم، ويبحثون عن الحلول دائمًا خارجه، يا لهذا الظلم! له مدافعون عنه برهة وصامدون برهة وراحلون برهة وقاتلنا الحنين شوقًا له برهة أخرى رغم كل شيء

أن أودع أخوتي كان شيئًا عاديًا كذاك الوقت الذي كنت أغيبه انغماسًا في العمل الأحبال التي ما كانت لتربطني بهم عائدة ولا شيء يجعلني أضحك كوجه الصغير عمر يحدثني عن الأحلام وأنه سيبلغ النجوم يومًا وسيضع بصمته الخاصة عليها

الأيام الأولى في الزواج تشبه الأيام الأولى في الجامعة في العمل وفي الحب كل شيء يبدو مبهرًا ومضيئًا وله بداية ونهايته أمنية لبداية أخرى

جميعها كنت فيها بقلبي وحدي رحيل أمي مبكرًا جعلني أكره كل شيء أكره العودة لأنني أرى ملامحها في كل مكان أراها تحضر الطعام لياسين ويتذمر عبد العزيز

لأنّ الملح كان كثيرًا والنوع الآخر من الطعام لا يعجبه، أراها تحضر أكواب الشاي حين ننشغل بعدها عنها بأوقاتنا مع الهاتف وساعات المرح مع الأصدقاء دون اغتنام للوقت في الرحاب، كان الزمن حاضرًا أما نحن فلا ولا أجد بداخلي سببًا سوى الصمت

الصمت الذي أصبح وجهتي وصفتي حد الوجع لقلب ألف الرحيل واعتاد صلابة المشاعر، لقلب أقسم ألا يتحرك لأن الحب مؤلم، قلب لم يكن ليلين لحديث أم أمل ولا لأوجاع سميرة الباكية في زاوية وحيدة ولا لكلمات ياسمين الناصحة لي برقتها المعهودة وتسامحها النادر بقبول الحب والأحلام وما يعقبها من أمنيات برغم قلبها المحطم بغدر الحب قلب لا يضع إطارات عملاقة كسلمى لكل غد ويملؤه بالورود وينتظر

كنت أتألم بشدة

أهذب حجابي وأنظر لمرآتي وأبكي، أخبر قلبي قائلة لديك ضوء ما بداخلك وهو يريد الحياة فلا تحرمي نفسك إشراقه

لماذا احتجت جنة لكل هذا الوقت؟ وكيف كانت البداية ولأنني أريد الحياة أمكنني الصمود

مئة عام إلا خمس سنوات عمر أم زوجي، ويبدو وكأنها قد مر عليها من قسمات الظهر مما يمكنه أن يطحن الزهور قبل أن تتفتح بعد احتراقها بشمس عمر ممتلئ بأوجاعها التي تجيد الحديث عنها أحيانًا وإنكارها أحيانًا أخرى في تناقض عجيب

العائلة كبيرة... متحابون أحيانًا متعجرفون أحيانًا أخرى ويلومون الغريبة التي حلت في نظرهم ضيفة غير مرغوب بها وطن جديد يمنحك كل شيء لكنني لم أشعر لحظة أنني أنتمي إليه

كان عبد الله هو الدواء لكل داء، طيبًا حد الغرابة متسامحًا حد الدهشة وصامتًا خلف كل وجع وضيق وكدر يصيب عقلي وقلبي

يكنّ لي حبًا كبيرًا وأسأله لماذا فيخبرني أنّني أتقي الله فيك

أنا هنا... أنا جيشك وأنتَ سمائي ووطني

لكن الأوطان يا عبد الله لا تُترك، إنها كائن يعيش في الوجدان كيف يمكننا أن نكمل حياتنا ونحن عنها مبعدون؟ ما هذا الصوت يبدو أن روضة ورضاء قد صحيا من النوم لا تقلق سأتفقدهما

جنة ما الأمر خالتي؟ أريد مكالمتك في أمر ما وأرجو ألا تمانعي نحن نريد ولدًا وهذا أمر هام في عائلتنا وهو شرط يجعلك تحصلين على الجنسية وإلا من الممكن أن أزوّجه، ما رأيك؟ ألن تغضبي بالعكس خالة أريده أن يكون سعيدًا لن أحزن صدقيني

ثم إن لدي خبرًا سيسعدك أنا حامل ثم ملت لها هامسة حتى لو كان المولود صبية جميلة لن أبتئس؛ لأن كل هذا رزق من الله أيام العيد هي التي يجتمع فيها القاصي والداني من كل صوب لا يجدون الراحة إلا هنا في رحاب بيتي، لماذا لم أكن أشعر بالأمان ولماذا كان يشكل بيتي وطنًا للجميع إلا لي، وهم معي وأنا وحدي دونهم وأنا زوجة أصغر أبناء هذه العائلة لا نعرف حقًّا يا عبد الله ما سر هدوء بيتك كيف تجعلنا نجتمع ونرتحل مشتاقين للقائك يبدو أنك مغرم حتى النخاع ذكية ربما قوية لا أعلم ما بها كي تجعلك وتجعل بيتك مضيئًا ووجهك مشرقًا إلى هذا الحد كم حاولت أمي ردعك عن هذا الأمر كان رأسك صخرة، لا تقلقي نوف على أخيك فكري في زواجك أنقذي الأمور لا تكوني حادة فتفقدي الحب بفقد زوجك تعلمي التنازل ولو قليلًا تعلمي الصبر واحتسبي، آه هذه أصبحت أسطوانتك المعهودة عبد الله في كل لقاء بيننا تذكرني وكأنني ما زلت طفلة بضفائر صغيرة وشرائط ملونة هذا الوقت مضى، هذا ضعف عامة لا تقلق علي أستطيع تدبر أمري غادرتها قائلًا: صلبة الرأس أنت كهذا الجدار، أردفت قائلة: أصبحت تتكلم تمامًا مثلها تبدوان كلون واحد تم مزجهما معًا وقد شكلا لوحة فنية امتزج زيتها معلنًا ألا ينفصلا وأن المحاولة ستكون مجهدة وربما مستحيلة

أنت كوطن بداخلي

والأوطان لا تنفصل عنا ولا ننفصل عنها

هذا الأمر هامٌ ضروري لديك حقوق لن تحصلي عليها إلا بحصولك على الجنسية لكن عبد الله لا أظن أقصد ربما هناك حل آخر

الحل كما أخبرتك أخشى عليك من ضياع حق أو عدالة الأهل أو رحمة الأقرباء القلوب تتغير جنة وأنتِ وحدك وأبنائي صغار

أنتَ جيشي عبد الله ما حاجتي لغير ذلك لا تقل هذه الكلمات لا تؤلم قلبي عليك لا أعرف شيئًا عن الحب قبل الزواج ربما مخطئون من ينسجون عنه كتبًا وقصائد

الأمر مختلف حقًّا عبد الله

لا أطيق فكرة ابتعادك وينقبض قلبي حين تغيب وتشتعل فرحتي ويتحرر صمتي المعهود كي أشرع محدثة لك عن أخبار الخالة ومتاعب الصغار وهزات الحنين الدائم بداخلي لأيام الماضي في بيت أمي ووهج إخوتي الذي بدأ يخبو لأن الحياة جعلتنا منهمكين مشغولين

يفقد الوطن زهوته أحيانًا بفقد من نحب

أحبك عبد الله من أعماق قلبي أحبك

في زاوية الغرفة تبدو وكأنها منصة ما أضع عليها عطوري وزينة وجهي أصبحت خاصة ببيتي فقط، وعلى طرفها الأخير وضعت مصحفًا حين رتبت غرفتي لأول مرة آثرت وضعه كي يحفظني، إن علبته جميلة يستند برفق على قاعدة كرتونية متينة، أتلمسه بأطراف يدي وأهمس لقلبي لماذا لم يكن رفيقًا لي بدلًا من الوحدة، لماذا ظل كل هذه الأعوام قابعًا في مكانه حتى في رمضان؟ لماذا لم يكن معي حاضرًا كي ينمو بداخلي؟ الاطمئنان الذي شعرت به حين أصبح وجوده يومًا بعد يوم من أساسيات حياتي

لماذا كان شافيًا دون أن أدري من كل جروحي ومخرجًا بديلًا عن صمت لا أعرف تفسيرًا لضيق الصدر سوى بالابتعاد عن الله ولماذا تدمع عيني الآن

نعرف حقًّا أخطاءنا لكننا ننسى نمضي ولا نفكر، وربما تقسو قلوبنا كي يكون العقاب من الله غفلة لا نعرف لها نهاية وضلالًا لا سبيل للهداية من بعده

وفي البداية لا تغتر بما وصلت له من فضل بقدر ما تتمنى أن يمنحك الله الثبات ما أجمل العطر حين تتفتح الورود! وما أبدع القلب حين يتفتح للهداية! وما أبلغها من جائزة حين يرى الله صدقك ليزيدك من بعد الهدى هدى!

جنة قالتها لي حين ودعتني، لم أحرص على لقائها قبل سفري ولا حتى السلام حين هممت بأخذ متعلقاتي من العمل

حين جذبتني قائلة بصوت مختنق: ستتركيننا

نعم أم أمل وسأسافر أيضًا

أتعرفين جنة لكل منا نصيب من اسمه وأنت جنة فاحرصي على أن تبدئي طريقًا يوصلك إلى الجنة يا جنة

رحت أتأمل وقتي وأتذكر الماضي وكيف كنت، لماذا لم يخبرني أحد ليتني كنت

أعرف ليت الغفلة لم تكن طويلة المدى معي إلى هذا الحد، جفت دمعة آثرت الرحيل وابتلعت غصة جعلت قلبي يتألم وأنا أشتاق للماضي للوطن الذي أصبحت غريبة عنه وألوم نفسي، هل كان الضوء كامنًا بداخلي دون أن أدري؟ هل كنت بحاجة لبداية حقيقية هل هي دعوة صادقة لي من قلب محب

يا لجمال الوطن حين نبتعد عنه!

يا لجمال الوطن حين تصبح عالقًا لا تملك خيارًا بالعودة ولا قرارًا بالفراق!

يا لجمال الوطن حين تشتاق لكل ركن وكل حب وكل حنين حول الأهل وبين طيات نسائم الصباح هناك في الرحاب! الآن أفهم كيف يمكن للنور أن يعرف طريقه إلى القلوب

إن الجدة تدير مكانًا خيريًا للأيتام، إن المال ليس عائقًا لكنهم هنا قاسون وخالون مجردون من العاطفة

آثرت التغيير ونزلت للإشراف على الأحوال هناك أحضرت لهم خامات وأعمالًا تسعد قلوبهم، أحضرت قصصًا أردتهم أن يتعلموا القراءة أن يحلموا من خلالها بواقع أفضل حين يتمنون شيئًا لا يملكونه في حاضرهم

أن يكون الخيال دائمًا هو الأمل وأن يكون اليقين أن يتحقق الحلم في النهاية

راقبت هدوء بعضهم الذي يعاني من مرض السكر وآخرون يجاهدون لأنهم خائفون من شيء ما ولا يستطيعون الحديث عنه المأكل موجود أما الإنسانية فلا أردت العلاج

أن أمسك بحبال المعاناة وأحوّلها إلى نجاح أصابني اليأس فترة عزمت على التراجع أضاء في وجهي مشهد المرأة وهي تلف الأحبال مع زوجها في صبر تحت حرارة الشمس وبرد الشتاء، راقبت قوتها وقوة الحبال التي تربط قلبها وضعف قلبي وظللت أحدث جوفي أنه لا يمكن هزيمة نهر بقوة بل ينبغي الاستسلام لتياره واستعمال قوته لصالحي، شاهدت الحب والشقاء وملامح الصبر على الشدائد وحرائر نقص الأموال والأنفس والثمرات، وهم يجعلون عنوانهم المكتوب على جدار القارب... الصبر جميل...

الأمر مؤلم حقًّا لست معتادة على كل تلك المشاعر، المشرفون الأطفال على اختلاف أعمارهم ناصر وجاسر الإعاقات المرضية الرعاية الطبية التي لا تتم على الوجه الأكمل

إلا في وجودي، طفل لفظه الأعمام هزيل حد الوقوع، جسده يشبه القشرة، عظمه زجاجي وعيناه جاحظتان وكأنهما لم تعتادا النظر سوى للخوف، لا يتكلم لا، عائق عضويًا يمنع كلامه، أدركت من نظراته أبعاد المشكلة ورحت أتواصل معه أما هو فلا يستجيب، جلده كثير التشقق كثير القشرة، إنه مرض نادر لا يسمح لأحد بوضع الدواء تصيبه هستيريا غريبة لا يصمت إلا في حضوري، أهدئه، لا أفعل شيئًا سوى مسح يدي برفق على ظهره، يمنحه الأمر سكينة وتظل عينه جاحظة لكن هذه المرة بانكسار ما كانت الدور الأخرى لتتقبل حالات الإعاقة الشديدة أو الأمراض التي تحتاج عناية كبيرة، لم أكن أصمد حين رؤيتهم فأشير بالموافقة على استقبالهم وينصحني القاصي والداني ألا أفعل وأخبر قلبي قائلة لا أستطيع

سميرة تعاني لا تبكي تبدو صلبة تنقلت كثيرًا من دور مختلفة عامها العاشر كان كفيلًا بعدد أعوام الشقاء الدائمة متنقلة، لا تبكي أبدًا صخرة عَظُم بلاؤها بكماء لا تتحدث عن الماضي، ولا يشع من عيناها سوى السخط وترقب الرد متى تعرضت لهجوم

سميرة زميلة العمل في الفندق كانت تبكي وحدها ولم نكن نملك في قلوبنا الخير كي نخفف أوجاع الغرباء ما أشبه حالي مع الصغيرة سميرة ما أشبه وجعي حد عدم قدرتي على المساعدة

ما أشبه كلتا السميرتين وما أضيع حالي معهن دون علاج

علاج كنت أظن أنه سيصرف للغرباء فلا أبذل الطاقة لجعل الأمر أفضل

لكنني اكتشفت أنني أنا التي كنت بحاجة للعلاج

يزيد طفل يملأ الدنيا لعبًا يبتسم حركته لا تهدأ يحبسونه اتِّقاءً لشره أحيانًا أسمع صراخه يخترق الجدار أهرول له ألومهم أحمله وقد زادت تشنجاته أفتش في ملفه إنه يعاني صرعًا ترفض الدار استقباله، لا أعلم كيف أقف لمواجهة إجراءات نقله يقفز ممسكًا يدي مختبئًا خلفي يظنونه مخادعًا يخترع الألاعيب كي لا يغادر يقولون عنه أنه ممثل بارع، ينقلون الأطفال دون وعي من دور لأخرى دون مشاعر يتعاملون معهم كأوراق حالات يصنفونها كتصنيف الدواء والسلع والكتب على الأرفف، يتحول الأمر لعمل دوام ثابت وقت يتقاضون عليه أجرًا بالنسبة لي كان حياة بكاملها، حياة بعثرت ما بداخلي من قلب قوي اعتاد الصمود وكسر صموده رؤيتهم عالقين بي، وكأنني المنقذ

الوحيد في الكون، الأرواح كالطيور تهبط في المكان الذي تشعر فيه بالأمان، لماذا كانت الدار هي الأمان لهم ولي معهم دون بيتي؟ لماذا كان هناك دائماً شيء غير صامد وخوف لا يزول إلا مع عبد الله وحبه المغلف بالرعاية، والهواء الذي لا أشعر به سوى في وجوده

ما بين البيت والعمل لم أعد أجد الوقت، ولم يقفز لعقلي الحنين المعتاد والتفكير في الماضي، الانشغال بالحاضر كان أكثر تواجدًا على المائدة

مائدة اعتدت فيها استقبال الأهل وصنع الرعاية وانتظار وقتي الخاص مع عبد الله

اليوم الأخير نملكه جميعًا نظل نلهث جاهدين خائفين طاردين هذه اللحظة من أذهاننا ربما هو حلم

عبد الله لا يمكن أن يكون رحيلك كهذا ليس بهذه السرعة ولا بهذه الطريقة

شعرت أن أمي قد ماتت من جديد ويومي دون عبد الله تلك الليلة كان طويلًا عظيمًا حد الخوف من كل شيء

لم أكد أفيق من حزني عليه حتى تفاجأت بدعوى للطرد من البيت العمل الخاص الذي تشاركه مع أخيه أمه أناديها الخالة مريرة، لكنها لا تمرر السعادة كمعنى الاسم حين سألتها لكن مرارتها ترياق تظن أنها تمنحه للآخرين نصحًا، قارب العمر مئة عام لكنها لم تكن كافية لتنهل من خير الدنيا، عقل مفرط التفكير درب نفسه على البحث الدائم عن ثغرات والتفكير مرارًا بمرارة حد الإرهاق بينما كنت خائفة وخائرة القوى بعد رحيله وأنا وحدي

طلب واحد مخرج واحد تتركين البيت، أولاده نحن الأوصياء عليهم، عليك التنازل عن حقوقك، لا تفكري ولو للحظة ما يمكننا أن نفعله بك لديك حل واحد

عملك في الدار أصبح ثابتًا لقد تم تعيينك رسميًا بعد الحصول على الجنسية، لا أدري لم كان سعي عبد الله في هذا الأمر دأبًا كبيرًا هكذا

لن يمكنك العيش هنا بيننا لا تنتمين لنا إما أن تتنازلي وإما أنكِ لن تري أولادك مرة أخرى

الجنسية التي كنت أظن أنها ستمنح لي وطنًا لكنها انتزعتني منه فلا عودة ستريح ولا بقاء لنواصل، وبين كلا الأمرين كانت روحي محطمة برحيل عبد الله

عملي في الدار أصبح ثابتًا وفروا لي سكنًا فوقه المتابعة والإشراف على الرعاية

أصبح يشغل كل وقتي تركيزي واهتمامي، عبد الله كان حاضرًا دائمًا في عقلي سألت نفسي عن هذا الحب الذي كان هدية وعن انكسار قلبي بعد رحيله

وجدت العلاج

في الدار تحمل الأحزان رياحها تذهب بعيدًا مع كل طفل يتم شفائه

مع كل قلب يلتئم ومع كل جرح نجيد فتحه وتنقيته وتنقيحه مهما كان عظيم الأثر بتر الجروح أفضل من تسكينها، إنها تعطينا الأمل تجدد الفروع وتمنع بتر كامل القلبِ ثم يأتي العلاج النفسي يسهم دون تخطيط مني في جعل نوبات الصرع تقل ترفع الثقة ويبدأ التحسن، من قال لي ذات يوم أن جبر الخاطر أعظم عبادة؟ من قال إن الخير قبس من نور لا نملك تفاصيله حتى نعيشه

من قال إن الجنة لا ندري أي عمل يقربنا لها

كنت أتمنى حقًّا عبد الله أن ترى السعادة التي أحياها، أن ترى النجاح ليس شيئًا ننسبه لأنفسنا بقدر حياة نرى تفاصيل نجاتها ونجاحها على الأرض

أخبرني عبد الله هل كان اللقاء لقلبينا مقدرًا من أجل هذا الأمر

هل الحب مرساة حديدية كي تربط قلوبنا هكذا

هل كان مشهد القارب هناك تحت أشعة الشمس كفيلًا كي أصمد كل هذا الوقت دونك، هل كانت الحياة ليصبح لها لون دون أن أعرفك؟ ما الذي صنعته بي يا عبد الله؟ ماذا صنع رحيلك؟ وضعت أركان هذه الدار لتتركني فيها دونك لكم كنت ميتة دون هذا الحب! كيف أبقتني هذه المشاعر حية مع كل استقبال وخلف كل وداع وتحت كل حلم يبدأ كنبتة ثم يزهر مع الصبر، الصبر عبادة عظيمة يا عبد الله ربما أخبرتني رسائل عينيك مرارًا الإجابة ربما كانت الرسائل واضحة جلية

ما الرسالة التي انتقلت من قلبك لقلبي يا عبد الله؟

ليس المهم هو أن تفهمها الأهم أن تعيها بقلبك لأن الحياة رسالة يا عبد الله

والسعادة رسالة الظلم رسالة محاولة البقاء على قيد الحياة رسالة مساعدة الغير رسالة القلوب اللينة رسالة والقلوب القاسية رسالة وأنت يا عبد الله أجمل رسائلي سأكملها حتى النهاية حتى آخر قطرة من قلبي حتى الموعد

هناك هناك في الجنة..

الصنف الرابع

دائمًا كنت أحب الشتاء، انخفاض حرارة الصيف وقسوته التي لا يروي عطشها سوى مشروب بارد من يد زوجي أو كوب من المثلجات اعتدنا شراءه معًا يخبرني أنه يعيش معي سنوات العشق وكأننا مراهقان ينشدان الحب، وأذكره أنا بذاك العدد الذي مر علينا معًا آه ما أروع الشتاء! وما أجمل هذا المشهد! وما أرحم تلك الشرفة التي جعلتني أطل على العالم! فأختبر جمال هذا المنظر الذي يروي ظمأي شوقًا لأمي وسريري الطبي الذي لا أغادره لكن لا بأس من أجله يهون كل شيء

إنها المرة الثالثة قاسم لا تقلقي أشعر أنها ستنجح، قلبي مطمئن، الأهم هو أن ترتاحي، اتركي أمورك وتوكلي على الله انتهت الزيارة وعدت بعيني إلى الشرفة كان غيم قد حل واختفت خيوط الذهب خلفها وزين الأجواء سقوط الثلج، إن الكرات صغيرة وجميلة هذا المشهد لن يتكرر، إنني لا أراه هناك في السودان انخفاض الحرارة وانغماس الجسد في سرير دافئ، نعمة يفتقدها أولئك الذين هم بلا مأوى ولا أحلام

كم كنت أتمنى لو كانت أمي معي الآن وهي تعد لي كوبًا من الشوكولا الساخن ونتحدث معًا عن أخبار الخالة وأوقات الذكرى وأعتاب الماضي آه أمي مؤكد أنك تدعين لي، أشعر بهذا الأمر وأشفق على أبي أيضًا، إن دموعه عندما ودعني في المطار أقلقتني عليه كثيرًا برغم أنني لن أجلس هنا كثيرًا أدرت جهاز التلفاز وأمسكت بجهاز آخر، حركت سريري ثبّته على وضع يريح جسدي لكنه لم يرح قلبي وأنا أفكر في كل أولئك الذين لا يملكون مالًا لعلاج أوجاعهم ويطحنهم الفقر بحثًا عن مكان في مشافٍ فقدت كل ما يمكن للآدمية أن تتصف به، أخفضت الإضاءة والتفت إلى سرير نافذتي ثانية، أردت النوم ورحت أحدّث نفسي عن وصية قاسم لي بالهدوء وانتظار النتيجة غدًا، نتيجة الحقن المجهري الثلج ما زال يتساقط من الواضح أنه سيشكل لونًا جميلًا على المداخل وفوق السقوف وبجانب الأرصفة وعلى الأشجار سيكتسي كل شيء غدا باللون الأبيض

سؤاله الأول لي أي الألوان تحبينها احمرّ وجهي وأصر هو على الإجابة عوضًا عني مؤكد أن لونك المفضل هو الأبيض، لا، ما أدراك أنتَ بذلك؟

إن لوني المفضل قاطعني قائلًا إنه الأبيض صدقيني أنا أعرف أجبته بتعجب وهل تقرأ الأفكار؟ لا لكنني أعرف تمامًا أن مثلك يملك قلبًا صافيًا يشبه بياض الثلج

كان قاسم يتحدّث عني، لكنني ما شعرت يومًا على مدار كل تلك الأعوام بقلب يشبه قلبه وحنانه

آه كم أتمنى أن ينشرح صدرك غدًا وأن أغدو بعد تلك العملية حاملًا

إن عشر سنوات مضت بين أصناف الدواء وآراء الأطباء من الشرق والغرب ومحاولتان وتخاذل تحمله ويعتصر قلبك مع كل فشل، وتذكر دائم بحكمة الله ورحمته تجعلك تصبر تقف على قدميك من جديد وتحاول

دائمًا ما كانت تخبرني ليلى أن الأمور التي نريدها بشدة لا نحصل عليها في النهاية وأن تلك الأمور التي ننساها أسهل في التحقق، ربما كانت ليلى محقة لننتظر لأنه لا شيء نملكه سوى ذلك

نعم سيد قاسم أحيطك علمًا بأن نتيجة التحليل ستصلكم في غرفتكم، تفضل وسنرسل لكم بياناتكم الخاصة إنهم هنا في الغرب منظمون وخالون من المشاعر

كان قلبي يخفق بشدة عندما رأيت قاسم ولا شيء على وجهه سوى القلق هل عرف؟ هل أخبروه؟ ماذا حدث؟ فليكن ما يكون، المهم أن أعرف لم أعد أحتمل، احتضن وجهي بكفه ثم همس قائلًا: لا تقلقي لم تظهر بعد سيرسلون لنا الأخبار إلى ذلك الحين فلننتظر

أمسكت رأسي دون جدوى حين سبح في خيالي كل تلك المرات التي كنا نترقب فيها النتائج ويستعد قلبي لطعنة قاتلة حتى قرعت الباب الممرضة، إن لكنتها الفرنسية لا نستوعبها لا نعرفها، أما هي فما زالت تتكلم وكأن الزمن عندها قد توقف على ماذا ستقول

سلمى مبروك أنت حامل، لقد تحقق حلمنا غاليتي، سيغدو في عالمنا وليد صغير سيحمل اسمينا في شهادة واحدة وسأصنع له وليمة كبيرة عليك أن ترتاحي وسنرتب طبقًا لتعليمات الطبيب رحلة عودتنا إلى الوطن

لم أتمالك نفسي من السعادة، ما أجمل هذا الشعور! حمدًا لله على عطائه وقضائه في الصباح هاتفت ليلى أختي لم تصدق قائلة ليتني يمكنني الطيران كي أقبل جبهتك مبارك حبيبتي اعتني بنفسك حتى تعودين، ناولت الهاتف لقاسم كي يتحدث مع حسان أخيه زوج ليلى فنحن أختان تزوجنا أخوان ليجمع الله شملنا جميعًا كأسرة واحدة في بيت كبير قلوبنا فيه متآلفة متعانقة

أسندت رأسي على الوسادة وظللت أرقب النافذة إن تساقط الثلج ملهم حقًّا إنهم يصنعون منه أشكالًا جميلة يمنحون قبعات مبهرة لرجل الثلج شاهدت هذا الأمر كثيرًا في التلفاز وفي أفلام الكرتون الطفولية يجعلوهم يبدعون ويضحكون من قلوبهم حين يلمسون تغييرًا حقيقيًا يصنعونه بأيديهم

لكن لا لن أجعل فارس يمكث كثيرًا أمام هذه الأفلام، لقد قرأت عن هذا الأمر في كتب التربية إن هذه الأمور تؤخر الذكاء وأنا أريده شابًا متميزًا وافر الفطنة ومتقدًا

نعم سنصنع معًا عالمنا الخاص وسنملؤه بالحكايا والقصص

لَمْ يُتَحْ لنا الوقت لتفقد شوارع باريس ولا زيارة أماكنها التي نسمع عنها، لكن لا بأس سنفعل معًا كل شيء فيما بعد، إن بيتنا صغير وغرفته ليست كبيرة إن مساحته محدودة على كل تلك الأشياء التي سأحضرها، مؤكد أن قاسم سيعترض على الألوان وربما سأحضر أيضًا سريرًا للأطفال صغيرًا، لا أنا لا أوافق على هذا الأمر ما نفع إحضار سرير صغير سأحضر غرفة كاملة تصلح لشاب، إن الأعوام سرعان ما تمر ولا أريد إهدار كثير من المال سيكون فارس بحاجة لكل قرش من أجل تعليمه، نعم يؤسفني ما أنفقته حقًّا يا قاسم، كل تلك المعامل والأجهزة والعيادات الطبية لكن لا بأس لقد أراد الله لهذا الأمر أن ينجح، ضممت يدي لقلبي ودعوت الله من أعماقي أن يمر الوقت سريعًا كي أراه بين يدي، كانت ليلى قد أنجبت ثامر، كان مشاغبًا منذ صرخ صرخته الأولى، ما أروعهم حين يولدون! يملكون جمالًا يأخذ العقل ويسرق الفؤاد، أنوفهم وأفواههم أعينهم لؤلؤ، أما صرخته طلبًا للحليب تجعل تأملك فيه يتحول لتوتر كي تسكت هذا الكائن الصغير ولا يصيب عينيك النوم، ولا تملك للراحة نصيبًا ويتلاشى كل هذا أمام أول ضحكة وأول كلمة، أمي ما أروعك ليلى! لقد كنتِ دومًا بجانبي أبنائك ولدوا صغارًا على يديّ وضممتهم لقلبي قبل صدري

يا الله سأصبح أمًّا وسأستمع لكلمة أمي

سلمى ما بك؟ تبدين كمن لم يتذوق النوم، أنا هنا منذ العاشرة، حاولت إيقاظك لكنني فضلت القراءة، ومضى الوقت، إنها الرابعة عصرًا ما بك؟ لِمَ كل هذا الوقت؟ مؤكد لَمْ تنامي منذ تركتك البارحة آه كم أنتِ عنيدة، لِمَ لَمْ تستريحَي كما نصحتك؟ لَمْ أستطع قاسم أكاد أطير فرحًا أريد لهذين الأسبوعين أن يَمرّا سريعًا، لقد اشتقت لأمي كثيرًا وأبي وليلى وأولادها، أشعر وكأنني مكثت أعوامًا لا شهورًا

لا بأس حبيبتي الأهم هو أن ترتاحي لا تقلقي سيتم كل شيء كما تتمنين في المطار استقبلنا جميع الأهل وبدا لي أن الكون كله قد استعد للترحيب الأحبة الذين يحملون في قلوبهم حبًا آسرًا ويؤثرون على أنفسهم هؤلاء نعمة من الله يبتسمون لفرحك ويبكون لانكسارك ويجعلون أوجاعك تندثر إلى صندوق النسيان يجيدون إغلاق الجروح وتهدئة أنات الهم يحتلون الصف الأول بجدارة في عالمنا ودعواتنا

كان الجميع معي في البيت كل منهم قد احتل موقعه تسلم الطهي صنع الطعام كي الملابس وكنس البيت مواعيد الدواء، إنها كثيرة جدًا، المثبتات والحقن بينما استسلمت تمامًا لما يأمرونني به دون أدنى تعليق مني سوى حاضر أمي حاضر أبي

مر شهران وأحلامي على سريري الطبي في فرنسا كانت تشغل بالي كل ثانية وكان الانتظار وحده جبلًا لا يتلاشى حتى وجدت في صباح اليوم التالي سريري وملاءتي كلها مكسوة بالدماء، انتقال للمشفى الطبي غرفة العمليات وشيء واحد فقط نأسف لقد حصل الإجهاض لم يصمد الجنين لا شيء يمكننا فعله

توقفي سلمى هذا يكفي أمي لكن سلمى لا داعي للحزن، أبي سلمى حبيبتي هذا شيء ليس بيدك، كلاكما أنتِ وقاسم لم تتوقفا عن المحاولات والدعاء، لا تعلمين ما هو الخير كانت ليلى قد عقدت العزم قادمة لأمي وهي تقول أمي هناك خبر أريد إخبارك به تكلمي ليلى ما الأمر ما عادت أعصابي تحتمل

أمي أنا حامل ولا أريد هذا الطفل أريد الإجهاض لَمْ أعد أحتمل أمر تربية طفل آخر، عندها انفجرت في البكاء ولَمْ تحتمل أمي ما بكما أنتما الاثنتان واحدة تريد الإنجاب وفعلت كل شيء ولم يرد الله، سلمى ما فائدة البكاء على ما سكب؟

وأنتِ لا تريدين أطفالًا آخرين لترتضِ كل واحدة منكن بنصيبها، انتهى الأمر لا

أريد سماع هذا مرة أخرى لتنصرف كلتاكما

ثمة أمور لا يمكننا تغييرها أجاب أبي وهو يستمع لثلاثتنا

قلبي يبكي أبي أنا حقًّا حزينة جدًا أبي لا أعرف ماذا أفعل أنا أتمنى أن أكون أمًا أشتاق لتلك اللحظة التي أضم فيها طفلي وأرضعه أحلامي يا أبي عنهم ونواياي التي وضعت زوايا قواعدها من أجلهم كيف يمكن لتلك الأحلام أن تتلاشى كيف يمكنني أن أتخلى عنها يا أبي أخبرني

بل أخبريني أنتِ سلمى وجففي تلك السحب لطالما أخبرتكِ أنكِ تملكين عينا أبيك

يا غاليتي إن الله قد خلق من الناس أربعة أصناف

أربعة أصناف ماذا تعني أبي

خلق من يهبه الذكور ومن يهبه الإناث ومن يهبه الذكور والإناث ومن يجعله عقيمًا

هذه سنة الله في هذا الكون سلمى سلمي أمرك لله واعلمي أنه سيجبر كسر قلبك

صدقيني سلمى كلنا نعيش تحت السماء ذاتها لكننا لا نرى الأفق نفسه فكري في الحكمة من الأمر

لقد أخبرني قاسم أنه سيغادر للخليج وأن ثمة عقد عمل جيد له هناك عيشي حياتك سلمى ولا تتألمي وتأملي الخير ولا تتوقفي عن المحاولة لا تيأسي ولا تستسلمي ولا تحزني فقط أغلقي عينيك واجعلي الرضا يملأ قلبك حاضر يا أبي حاضر

كان قاسم قد أعد أوراق السفر ولم يتبق على موعد ولادة ليلى سوى أيام سأمكث معها حتى ترتاح لكن لا أعلم ثمة شيء يدور بين ليلى وأمي وأشعر أن قاسم أيضًا يعرف أنهم يخبئون عني شيئًا حقًّا ما هو لا أعلمه

أمي نعم ليلى سأعطي ولدي القادم هذا لسلمى لتربيه كابن لها لم يعترض حسان أيضًا وسنسميه فارس كما كانت تتمنى

ماذا تقولين ليلى هذا أمر من الممكن أن يجرحك ويجرح سلمى مستقبلًا فكري جيدًا قبل اتخاذ تلك الخطوة أمي فكرت مليًا وحسان شجعني على الأمر سيدخل هذا الأمر السرور على قلبها اتركي الأمر لي لكن ليلى أبوك

أمي اتركي أمر أبي وسلمى لي سأمهد للأمر

أمي ما بكما أعرف كليكما حين تجتمعان على أمر ما لقد قررت ليلى أن تمنحك فارس كي يعيش معك فلتكوني أمه وخالته وحبيبته وصديقته

ماذا تقولان يا إلهي كيف يمكن لهذا أن يحدث أنا موافقة حقًّا بالطبع موافقة

لكن سلمى ما الأمر أبي لا أخفي عليك أنني خائف من المستقبل ولا أريد لأي منكما أن يخسر أخاه ثم إنني أريدك ألا تتوقفي عن محاولات العلاج والحمل إن حدوث حمل مرة يجعل الأمر قابلًا للتحقيق ثم إن هناك أمرًا آخر يقلقني ماذا لو كبر وعرف وقد تعلقت به واختار أن يعود إلى أمه مرة أخرى

لا أطيق فكرة أن ينكسر قلبك بنيتي

ترقرقت الدموع في عيني قائلة لم تناديني بنيتي منذ زمن أبي

حبيبتي الصغيرة لم تكبري أبدًا في عيني سلمى ما زلت صغيرتي التي أشتاق لها كلما غابت عنى لا تزعجيني بالفراق إن مخاوفي عليك لا يمكنني تحملها ماذا لو أنجبت يومًا ما سلمى وأصبح لك أبناء كيف سيكونون هم وفارس؟ إن الحديث سهل بين لكن الواقع قد يتسم بعد ذلك بالصعوبة لا تقلق أبي إن الله الذي آخى بين المهاجرين والأنصار قادر على أن يؤاخي بين أولادي وبين فارس لا تحزن أبي ولا تكن في ضيق، اجعل لي من دعائك نصيبًا دومًا في صلاتك وقيام ليلك وصيامك

لا ترهق نفسك أبي لَمْ يكن هناك داعي لإيصالي إلى المطار لا تجعلوا عيونكم المرهقة هذه تلاحقني، إن فراقكم أمر صعب أجدت لف فارس جيدًا يبدو وديعًا جدًا أعطتني ليلى لبنه الخاص وحقيبته، إنها ممتلئة بأشياء كثيرة سأحضر له كل ما يريد من هناك ترى كيف سيكون رد فعل قاسم

أمسك يدي منذ دلفنا إلى غرفة فارس لقد أعدها بأشياء تكفي لعمر كامل لا فترة محددة ثم ضمني إلى صدره وأنا أبكي قائلًا لا تحزني سيكون كل شيء على ما يرام إنه فتى ذكي لا تقلقي عليه إنه هنا في رعايتنا كوني مطمئنة اعتدت وجود فارس صخبه وابتسامته وبكاءه عند بكائي إنه لا يطيق رؤية دموعي، إنها المرة السابعة عشر للمحاولة ولم يفلح الأمر حتى توقفت

لا أعلم أمي لِمَ تبكين إن الأمر ليس صعبًا إلى تلك الدرجة، اصبري قليلًا حتى أكبر سأحضر لك مَن المتجر طفلًا صغيرًا كما تتمنين سأكون قد كبرت ومعي مال لن

أشتري بيتًا ولا سيارة سأشتري سعادتك التي تتمنيها مع كل مرة تغادرين كما تخبرينني لإحضار أخ لي من المشفى وتعودين بعدها مرهقة وعيناك دامعة

أطلت الانتظار وأراك تتألمين، جففت دموعي وضممته، اعذرني فارس لم أكن قوية بالقدر الكافي كي أخفي عنك أوجاعي

لماذا أمي تريدين طفلًا آخر، لا أريد لأحد أن يلعب معي، لقد منحني الله أصدقاء رائعين، أنا لا أريد سوى أن أراكِ سعيدة، يبدو أن حبيبي الصغير قد أصبح رجلًا نعم أمي أترين لقد ازداد طولي عن الشهر السابق أترين أنّني في السابعة من العمر فارس نعم أمي أنتَ تعلم كم أحبك نعم أمي أعرف وأمي ليلى وأبي حسان كذلك

ترددت قليلًا قبل أن أخبره، لكنه قاطعني قبل أن أكمل ما كنت لأختار غيرك، يقولون إن الحب لا يتجزأ وأن الذين ولدوا بلا أمهات كثيرون، فكيف بي وقد أعزني الله بكما، لا يمكن للمرء أن يملك قلبين كي يحب، كنت أكثر حظًا كي أملك أمين

ربما أمي أنتِ بحاجة لنظارة جديدة، نعم أمي إن أسامة صديقي أخبرني أنه منذ وضع نظارة جديدة أصبحت كل أموره أفضل، أخبرته أمه أنه سيرى العالم أفضل من خلالها، وسيختفي ألم الرأس وإجهاد العين، أخبرته أنه سيصبح أفضل بعد ارتدائها وأن كل ما كان يقلقه من أوجاع ستندثر ربما سيتغير الأمر حين تحضرين مثلها

صدقيني أمي إنها نظارة سحرية لقد تحول أسامة، أصبح يضحك كثيرًا وقدرته على الانتباه في الدروس ومع المعلم تنامت كالزهور، إنه يبدو فرحًا ويخبرني أن أمه أخبرته بكل تلك الأمور الرائعة، التي ستتغير في حياته، وبكل السعادة التي ستملأ قلبه؛ لأنه سيصبح مميزًا في الفصل والدرس والحياة

أخبرني أن نظارته السحرية جعلته يضحك والألم من عالمه وعالم أمه قد اختفى إلى الأبد إنه لَمْ يرَ أباه وأخبرني كثيرًا أنه يحب أبي قاسم؛ لأنه يهذب شعره ويهندم قميصه في حنان، إن صداقتنا خلابة أمي، وأخبرني هو بسره الصغير عن النظارة وعدته أنني لن أخبر أحدًا لكنني لم أستطع مقاومة رؤيتك تعيسة، أخبرته أمه أنها كانت حزينة في الماضي وأن والده منذ سافر إلى الله أصبحت بدونه قلبها محطم لكنها استمعت للنصيحة

لا أعرف أمي من أين يمكنني إحضار مثيلتها لك ربما عندها سيصبح العالم أفضل في عينيك

نظارة جديدة كان فارس محقًّا ربما لم أملك نظارة السعادة النظارة السحرية، صمتت قليلًا وقد بدت لي رنة حزن في صوت فارس أجدت رؤية الأحزان دائمًا من خلف شرفتي وشرعت أحول دفة حياتي بأكملها نحو هدف جعلني تعيسة وبائسة، لِمَ لَمْ أفكر بالأمر بهذه الطريقة؟ الصنف الرابع الذين خلقهم الله لحكمته ومشيئته

ويجعل من يشاء عقيمًا

أبحرت دومًا نحو جزيرة ظننتها ممتلئة بالأحلام، ولم أرَ حقيقة الأزهار حولي، ليلى أبي أمي قاسم وفارس، الانتظار المتكرر في المشافي وعلى الأسرة قتلني حزنًا لأنني لَمْ أستطع أن أكون أما ترقب الأشهر وسحب العينات وألم الخزع والزرع، أجاد قاسم منحي هدايا وكتبًا وخبرت من خلالها وعبرها مرورًا للوقت، أجدت قراءة تلك التي تتحدث عن الأبناء، تعليمهم مهارتهم تنمية ذكائهم وصنع مأكولاتهم المدعومة بالطاقة، والبناء لكنني أهملت تلك الأخرى في الجانب البعيد ولفظتها إلى آخر الرف، تلك التي تتحدث عن السعادة عن الرضا وعن عدم الاستسلام، كم كنت مخطئة! أمضيت نصف حياتي وأنا أحاول رسم صورة قلبي وحياتي في شيء أرغبه بشدة ولم يكن مقدرًا لي وأهملت تلك الهدية التي بعثها الله لي وتلك القلوب التي سخرها من أجلي

أوه ما هذا أمي، لقد فعلت كما أخبرتك أجبته نعم إن نصيحتك ملهمة خلاقة حقًّا أحضرت نظارة جديدة وسأخبرك سرًا إن الأمر ينجح أتعلم أنني أرى أباك قاسم مختلفًا منذ وضعتها وأراك أيضًا قد كبرت، ثم همست له سيكون هذا سرنا الصغير فارس

النظارة أعطتني الفرصة كي أغير حياتي وأعيد ترتيب حساباتي أريد أن أرى خفايا العالم من خلالها

أبي كم يشتاق لي إن ابتعادي عنه في أوقات الغربة تجعله أكثر شوقًا

لا أكاد أضع حقائبي حتى يمسك بي ويخبر زوجي أن يجد لنفسه مكانًا للتنزه دوني اجلسي هنا سلمى ما بال زوجك هذا أريدك معي سنقضي الوقت معًا دعينا نصنع الفطائر كما في السابق سأصطحبك للتنزه سيكون وقتنا مثمرًا لكن أبي فقط أريد الذهاب لمصيف لتغيير الأجواء، إن قاسم أعد لنا يومين فقط للتنزه وسأصحب ليلى وأولادها معي، أجابني باستغراب وكأنني أتكلم عن شخص غريب

قاسم من قاسم هذا؟ هه أخبريني من هو؟ هل هو أهم من أبيك؟ اجلسي معي

هنا هذا الآخر اجعليه يذهب لنزهته، ألا ترين كم أن الجو يصبح ربيعًا زاهرًا وأنا وأنت معًا دونه، ضحكت من كلماته فأردف قائلًا: ألا تريدين الجلوس معي أبي ما هذا؟ يكفي أنك تعيشين في الغربة، همست لي أمي هيا اذهبي سأتولى الأمر أنتما ماذا تفعلان إلى أين تغادرين؟ يومان فقط لا أنا غير راضٍ عنك يا سلمي، جذبتني أمي هيا اذهبي وأنتِ ما بالك والله لو لا رجاحة عقل قاسم ما قبل بمثل هذه المعاملة، تبسمت وأنا أغادر مسرعة وعزمت على إحضار هدية قيمة عوضًا عن الوقت الذي قضيته بعيدًا عنه

راقبت فارس ليلى حسّان وقاسم، راقبت الموج يداعب وجوههم ضاحكين حولي، وراقبت حياتي بأكملها، راقبت حزني وأملي ولحظات تعاستي وأنا أرقب حلمًا وأعلق عليه أمنياتي، راقبت الحب في وجوههم ورأيت الماضي يرحل مع الموج تاركًا الشاطئ عائدًا إلى جوف البحر البعيد بعدًا أردته بقدر قرب تمنيته، وأنا أسعى خلف حلم ليس من قدري، رأيت طمأنينة تلهمني عمرًا كاملًا من الرحمة والشكر

إن فارس ينمو يشتد عوده، أخبرته أن يربط قلبه بالوطن، أن يبذل العلم والجهد كي يصنع نهرًا يمتد أثره شريانًا عظيمًا من العطاء أردت أن يرتبط قلبه بقلبي دون انتزاع

أمي إن العروس جميلة متعلمة متقدة ممتلئة بالأمل إنها تريد الهجرة، البدء بحياة جديدة بعيدة عن الوطن

لم يكد يكمل حتى مرت سحابة عظيمة كادت أن تقسم ظهري لم أشعر سوى بيد تلامس رأسي وقبلة تنطبع على جبهتي مكملًا وطني هنا بجانب قلبك أمي

إن خالد لا يكف عن البكاء يصرخ دائمًا طالبًا للحلوى باحثًا عن كل جديد في عالم الألعاب والدمى، لا يكف قاسم عن إحضار الحلوى ولا أتوقف عن حثه على التوقف

تبهرني هنا دومًا بألوانها المتنوعة لا ترى في الحياة شيئًا سوى دفاتر الرسم وأحلام صنع حياة على أوراق بريشة موهبة منحها الله إياها

يعاتبني طه منزعجًا من رفض أبيه للعبه كرة القدم، يرسل رسالة قوية لجده قاسم يخبره معاتبًا: ها جدي أليس لك كلمة على ابنك فارس هذا؟ كيف يمكنه أن يمنعني من كرة القدم بحجة شيء اسمه الدراسة، كيف يمكن ألا يسمع كلامك ها أخبرني

لا بد أن ناجي قد أخطأ خطأ فادحًا، أخشى أنني لن يكون لدي حجة لقولها في المدرسة، أعرفه مشاغبًا وهو يلجأ لي كي لا يعرف والده عن أخطائه الفادحة ويفلح

شعري الأبيض وكبر سني في جعل الجميع في المدرسة يساعده

نورة الصغيرة ذات العام الأول لا تعرف مكانًا في الكون يمكنها النوم فيه سوى بجانبي، فتصنع بجسدها وقدمها حركة عملاقة فلا يهنأ لي نوم حتى اعتدت وجودها وقد استسلمت في نهاية ساعات الصباح ليد صغيرة تحتضن قلبي برفق

أولاد فارس قد أضاؤوا عالمًا بداخلي أشعلوا نورًا امتد أثره، أنا التي كنت أخشى الوحدة وأهم قائلة لكم من الوقت سأظل وحيدة وكيف سأموت على سريري دون جوار من أنس الولد وزينة الدنيا

لا يخلو يومي من تناحر الصغار وفك خلافاتهم والحصول على بعض الراحة المؤقتة الممزوجة بالضحك يتعالى صوت أبي إلى مسامعي، حديثه عن مشيئة الله، عن الصنف الرابع عقيمًا بلا أولاد، وعن مشاعر الرضا متى تمكنت من قلوبنا بقرار

ستحصدين السعادة سلمى أضعافًا لكل منا إشارة شرارة ما محظوظون من يلمحونها والأوقع حظًا من لا يدركونها، ستملكين وطنك هنا في قلبك ستبتسمين ضاحكة على كل أوقات الماضي وستكبرين ملء الكون لا وحيدة ولا بعيدة، لن تملكي الوقت فرحًا معهم ستكبر عائلتك وستنمو معها أحلامك وأفراحك وستعلمين رسالة الله التي وضعها في قلبك ستشملك رحمة الله حتى لو كنتِ حبيبتي من أصحاب

الصنف الرابع

الباب الخلفي

أنت ولد صغير ضعيف طموحاتك صغيرة ومتضائلة تمامًا مثل أمك، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ أمي أرسلتني إليك يا أبي

لا تقل أبي لا أريد سماع تلك الكلمة منك، لم تحتمل وجودك هه، أرأيت كان زواجي منها غلطة كبرى، يا إلهي ما أشد قبح وجهك أنتَ تشبهها كثيرًا!

لا أريدك هنا اذهب إليها، عد لها مجددًا أنتَ تثير استيائي بوجودك، لا أريد أن أصحو من نومي لأنظر للماضي من خلال عينيك

تدخلت الخالة فهيمة اذهب من هنا عبد الرحمن اذهب الآن

ما بك؟

لا أريده هنا فليعد من حيث أتى إن رؤية وجهه تكدر صفوي

لكنه ابنك حتى ولو لم تحب أمه حتى لو كان للماضي أوجاع بينكما ليس له ذنب

والله إنني لأتعجب منك أنتِ زوجة أبيه توصينني عليه يبدو أن الأحوال قد عُكستْ أمه نفسها أرادته بعيدًا عنها

أخبرته أمه بعنواني في ورقة وأوصلته مع أول قطار من صعيد مصر إلى قاهرتها أرسلته لأنها لم تعد تريده، أخبرته أنها ترغب في الزواج وأن وجوده سيعيق حياتها، هي تريد الحياة وأنا أريده خارج حياتي، لكن سالم يمكنُه المكوث في أي مكان بالدار لن تراه، أعدك لن يشكل وجوده أزمة أؤكد لك

ما بالك أنتِ الأخرى ألن تطيعي أوامري؟ تنحي جانبًا، أنت اخرج خارج بيتي لا أريدك هنا لا أريد رؤية وجهك أيها الضعيف، ابتعد ولا تخطُ بقدمك هنا مرة أخرى اذهب إلى أمك أو عش بعيدًا عن عالمي، عالمي بدونك أقرب وأفضل

سنواتي عشرة، ووجهي كما يصف أبي، كلاهما محق لكن لماذا؟ لماذا تشكلت سحابة الوجع في قلبي هكذا؟

لماذا تبكي خالتي فهيمة؟ لا أعلم، لكنني منذ وصلت وهي تجيد معاملتي، إنها تحضر لي الطعام وأشعر في عينيها بحنو غريب، حنو لم أشاهده قبل ذلك في عيونهما حين كنت أقف بينهما، في كل تلك المعارك التي لا يصيب قلبي منها إلا الخوف، لم أعرف يومها كيف يمكن لاثنين أن يتزوجا، لكن صديقي أخبرني أن الحب هو ما يجمع القلوب وأن الكراهية هي ما يفرقها

أخبرني وهو يقذف بي خارجًا اجمع أغراضك وامضِ لم أملك يومًا أغراضًا لم أملك سوى ملابسي، أغادر دون وجهة منذ صعدت إلى القطارَ في الطرف البعيد أقسمت على عدم العودة لها أو محاولة رؤيتها ولم تبدِ هي اهتمامًا أو حنينًا لكن الأمر اختلف، لم أقسم بعد خروجي من بيت أبي إلا أن أعود، ربما عينا الخالة، ربما وصيتها لي ووعدي لها أن آتي إليها وقت الاحتياج، ربما رقة قلبها، خشيت عليها فقلوبنا الرقيقة هي ما تجلب لنا الأذى في النهاية لا تقلق عبد الرحمن سأكون بجانبك لا تبتعد كثيرًا

البيوت وجدرانها مهما كانت متآكلة بسيطة وعفوية لكنها تشكل الحماية، أفتقد البيت ودفء سريري ووسادة أحلامي لرأس محمل بالشقاء، أما أنا فكنت خائفًا خائفًا جدًا، أدرت ظهري وودعت حلمًا بالسكن والسكينة واستقبل قلبي خوفًا، الشوارع

باتت أوسع، المباني أعظم، اخترت كرتونة نظيفة افترشتها سريرًا وأحكمت التمسك بها وكأنني أملك كنزًا ثمينًا بينما يحتل محل للبويات موقعه خلفي وليل طويل

يخبروننا دائمًا أن النوم نعمة وأن أولئك الذين يصيبهم أرق السهد والسهر ينفقون أموالًا طائلة على الحبوب كي تساعدهم نومًا على أسرتهم الناعمة أدركت منذ أول يوم أن هذه نعمة وأنني قد اعتدت كنزيَّ؛ فراشي ووسادتي

أخبرني العم مصلح أن العمل يتطلب الأمانة، وأنه سينظر في أمري وسأكون محط اختبار، رص البضاعة، حصر الوارد، ترتيب المخزن، والأهم حراسة المكان وقت الغياب

لم يسألني عن السبب ولم أتطوع أنا الآخر لإخباره، لكن مكاني أمام دكانه كان قد أصبح بيتي ونصف جدار كان كفيلًا برد الأذى عني ولو قليلًا

عبد الرحمن نعم عم مصلح

اعلم يا ولدي أن لديك شيئين لا يمكن لأحد أن يسلبك إياهما؛ عقلك وأحلامك هذان جوهرتان، فلا تجعل الحياة مهما كانت قاسية تفقدكَ إياهما، أخبرني ذلك ثم تغير وجهه فجأة وكأنه قد نسي ما أخبرني به وهو يشير لي بإكمال الفتح والبدء في ممارسة عملي من جديد

أنت... أنت

من أنا؟ نعم أنت، هل تعرف من أنا؟ أنا سيد، ماذا تريد؟ لا أريد شيئًا أخبرني كم من الوقت تمكث هنا؟ ولماذا لا تختلط بنا؟ سمعتهم ينادونك عبد الرحمن، إنك لا تكاد تبرح مكانك، العالم أكبر من أن تظل هنا، الشارع كبير والحياة أكبر من سريرك الكرتوني ووسادتك الصغيرة، لا أريد شيئًا، ثم إنني سعيد هكذا ما شأنك أنت؟

الحق عليّ أتدري كنت أريد صنع جوٍّ من السعادة لك أنتَ الخاسر صدقني

لا أريد سعادتكم أنا هكذا مطمئن، صدقني كي تعيش لا بد لك من سند ظهر كبير الحياة مفجعة ولم تلتق بقسوتها، أجبته سندي في هذه الدنيا هو الله الله وحده، اعتياد النوم في الشارع لم يعد مؤلمًا ومخيفًا، ومع الوقت بدأ قلبي يصبح أصلب أما إرادتي فلا

طريق عودتي لبيت أبي كنت أقطع نصفه ثم أغير وجهتي قائلًا لن أعود

لا يمكننا اختيار مكان مولدنا لكن بإمكاننا اختيار مكان إقامتنا وموتنا

الخالة فهيمة لم تكف عن إرسال المال لي من وقت لآخر إرسال أكل، إنها في الطبخ ماهرة، لم أستطع شكرها لكنني في قلبي دعوت لها كثيرًا، وفرحة الأعياد كانت كفيلة بتلبية دعوة سريعة على العشاء لا أمكث بعدها كثيرًا

راحت الخالة تسألني عن أحوالي وتضع لي مزيدًا من الطعام تخبرني أنها حزينة لعدم ذهابي إلى المدرسة ثم تختتم نصحها لي قائلة: عليك أن تتعلم حرفة يا عبد الرحمن أنت ذكي وستبلي حسنًا في أي مكان تكون فيه

ضوء ما أنار رأسي، غادرتها مودعًا من باب خلفي فشعرت يومها أن أبي صلفه وصلابته وغروره أكبر من أن يملك قلبًا رحيمًا، حتى ولو بكلمة واحدة في عيد لا يأتي إلا مرة كل عام، العالم بالنسبة لي بدا معسكرين؛ هو أحدهما والبقيه بأكملهم في المعسكر الآخر، حلمت أن لي عملي الخاص، وأنني أملك بيتاً جميلًا وجدرانًا تحميني، وتمنيت الحب، رحت أحلم بأبنائي وظللت أحدث نفسي أنني عليهم سأكون رحيمًا وسأبذل كل ما في وسعي لتعليمهم، ظننت في وقت ما أن الأحلام شيء خاص بالأغنياء وأنني ليس لي الحق في شيء كهذا

لكنني في كل مرة كنت أقتل الحلم، فالطريق إلى الأحلام ممتلئ بالعقبات والأحلام تتكرر صباحًا ومساء، سرعان ما ننساها لأن الوقت والشقاء كفيل بسحقك مرارًا ظننت أن الأمطار وبرودة الشتاء لا شيء أسوأ منهما خاصة لمن يسكن الشارع المتسع مثلي لكن عاصفة غضب، عم مصلح حين سألته أن يبعث بي لمعلم كبير أتعلم صنعة يدوية علني أغير حالي وأتقاضى أجرًا يجعلني أشعر أنني ربما إنسان، كان هذا أسوأ جزائي، قالها بعنف: تريد تركي الآن هيا اذهب، افعل ما تريده، آويتك ومنحتك عملًا والآن تود الرحيل واتخذت قرارك، فلم أتيت لي الآن؟ لست ذكيًا بالقدر الكافي كي تطلب مني العمل عند غيري، هيا اذهب واصنع طريقك ودعنا نرى، أوقاتًا كنت أظنه طيبًا لكنني كنت أعلم أن لا أحد لديه الحقد الذي لديه.

العجيب في عم مصلح أنه رغم قسوته وغلظته إلا أنني تعلمت منه الكثير، كان صلب الرأي حاد الطبع ومخيفًا في بعض الأحيان، أردت العودة له، أردت إخباره بأنني ما زلت أملك عقلًا وأحلامًا، وأنني استمعت لنصيحته وحرصت على ألا أفقدهما في زحام المدينة وفي العتمة التي رافقت عمري وخطوات الشقاء، في داخلي مثابرة، لكنني

أدركت مع الوقت أن هذا العالم الصغير ينقلب فيه الناس ببساطة على بعضهم البعض

ودعته ووعدته أنني سأزوره من حين لآخر، والتحقت بالعمل مع معلم كبير، إنه متمكن في فن الدهانات، سألني عن مكان عملي السابق وأخبرني أنه يعرف عم مصلح وأنه سيسأله عني وعن أخلاقي وأمانتي قبل أن يصدر حكمه بالموافقة

أما أنا فرحت أمسك بخيط الأحلام من جديد وأسأل قلبي الصغير: هل حقًّا أنا أستحق؟ لم أحمل في قلبي هذا إلا حبًا لله وشرعت أسأله أن يمنحني ظهرًا قويًا لاحتمال الحقيقة، لم أقلق من رد فعل العم مصلح ورحت أردد الآية التي كنت أسمعها: (ادعوني أستجب لكم) كان يخبرني أن اليوم يصبح أفضل وبركته أعم وأشمل متى بدأناه بآيات كتاب الله، وأن الرزق نبات يطلبنا أحيانًا دون جهدٌ منا، وأن مرارة السعي تجعلنا ندرك حلاوة المقصد

معلمي كان قاسيًا بدا لي كرجل تربى على المكائد عنيفًا يجيد كسري بمهارة، يطبق الماضي بجروحه معي، وأجيد أنا الصمود أكثر مما ينبغي، صمود يؤلمه حد السعادة في رؤية دموعي المختنقة، أنا لا أبكي أبدًا، كم كان هذا الأمر مؤلمًا له وكم ظن أنه ليس بطاحن ماحق لي

صلب أنت يا عبد الرحمن، لم أكن بمثل صلابتك يومًا، ولم أحمل في جوفي قلبًا وخشية كتلك التي أراها من خلالك، أردت العمل وانقسم ظهري وأنا أغدو متنقلًا طلبًا للرحيق كالنحل وسعيًا خلف الزهور، أردت أن أقف أمام محلات الملابس والعطور ولا أحزن؛ لأنني لا أستطيع الحصول عليها لمال لا أملكه ورأيت فيك حالي مع كل تلك الأعوام التي كنت فيها صغيرًا ناظرًا لمرآتي متعجبًا من كبر وجهي، حتى بت لا أعرف قسماته، لا شيء كان يقطع نصائحه لي كتلك الثورة حين يصدر مني خطأ لماذا أخافه لذلك الحد؟ لا أعرف ماذا أفعل؟ لقد أخطأت الكميات، اللون ليس مماثلًا لا أعلم كيف يمكنني علاج هذا، سيحضر في المساء مؤكد لدي وقت، سأحاول لكنني لم أكد ألتفت حتى وجدته خلفي صافعًا لي بقسوة قائلًا: ها ماذا؟ تبدو كأرنب صغير ماكر رأى ثعلبًا

ماكر كلمة كان يرددها أبي لكنني لا أعلم حقًّا هل كانوا يصفون بطائنهم

تمسك بصلابتك حتى النهاية ولا تسمح لأحد بكسر إرادتك لأنها هنا في ساعديك

الإرادة التي كنت أمسك بها لأنني لا أملك غيرها والتعاسة التي كنت أراها مع كل كسر من معلمي لأنني لا أبكي، هل أراد رؤية الماضي من خلالي أم لم أكن ذكيًا كي أتفادى الحنق لصلابتي الدائمة على حد قوله؟

كان لأول مرة صادقًا ومحقًّا برغم كل تاريخنا معًا من تجاعيده علمتني الحياة ومن خبرته تشربت ملامح الدنيا، لم أملك الوقت كي أشكره على كل الدروس التي تعلمتها منه، كانت أكثر وجعًا من تعلم المهارة التي قتلت روحي قبل البدء، المهارة التي كان يخبرني دائمًا أن تكون أحدَّ من السيف ودقته وأسرع من القوس لأعلى وأسفل، وأنا أدرب يديّ ويظل يضحك لضعف عضلاتي، تنعكس الحياة على وجوهنا، تحمل لنا الأرقام وتزرع الأمل، وتخبرنا بحقائق بين طياتها لا نحتملها أحيانًا ونرسلها أحيانًا أخرى كرسائل قاسية نجيد تكرار الأخطاء بمهارة وكأنها ميراث لا بد أن يتجرعه الجميع، كل من مر على نفس النهج دون رحمة

كان لا بدّ لهذا أن يتوقف، أن تكون رعبًا للظالم وأملًا للمظلوم، كان أرضًا قررت أن أقف عليها، لن أفعل هذا مع من يتعلم مني أسرار المهنة، ولن أحمل المطارق العملاقة لأهدم قلبه وربما إنسانيته وكرامته أحيانًا أخرى، الأخطاء لا ينبغي أن تتكرر أبدًا، إن مروان صغير ضعيف البنية دفعت به أمه للعمل، أرادت يدًا تحمل الخشونة ليصبح رجلًا يصرف على نفسه حتى إذا تركته لم يكن ليشعر يومًا بالوحدة وقد رحل أبيه وتخاف عليه لأنها لن تحيا لتراه يافعا

يعرف الأنواع يرص الألوان أختبر ذاكرته في النسب يقترح الدرجات وأبتسم يدندن بصوت عذب لا أعلم ماذا يصنع، في كل مكان يدخله أراه أرنبًا مرحًا يهبُّ بنشاط مناضل يحضرُ الإفطار يصبُّ كاسات الشاي لا يفعل شيئًا سوى بسعادة، وأتساءل عن قلبه الفرح دائمًا وعن حالي مثله صغيرًا وحيدًا في حياة لا أعرف فيها سعادة ولا أختبر فيها فرحًا

الحياة التي خبرت اتساعها حتى باتت الجدران التي أزينها حلمًا وصدمة سكوته دون ابتسامة أو دموع كان نقلة لي فتعجبت لم تدندن اليوم مروان؟

كان صامتًا دون رد لا بدّ أن ثمة أمرًا عظيمًا قد حدث ما بك مروان؟

أجابني لقد ماتت أمي، لماذا بكيت أنا دونه؟ أنا الذي لم أبكِ مع معلمي، معلمًا لي

على طول الطريق وحانقًا عليّ؛ لأنني لا أبكي، لِمَ كان بكائي اليوم على مروان هكذا؟ والأهم لماذا تؤلمني صلابته؟

بات لي مروان طائرًا اعتاد أن يحلق، أما بعد أن انكسرت أجنحته أصبح حزينًا

مروان الصغير أسندُ له عملًا وحده، أدعمه، أطوي الماضي بمهارة، أشد من أزره، أبعثه لمعلمين وأجزل الثناء ليحلق، أبرر ارتباكه وأخطاءه، أمر لإصلاح الأمر، أهبط كيد كتلك الفرشاة التي خبرنا وقعها معًا صعودًا ونزولًا تمرينًا رياضيًا حاسمًا وصامدًا كتلك الجدران التي زيّنّاها معًا للناس وغفلنا عمّا صنعته من زينة بداخل قلوبنا

أتمنّى الزواج وقد كونت مبلغًا ماليًا مناسبًا ساعدتني الخالة أيضًا دعمتني نصحًا وحنانًا ولم أتوقف عن زيارتها في أيام العيد كما كانت تؤكد دائمًا لي، وتحملت أوجاع التجاهل من أبي مرارًا، ومرارة المقارنة بين إخوتي وملابسهم والتفافهم حوله وسعادته بهم وتعليمهم الجامعي الخاص في جامعات خاصة مبهرة ومكلفة قبلت يده ولم يلتفت هو لي حتى بعدما تبدلت ملامح وجهي وتغيرت

مرات كان يتقبل وجودي وأخرى كان يصنع عاصفة لا تهدأ تطل الخالة فهيمة دامعة غير قادرة على صنع الوصل ولا تغيير واقع تجد فيه الظلم جليًا

الباب الخلفي

باب أصبح طريقًا لها بعيدًا عنه، يطل عليه البيت من الخلف، باب لا يعرف عنه من حضر، ولا يهتم بمن دلف؛ لأنه من شدة تجاهله وقلته لا يراه

لا يراه كما لم يرني أبدًا هو وأمي، لا أعلم ما الذي كان يجعلني أعود؟ هل كان شوقًا للخالة فهيمة، هل وعدًا أقطعه كل مرة لها بالعودة ثم أتذكر صلف أبي وجبروته فأقسم على عدم العودة وأتذكر نبرة صوتها الصادقة فأعود؟ أم أنني كنت بحاجة للعودة بنفس قدر حاجتي للمغادرة

ان سميحة فتاة جميلة ومهذبة إنها قريبة لها، لا أصدق كيف أصبحت أعد الوقت حتى ألتقيها ورأيت فيها حياء جعلها تمتلك قلبي منذ اللحظة الأولى، أيكون الحب رائعًا هكذا؟ هل ستحتمل أحلامي وتشق معي طريقًا نحو غد أفضل غد مختلف لأننا معًا فيه

ما أعجب الحب! اللحظات التي تفرغ فيها أنات قلبك تفرغها لأنك أجدت

سجنها ببراعة

السجن الذي ربما وضعت فيه نفسي، هل أخطأت حين خبأت مشاعري؟ هل كانت الصلابة يومًا خطيئة حتى نحاسب عليها؟ هل كانت صلابتي صبرًا لم أعرف معناه ولم يفقه غيري أيضًا وقعه؟ هل كان عدم الشكوى أمرًا اعتبروه شيئًا غريبًا ونفذته دون وعي مني لخلو عالمي ممن يسمعني؟ هل كنت قويًا لدرجة تؤلم غيري وأتحير أنا في تفسيرها وأنا أتعامل تلقائيًا؟

هل كان اتّساع الوطن حولي رسالة خبأها الله في قلبي لوقت ما كي أفهمها ثم أكملها لغاية ما؟ هل كانت الألوان التي نزين بها جدران الناس فيفرحون بها رسالة كي نعلم كيف يمكننا العطاء وكيف يمكنه أن يكون ممتدًا بحجم وجوده أعوامًا وكيف يكون قصيرًا في حياة البعض الآخر.

أي بهجة كنا نحملها فيفرح أصحاب الحب بكل بداية ويبتسمون راسمين لوحة ما للحب أمام عيني، وكيف يكون هناك آخرون يرسمون معًا اختلافًا فأعيد الحسبة وأغير الألوان وينطلق الشقاق معلنًا عن وجوده بعدد الجدران في الحب، كانت تبدو صلبة تصمد لو حل عليها رياح الأخطاء والاختلافات بعضها كان واهنًا ضعيفًا لا يصمد أمام نسمة عابرة

يختلف الناس بقدر اختلاف الألوان ودرجاتها وأنواعها، ويختلف الحب بدرجاته معهم قدر اختلاف مقاييسهم ونسبهم ونغماتهم

كانت الألوان تشكل في البداية لغزًا عن الحب ومدى الصمود أصبحت مع الوقت سهلة يسيرة لا تجعلني أتحير وأنا أفقه لأي جدار سيصمد أعوامًا وأيها سيُهدم دون جهد

وسألت نفسي عن الحب: هل سأنجح يومًا في الحصول عليه؟ هل سأملك جدرانًا مثلهم يومًا ما

سيكون وطنًا لي والأحلام عن الأوطان لا تموت لا تموت أبدًا

سميحة

الماضي بكل ما فيه كان متجسدًا أمامها، أنا الذي ما كنت صلبًا أمام كل البشر أما هي فلا

لديها دائمًا حل لأوجاعي ووعد بأحلامي عن البيت والعهد والأولاد والغياب

المستمر كنت أعي أن الله قد منحني ظهرا قويًا يحفظني في غيابي ورحيلي ظهرًا لم أملكه يومًا وأنا أفترش الأرض وألتحف السماء ظهرًا لم يكن ليستقيم دون هبات الشتاء ورياح الضياع لأيتام آباؤهم على قيد الحياة، ظهرًا لا يلتفت ليرى جدارًا يصمد خلفه من هزات الحياة وتقلباتها ظهرًا وجدته معها قلبًا يقلق عليّ عندما أمرض، كانت سميحة بعد كل غياب وكل هم وخلف كل خيبة وخيبة هنا بجانبي

آه كم أحبك وكم أكره حديثك ووصيتك المستمرة لي ببر أمي، تعيدين الأمر تكررينه مرارًا قائلة أخشى عليك، كن متسامحًا اذهب، لها لم ترها منذ كنت طفلًا، أرسلت لي قائلة أخبريه سميحة أن يسامحني إن المرض أنهكني ولم أعد أحتمل فراقنا، الإدراك ربما تأخر لكنني نادمة أخبريه ألا يرتكب أخطائي وألا يكون قاسيًا، أخطأت حين تركته في الماضي وأصبح حاضري ممتلئًا بالدموع، أتمنى رؤيته أرجوكِ سميحة أرجوكِ

قالها في انفعال شديد، أغلقي هذا الموضوع، لا أريد الحديث، أمامي أسبوع فقط وسأغيب بعدها شهرًا في العمل، ستكونين وحدك كالعادة، هيا أخبريني ما أخبار الأولاد والمدرسة؟ هل هناك احتياجات؟ الكتب والأقلام أخبريني وسأحضر لكِ كل ما تريدينه

خيرك فائض يا عبد الرحمن

هذا ليس خيري، هذا رزق الله لنا جميعًا والأهم هو رزقي بكِ أنتِ حين كنت أدعو الله بزوجة صالحة ولم أكن أعلم كيف سيكون الأمر

حققي أحلامي فيهم سميحة واعلمي أن ابتعادي عنك للعمل هو فراق للعين لا للقلب قلبي معك دائمًا وأعلم كم تبذلين من جهد معهم، إن تفوقهم في الصف أسعدني كثيرًا أريدهم أن يحصلوا على التعليم الجامعي أريد لأحلامي أن تتحقق فيهم

لا تقلق عبد الرحمن إن ابنتنا الكبرى قد التحقت بكلية العلوم ورضاء بكلية الزراعة إن حسين قد أكمل تفوقه في كلية التجارة وعلي يحضر أوراق رسالة الماجستير وصغيرتنا سارة قد ملأت عالمنا بالبهجة، لا أعرف لماذا يصر حسين على إرسال أموال العمرة لي

كم تعلمت منهم أن أنظر للجانب المشرق في حياتي

لم أحزن يومًا في حياتي كحزني على الخالة فهيمة وراحت عيناي تسألني عن أوقات الصلابة التي انتهت وتلاشت أمام خبر رحيلها، أنا الذي لم أبكِ قط يومها فقط بكيت لطالما أحببت القمر، ظننت أنه يتبعني أينما رحلت، راقبته يتضاءل يصغر ويختفي حتى ظننت أنه يتبعني ومنحني هو الأمل بالعودة مرة أخرى للاكتمال، ما أعظم الخالق! صبَّرت قلبي الذي اعتاد الاتساع وباتت الحوائط بالنسبة له حلمًا متعذر المنال، أخبرته أنه مهما تناقص وصغر واختفى فسيعود للتألق مرة أخرى، ويتعجبون من كل جلد وصبر وصمود، أما معكِ فرأيت القمر مكتملًا كعادته دائمًا ولمست في قلبك حنانًا يكفي عن كل حزن وغضب ورحيل في عالمي

طريق حياتي كان مرصوفًا بقلوب مفطورة، أبي أمي الخالة فهيمة مروان وأنا الذي لم أكن أعلم كيف أصبحت نهايته سعيدة وآسرة إلى هذا الحد، بنيت أولادي وبنوا لي بيتًا وجدرانًا، بنوا حلمي الذي ظننت أن اتساع شارعي ورقة سريري الكرتوني أمام دكان العم مصلح وهم لن يتحقق

لكنني رغم كل هذا لم أكن ساخطًا حتى لو لم تحبني أبي لا يمكنني تغيير الأمر الكراهية تكلف أكثر من الحب

لماذا أبي فجرت هذا التساؤل في وجهه؟

لماذا من حقي أن أعرف فطنت لعقلي ثم عدت من حلم اليقظة متمسكًا بباب خلفي

باب تمنحني فيه الخالة فهيمة جزءًا من الرحمة يقيم أعمدة قلبي، قلبي الذي كان كشمعة تحترق حتى إذا قاربت على الانطفاء جددت أركانها الخالة وكان الباب هو ضوء الشمعة الذي يجعلني أصمد، أما أبي فقد بدا كأحد ملوك القرون الوسطى، وجودي بينهم لوقت قصير كان يشعرني بأنني غريب، كأنني على جانب عظيم من الظلمة، الخالة فهيمة هي التي تتصرف بعقل واتزان بينهم، كم هي طيبة القلب رضية الخلق، بل إنها أكرم وأظرف سيدة قابلتها، يكفي أنني حصدت الحب في النهاية

الحب الذي لم ألقه منك ومنها، الحب الذي لم أؤمن به يومًا وأنا أرقب القمر حتى وهو يتغير صعودًا ونزولًا مرافقًا لي

الحب الذي لم يُزرع بداخلنا، فظللت أسأل نفسي كيف سأمنحه لغيري وأنا لم أعرفه

الحب حين تحضر عائشة بأولادها فأرحب بها وتجلس بجانبي على الأرض تروي مشاكلها في العمل وعتب الحماة ومرض الصغير فأهون عليها الأوقات وأصنع معها ما علمته لي طبائع الدنيا

الحب حين يخبرني حسين بعمله البسيط في مطعم كي يغطي تكاليف دراسته الجامعية دون أن يعرف معرفتي بالأمر وأن عدم رده عن المصاريف الجامعية نبل وكرم منه دون تحميلي مشقة التكلفة وعناءها وهو لا يدري أنني أعلم

الحب حين يحضر عليّ رسالة الماجستير فيأخذني لحفلها بملابسي البسيطة ثم يقبل يدي أمام الناس وأنا أبكي وأسأل نفسي أين ذهبت صلابتك يا عبد الرحمن؟

الحب أن يعلمنا الله ما لا تعلمه لنا أفخم المدارس وأعظم الجامعات

الحب أن تراجع رسائل الله داخلك فلا تقف عند حلم لتبكي ولا على وصل فيكون الهجر حليفك، الحب هنا هو الرسالة... الرسالة هنا في قلبي حتى لو كانت من الباب الخلفي

الساعة الرملية

الرجل العظيم تظهر عظمته عن طريق معاملته لمن هم أقل منه أضعف منه وأشد احتياجاً للغير أكثر منه، لا يتعلق الأمر بالحلم الذي ترغبين به، بل بمدى صدق تحققه على هذه الأرض؛ أرض الواقع، الحياة لا نملؤها بالشوك لكن ورود الحب أحيانًا تكون خادعة

قلبي لم يكن يعرف شيئًا عن الحب ولا الحرب التي حوله تدور والبيت الصغير كان فلكي الذي فيه أسبح نعم

طرق باب البيت طالبًا يد أختي لكنه حين رآني أصر على الزواج بي ولم تفلح كل محاولات أمي حين ألبستني ثيابًا باهتة ووضعت لي نظارة سميكة علّ عقله ينصرف عني وعلمت بعدها أن أختي قد نجت، لم تكن لتحتمل أمرًا كهذا، وجدت نفسي بعدها أزف إليه وملابس بيضاء حريرية تصنع رونقًا جميلًا حين تلامس جسدي فتزيدني ضوءًا على حد قوله

الجمال أحيانًا نقمة حين يقذف بك إلى تلك الهوة، إلى مكان لا وجود للرحمة ولا للحب، بيتهم كان كبيرًا في القسوة صغيرًا في التراحم، وألوان العمل من عجن وخبز ومسح بحبات الماء لكل الأرجاء ثم الحصول على وجبة من الضرب تحقيقًا للقب الرجل سيّدٌ على أهل بيته، أمام أهل الدار كنت أبدعَ في إخفاء الجروح، ولم أكن أفهم أن هذا شيء مناقض للحب ولا وجود له في تلك الحياة التي حملوني إليها، لم أكن أعرف هل الزواج قسم منه هكذا كي أقف انتظارًا في أوقات معينة لهذا الأمر ثم أظل أرقب متى ينتهي الوقت، كانت هناك ساعة ما نحسب بها الوقت لأن الأعمال ينبغي أن تكون حاضرة وفي موعدها متناسقة، ساعة رملية أرقب بها مرور حبات الرمل وأظل ألهث حتى الانتهاء وأظل خائفة أن يفوتني الوقت في الكره كما في الحب

كان حبي لعينين صغيرتين كافيًا كي أصمد أمامهم ومن أجلهم محمود وآية، لماذا كان خوفي عليهما أكبر من خوفي من وصلات النكد المعهود والعتب المحمل بالتبرير المستمر وحبات الرمل التي ترقب حركاتي وتعد أنفاسي حد الاختناق؟

لا بد أن هناك شيئًا ما مسالمًا في عينك آية، شيئًا أراه جميلًا مثلك، مثل جمال أمك الذي يخيفني عليك، ومثل جمال الأوطان التي تفصلنا عمن نحب

فنحنّ للماضي بخياله ونتمنى رحيلًا ونظل نرقب موعد الإجازة السنوية كي نحمل الأثقال والحقائب مغادرين لبرهة قليلة نضع فيها أمتعتنا وأضع فيها قلبي بين ثنايا أمي ولا أخبرها، وأظل أرقب الساعة الرملية في جانب الغرفة البعيد وأعرف أن وقت الحضور المحمل بالحب في حضور الأهل صغير ومتضائل وأن وقت الرحيل قريب كسرعة مرور حبات الرمال منها ومن بين أيدينا انهمارًا كالمطر

تهمس لي ألفت بحنان ما بك صفية؟ أجيبها بضعف لا شيء أنا بخير لا صفية لست بخير، إن هالة الكدر ترتسم على وجهك، ما سر هذا الاصفرار لوجهك الذي كان دومًا متوردا؟ لا شيء ألفت، أنا فقط مرهقة هذا عوض عن نوبات من الصداع الحاد الذي أصبح ملازمًا لي مؤخرًا، لا تخبري أمي لا أريد أن يشكل قلقها عليّ أمرًا محزنًا لا أحتمل هذا، إذن تناولي دواء وحاولي النوم، لا تقلقي سيلعب الصغار مع بعضهم ثم إن قضاء أسبوع واحد معنا لا يكفي، لم تزورينا منذ عام، أجبتها بعيني لا يمكن تغيير هذا يا ألفت مع الأسف حين قررت تركي للنوم

النوم الذي كان حلمًا أريد من خلاله أن أغادر الواقع، وأحمل الفرحة كي أبتعد وأظل ألهث عن دقات الوقت التي تدق أوجاعها في رأسي، رأسي الذي أصبح ثقيلًا كجبل لا يعرف هدوءًا ثم أنهارُ

إنها مريضة أمي، تجيب بل أنتَ المريض في رأسك، ألا ترى أنها تريد الهرب من العمل لكنها تتشنج تشنجات شديدة لا تفهم أنتَ في أمور النساء هذه، هيا اخرج غدًا ستطيب لا تقلق

كان الأمر أكبر من قدرتي على التحمل شكوى لأهلي كي ينعكس على صحتي فأصاب بالصرع، كان الابتلاء كبيرًا ولم أكن أكثر قوة ولا علمًا لمعرفة السبب، إنها تترجم هنا مرضًا حين تعجز نفوسنا عن التحمل

النوبات كانت شديدة وفجائية، وكان الجميع يظل يردد اصطناعي لها، أنا أجيد التمثيل على حد قولهم، كل نوبة كانت تمر وكل شدة فيها كان عقلي يتعلق بهم فقط بقطرات المطر لعين صغيرة تراقبك في حذر خوفًا

تمنّيت الموت كي لا أرى تلك النظرة، وظللت أحدث نفسي أن الترك سيجعلني أكثر قلقًا عليهم، فما تمنيت بعدها إلا أن أرحل عن هذه الدنيا وأنا عليهم مطمئنة، فكيف يمكن لتلك الأمنية أن تتحقق ودماء الحزن تصب خيراتها أنهارًا من حولي في كل مكان، نعم أنا أرى هذا دائمًا، وقلبي ليس قويًا كي يبقي مستيقظًا فيغرق في نوبة كبيرة أغفو بعدها غير مدركة لما حدث وغير متمنية لشيء إلا أن يتوقف هذا الأمر ولو قليلًا، حتى توفي زوجي حزنت عليه برغم كل تاريخي معه لأحاول بدء تاريخ آخر من النضال كفاحًا من أجل أبنائي وقسوة أهل يرون أن من عاداتهم أن يتزوج الأخ زوجة أخيه ليس حفاظًا على أبناء أخيه كما يقولون بل كي لا يحصل أحد على ميراث الأرض فلا يصح أن تذهب للغريب على حد قولهم وقرار مني بالتنازل عن حقي كي أرحل عن هذا الجحيم

العودة لبيت الأهل لم يكن مرحبًا به لكن مرضي الشديد ونوباته المتكررة كانت شافعة كي يخرج بعضًا من الرحمة على السطح، كنت صغيرة لم أكن أعرف ما هذا الذي يحدث لأمي، لم أكن أفهم ماهيّته ولا ينمو بعقلي شيء سوى خوف، نعم خوف شديد عليها، فأضم أخي الأصغر حين يبكي هو الآخر فزعًا ثم نقترب منها في حذر كي نربت على جسدها، كنا نجيد قول كلمة لا بأس أمي، ثم نظل نناديها، وأخبر أخي بأننا لن ننتظر هذه المرة كثيرًا، محمود لا تقلق ستفيق أمي بعد قليل، لكن هكذا لن تستطيع أن تصنع لي ما أريد، أنا أريد أن أشرب، وأيضًا أشعر بالجوع، إذن ما رأيك أن نصنع لأمي خبزًا ونملأه بالجبن الذي تحبه، تعال، لكنني لا أستطيع فتح باب البراد، لا بأس سنشد أطراف الكرسي ثم تمسكه لي وأصعد أنا، دع الأمر لي

أجدت فعل هذا الأمر مرارًا، وكان أخي أكثر هدوءًا حين يفضل ترك كل أنحاء البيت ليجلس هنا بجانبي مع أنني أكبر منه بعامين فقط، وصوت طرق الباب من أجل أمي يتكرّر مرة أخرى، كانت كل قراراتها في حياتها بحثًا عن حل هربًا من واقع جبلت عليه، والمرة الثانية لطلب يدها كزوجة ثانية هو أمر في نظر الجميع رائع وجيد

إنه رجل طيب سيتكفل بالأولاد وسيكون على وعده بهم رحيمًا، لكنه يسافر باستمرار وينبغي أن تكون زوجته معه، سيحضر لأولادك كل ما يتمنونه، لكن ينبغي ترك الأولاد مع الجدة، لن يكون تواجدهم متاحًا مع أمهم، سأجعلها تراهم وتحدثهم

كيفما تحب، وسأحضر لهم كل ما تتمناه قلوبهم، حملت أمي حقائب الرحيل المغادرة لعالم آخر، ربما لم يعد بإمكانها تحمل نظراتنا لها، ربما هربت كي لا تؤلمنا، أعرف لحظات الوداع جيدًا، يصبح الوقت منسابًا بسرعة كسرعة الرمال، البقاء أكثر ألمًا من الرحيل، آية أعرف أن هذا الأمر شاق على قلبك الصغير هذا، وأعرف أن دموع الفراق ولحظاته مؤلمة، لكنها لن تكون أكثر ألمًا من رؤية عينيك هكذا لي مع كل نوبة

لم أخبره بمرضي، لم أكن قوية بالقدر الكافي كي أجعله يعرف، ولا أعلم إن كان هذا الأمر صائبًا، لا أعرف حقًّا كيف سيتقبله، إن هذا يُحزِنُني جدًا ولا أجد حلًا ولا أملك شجاعة سوى الصمت، ماذا أقول؟ كيف سيكون وقع الأمر؟ وهل سيستوعبه؟ لن يكون الأمر مؤلمًا كرؤيتكم، ولن يكون الهروب سوى رحمة أرجوها وأعلم في جوفي أن ضوء الله سيرعاني، الحياة أمامي سحب مبددة وغائمة، لكنني أتيقن أن الله معي، ستصلك رسائلي دائمًا، كوني أمًا لمحمود هو بحاجة لك أكثر مني

كان ألم أمي معنا أهون على قلوبنا الصغيرة من فراقها، وكان بقاؤها حِملًا كبيرًا خشيت من خلاله أوجاعنا، وكأن الترك والفراق هو خير الحلول، حلول ليست بأيدينا وصمود كصمود أولئك الذين غدوا في المعارك وحدهم دون سلاح، هكذا حل الرحيل إلى بلد آخر، بلد بعيدة تحتاج إلى كثير من الأشياء كي نصل إليها إجراءات وأوراق وطائرة

الأحاديث التي أراها بين صفحات الكتب وخلف شاشة التلفاز عن الحضور والغياب والساعات، عن كل أم تفارق أبناءها سفرًا كان يجعلني أتذكر وقتي وحدي دونها، وأغدو إلى رسمتي لساعة أخبرها أن يمر الوقت كي تعود

كان شوقها شديدًا لنا حين العودة، فتغدو دموعها منهمرة منذ طرق عجلات الطائرة لثرى الوطن فتغدو محملةً بالهدايا، نعم هدايا كثيرة؛ ألعاب وأشياء كانت تجعلنا نفرح كثيرًا وقلبي كان يشعر وكأن هناك ساعة رملية بجانبي تعدُّ أنفاسي وتحسب الوقت المتسارع والذي سيمضي سريعًا كي تختفي مرة أخرى خلف النهر وخلف البحر وخلف الجبل وخلف صفرة الصحراء، هناك بعيدًا حيث صوت هاتفي، لا تدرك من خلاله هل هي سعيدة؟ هل تبتسم؟ ترى هل تفكر فينا؟ هل يؤلمها الفراق؟ كيف يمكن للحب أن يجعلك تغادر من تحب خوفًا عليه ثم حين ترحل يقتلك الحنين شوقًا فينبت

بداخلك فراغ كبير يشبه غرفة كبيرة متهاوية خالية من كل شيء وأي شيء يمكنه أن يجعلك مبتهجًا وسعيدًا؟ فراغ كنت تتمني أن يمتلئ بها حتى لو كان ذلك على قلبك مجهدًا ومحيرًا.

الحياة مع جدتي كانت عادية، وقلبي كان أصغر من أن يستوعب كل هذا الحب والترك والمضي والرحيل والصحة والمرض والقسوة والإفاقة والعتب والاستسلام بالتأكيد إن الحب شيء سيئ

إنه يجلب الفرقة والدموع، لمَ هذا الكائن موجود؟ وأنا في الربيع الثاني عشر عمرًا ثم عودة نهائية إلى الوطن، نعم وطني معها كان يصنع لي عالمًا كبيرًا والأوطان التي انتقلت بينها من بيت لأبي ثم لجدتي كانت تجعلني أعلق دون هوية

مدرستي أوراقي وعالمي الصغير، وكان هناك دائمًا محمود الحب المناضل المحب دائمًا ليدي ممسكًا بها في طريق الذهاب وكأنني له جدار حماية

العودة كانت جيدة جعلني الأمر أراها كل فترة وكان شوقها لنا محملًا كشرر يتطاير، قبلات وأحضان قرار لا تملكه كي تخبر زوجها أن يضم بيتها الجديد معه أبناءها الصغار، كانت أضعف من أن تملك رغبة وقلبها الذي خاطب ربَّ الكون وحده تعلقًا به جعل أمنيتها محققة، أعلن أبي الثاني رغبته في ضمنا لرعايته، ولم يفلحْ بركان الاعتراض من والدته في كفه عما عزم عليه، إنهم يتامى وهم أبنائي هذا قرار، كيف تركتهم وهم ضعاف وحدهم هكذا؟ وكيف تحملت هي وجع الفراق في قلبها شوقًا لهم دون أن تصرّح لي ولو لمرة برغبتها هذه؟ لماذا لم أرَ قلب أم انفطر شوقا لأولادها؟ وأين كان قلبي ورحمته من هذا؟ كيف يمكننا أن نكون قساة القلب هكذا؟ هذا قراري ولن أتراجع عنه وليسامحني الله على ما فات من عمر

الرحمة صورة من صور الحب، لن يمسك الله رحمة ما فتحها لعبد من عباده

انتقالنا لبيت جديد كان مزهرًا وآسرًا، تتوفر به ألوان جميلة، غرفتي كانت مزينة بنقوش باهرة وساطعة كشمس يوم لا قيظ حر يؤرقه

علي جدران غرفتي وضعت ملصقات جميلة، وسقف الغرفة يضيء ليلًا كي يأخذني معه لعالم آخر بعيد؛ عالم الخيال الممتلئ بالسحر، كان زوجها بنا رحيمًا وعلمت عندها كيف نبض قلب أمي بالحب له، بدأ الأمر يتغير، وخوفي من الحب لم يعد مضيئًا ومضنيًا

وقويًا كالسابق، رأيت الحب منه وعبره، وخلالها رأيت الرحمة ورحت أفكر كيف لتلك الرقة أن تأسر قلوبنا هكذا، وحده الحب الذي يصمد خلف كل المعارك، وحده الحب هو ما يجعلنا نقف نواجه المرض أحيانًا الظلم أحيانًا والأهم جروح قلوبنا من الماضي، الماضي الذي يظل مطاردًا لنا رغمًا عنا فيصرعنا حزنا على مائدة الظالمين، ونظل نلهث أحيانًا أخرى جاهدين مدافعين، لماذا كان الحب يحضر في كل مرة كضماد وليس كجرح ويعلن من خلال المودة أنه طائر محلق نحو السعادة فتهدأ النوبات ويهدأ معها قلبي ويُمحى الحزن ويتبدل؟ هل الحب أمر جميل؟ هل هو ضوء يمكنه أن يغير العالم للأفضل؟ هل سأحظى يومًا به؟ لم تخلُ حياتنا من تعكير صفو الهدوء الذي أعشقه، ولا كانت أوقاتنا لحنًا رقيقًا من السكينة، كانت الجدة الكبيرة تعبر عن ضيقها الشديد منا بكل الطرق الممكنة، وللنكد اليومي صنعت ألحانًا صاخبة منه وافتعالًا للمشكلات

وكان مرض أمي لا يحتمل، والنوبات تهدأ تارة وتصبح عنيفة وقاتلة تارة أخرى، ذات مرة وجدتها تمسك بيدها وتستند إلى الباب مخفية وجهها، ظلت فترة واقفة، اقتربت منها، لمستها، أمي ما بك؟ حتى وجدتها وقعت عليّ وتشنجاتها تلك المرة أشعرتني أنها لن تصمد، بدا وكأنها ستتركني في هذه الأوطان وحدي، ولم ينمُ بذهني حينها إلا قولها الدائم لي: أريد أن أطمئن عليك قبل موتي، هبطت درجات السلم في فزع ودون حذر، قرعت باب الجدة وباب زوجته الأولى، كنت أتمنى فقط أن يَهرَع أحد ما منقذًا أمي، هذا مرض فلم لا تصمد القلوب رحمة؟ نحن نعيش على الأرض، والأرض ممتلئة بالمشاكل والتناحر والبغض، لمَ بات عدد الراحمين ثلّةً صغيرة تزداد انقراضًا؟ دفعتني بكل قوة فسقطت على الأرضَ بجسدي النحيل متهاوية، كان هذا في وقت دخول أبي الثاني من باب المنزل، فرآني، عندها وقع طلاقه لزوجته الأولى، تلك التي بذل معها جهدًا كبيرًا كي نحيا جميعًا بسلام وجهدًا آخر حين كان يتمني رضاها ورعايتها وحسن معاملتها فتقابله بالجفاء ولا يطيب لخاطرها إلا أن ينفق كل ماله عليها دون شكر ولا ثناء، بل ضجر وسخط حتى اختار الحب، اختار أن يرحل متزوجًا بأمي، فما وجد معها إلا كل ما هو مناقض للأخرى، ومع ذلك كان عادلًا بينهما، أمسك بيدي وربت على رأسي، أما أنا فذعري وخوفي على أمي لم يجعلني أبكي، ولم أتحكم أيضًا في وجهي الذي ازداد اصفرارًا، هرعنا صعودًا لها وتولى أبي أمر تهدئة النوبة، كان قد اعتاد الأمر، صفية أرجو

أن تكوني قد أصبحتِ أفضل الآن، لم باتت النوبات شديدة منذ وصلنا إلى مصر؟ قرر بعدها مغادرة البيت لبيت آخر عل روحها تجد في البعد السكينة التي تتمناها، ولا تعبر عنها خجلًا، أمي ظلت أعوامًا طويلة بلا إنجاب، رزقها الله أخي الأصغر مصطفى، كاد رفيقها الرحيم يطير فرحًا، فهو لم ينجب سوى ابنة واحدة ولم يجد منها إلا كل عقوق برغم محاولاته المستمرة للتقارب وإنفاقه ببذخ على كل طلباتها.

إن زرع الكره يشبه زرع الحب، إن التربة الواحدة تستقبل كل أنواع البذور لكن نبات البغض يحتاج إلى رعاية وتعاهد مستمر وإرهاق الفكر والنفس حرصًا عليه، أما الحب فلا

الحب في خضم كل هذا كان محير وبائس ومخيف

لم تخلُ حياة أمي من المشاكل والكدر حتى بعد زواجها برجل رحيم مثله، وغرفتي التي كان يحرص على تزيينها أكثر من أي أرجاء المنزل ويحضر لي ما أريد ويرعاني دون طلب، لم يكن لي أحلام ولا أمنيات كنت أبحث دائمًا عن حلول

حلول كي يتوقف الإرهاق والتبرير المستمر والعتب، هذا كله كان مرهقًا وفجًا ومخيفًا، وعالمي قرب أمي كان مخيفًا، كنت أخاف عليها كثيرًا، وأظل أحدث نفسي كيف يمكنني أن أطمئن عليها وأرعاها؟ أما زوجها فكان منارة اخترقت كياني، ولم أكن أفهم كيف يخاف عليّ وكيف يحمل همي مثل أمي وكأن كليهما قد انصهرا شخصًا واحدًا

حتى طلب مني صنع الشاي وإدخاله له ولصديقه، فحملت أكواب الشاي ودلفت إلى غرفة الضيوف، قدمت الأكواب وودعني أبي شاكرًا، ثم صوت طرق رقيق على الباب هي طريقته الرقيقة الهادئة حين يريد محادثتي عن أمر أو مناقشتي وطلب رأيي، كان يعاملني كفتاة كبيرة وناضجة وعاقلة، وكنت أشعر بصدقه وطيبته لا عجب إذن كيف أحبته أمي، آية ما رأيك في دكتور محمد؟ أجبته: من يا أبي دكتور محمد الذي قدمتي له أكواب الشاي اليوم؟ آه... أجبته في توتر لاحظه أكاد أجزم أنني لم أره، لقد وضعت أكواب الشاي في عجلة وخرجت، قاطعني: إنه يريد طلب يدك وسألني أنتِ في أي عام جامعي ثم ضحك وضحكت أنا أيضًا، لكنك تعلم أبي أنني ما زلتُ في الصف الثاني الثانوي، كيف هذا أبي؟ أجابني قد ذهل هو الآخر لكنني أراه مناسبًا لكِ، سنكتب الكتاب ثم سينتظرك، صمتت وقلبي يرتجف ثم قال آية: أعلم أن هذا كله

جديد ومخيف بالنسبة لكِ لكنني لا أدري إن كنت سأظل على قيد الحياة وقتًا كافيًا كي أطمئن عليكِ

أعلم يا حبيبة ويا ابنة الحبيبة أن قلبك الصغير هذا أكبر من رؤية عالم كبير حولك، لكنني أعدكِ فأنا أعرف محمد منذ عدة أعوام، كلانا يحفظ القرآن في المسجد، إنه طبيب وطيب وقد نشأ شابًا في طاعة الله سيزورنا هو وأهله الخميس القادم للرؤية الشرعية فكوني مستعدة

يا الله ما كل هذا! أشعر بالخجل الشديد، كيف هذا؟ ثم ماذا سأرتدي ثم توقفت، ما بال عقلك آية، زواج وخطبة وكتب كتاب، أنا صغيرة تعليمي حياتي مستقبلي والأهم خوفي من الحب من الأذى

ثم استسلمت لوسادتي في صمت وأنا أقول: ليفعل الله ما يريد، وسبحتُ في نوم عميق، حدث كل شيء بسرعة وكان قلبي فرحًا مطمئنًا ثم تأجيل الزفاف حتى دخول الجامعة وجدت فيه رقة ولينًا جعلا قلبي يتعلق به، وشيء رقيق نما بين قلبينا، رسائل جميلة وحديث رحيم، ومع ذلك لم أفتح له قلبي محدثة عن كل أوجاعي السابقة، لم أحدثه عن حياة أمي، مع أهل زوجها الذين لم يتوقف أذاهم حتى بعد حمل حقائب الرحيل والتخلي عن حقوقها، كان لديّ الكثير كي أخبره به عن خوفي من الحب عن مرض أمي وعن صبرها وقولها الحمد لله أنا أفضل حالًا من غيري، عن حياتي ووجهتي التي لا أعرف لها اتجاهًا، عن عالمي ذاك الخالي من الأحلام والأمنيات، عن فرحتي الشديدة بغرفتي المزينة وثوبي البسيط، عن حبي للكتابة وعشقي لقراءة الشعر والأدب، عن أوجاع القلوب التي لم أكن أقرأ عنها في حكايا الروايات الورقية، بل كنت أعيشها كائنات حولي متجسدة في كل زاوية وخلف كل جدار وبين ثنايا الهواء، عن تفنن الناس في إحداث شقوق مستمرة في جدران قلوبهم دون رحمة، وصدى الساعة الرملية في رأسي كان دومًا يدق أوتاره دائمًا يصنع بداخلي خوفًا وقلقًا من النهاية؛ نهاية الحب، نهاية وقت السعادة، نهاية الضحكة الحقيقية من القلب

بدا وكأن هناك وحشًا كاسرًا مختبئًا دائمًا خلفي، أما أنا فلا يمكنني أن أخطو لمكان آخر لدرجة مختلفة من التمني ومن التكلم، وكأنه سيظهر فجأة كي يسلب مني كل ألوان الخير ويقضي على كل ألحان الراحة، الأقفاص أحيانًا تكون جيدة تحفظنا بداخلها

من عالم كبير لا يمكننا فيه عبور الطريق خوفًا وذعرًا وحزنًا، صوت طرق عنيف يتكرر ويتكرر معه خوفي

طرق شديد كانت تسحب معه أمي سحبًا، وغضب عارم يصبه عليها أبي وأهله وكأنهم يستمدون وقودًا ما يشعل بداخلهم حياة، أما أنا فأظل أختبئ ويختبئ خلفي أخي خوفًا، وأظل أرقب الساعة الرملية في الطرف البعيد وأناشدها كي تنتهي وأنتظر في قلبي عودة أمي

نعم أشعر به

إنهم أهل أبي المتوفى، كادت عقولهم أن تغادر رؤوسهم محلقة نحو أفق بعيد، صاح عمي في غضب ابنة أخي نحن أحق بها، لا بد أن تأتي، ثم كيف تتصرفون هكذا؟ كيف تتزوج وهي في هذه السن الصغيرة؟ ثم لماذا لم تخبرونا ونحن أعمامها، لن نغادر هذا البيت سوى وهي معنا، هيا اجمعي ملابسك، تريد جدتك رؤيتك، والخالة رسمية ترغب في الحديث معكِ والتعرف عليكِ، أي نكران للجميل هذا! كي تظل الأعوام بيننا هكذا؟ هل نسيت أن لك أهلًا

حاولت أمي بوهن المرض كي تمنعهم، لكن قوة أكبر منها بادرت متهجمة عليها: ها هل تريدين أن أمدّ يدي عليكِ؟ حين أمسك ذراعه زوجها بعنف قائلًا: اياك حتى أن تفكر، قاطع عمي الأكبر الحديث، ثم أردف قائلًا: لن يطول الوقت، ستعود بعد قضاء زيارة سريعة للجدة والأهل

حزمت الحقائب، ولَمْ أرد وضع أشياء كثيرة بها، لكنني لا أعلم لِمَ بات خروجي من البيت مشابهًا لرحيل أمي عنا وأنا صغيرة؟ وحين تلتقي عيوننا نشاهد حياتنا والساعة الرملية التي ستبدأ في حساب الوقت والدقائق وأهمها القلوب حتى اللقاء

كانت العودة لهذا البيت رغبة مقيتة تضاهي رغبة أمي في الرحيل عنه حين كانت ضعيفة وحيدة ومستسلمة

لم يتغير البيت وكأنني تركته بالأمس، لم يحاول أحد صنع تغيير ما فيه وكأنهم ألفوا الحوائط، وحولوها لسجن كبير بقدر قلوبهم، كانت جدتي حادة صلبة خشنة الطباع والتواضع وسعة الصدر ليسا من أبرز صفاتها، كان قلبها مثل الجليد وإرادتها مثل النار، لم تحاول حتى الترحاب بي، لم ترَ يومًا أنني جزء ينتمي بعضه لها ولأبنها الراحل كانت

ترى في جمالي جمال أمي، وقلبها الطيب المناضل في عالمهم اللا رحيم، كم كان هذا يؤلمهم

اليوم الأوّل في بيت أعمامي كان ماضيًا، ظلت أمي تفر منه وظللت أسأل نفسي وأنا معهم، كيف يمكن للحب أن يمنحنا فرصةً كي نحيا وللكره أن يأخذنا نحو موت بطيء، ورحت أتجول بعيني في أرجاء المكان وقد باتت أمي حاملة لأنواع الدقيق وماثلة أمام الفرن وصانعة للخبز، ثم جالسة بجانبي في هدوء، كانت تلك البقعة الصغيرة من الأرض أكثر أمانًا من عالم بدت فيه أمي مثل الشجرة التي تتلقى الصعق وحدها في صحراء جرداء، صعقًا كان أقوى من صراعها مع الصرع وأشد من نوباته وألمه وبدا قلبي مثلها وحدي وكأن تاريخًا ما يتكرر من خلالي دونهم جميعًا ودون ساعتي

صادرت زوجة عمي المحمول الخاص بي، ومنعت الهاتف الأرضي وكأنني في جزيرة معزولة عن كل شيء إلا صوتهم، الشر سم سريع الانتشار، والانتقام كذلك، يمكنه أن يعشش فينا ويجعلنا أقبح، أما الخير كالدواء يأخذ وقتًا طويلًا، انفصلت عن العالم الخارجي لا أتكلم مع أحد، لا أحد يخاطبني، لا زيارات، وهاتفي للاتصال بأمي محدد ولا يلامس يدي، وزوجة عمي خلفي تقف مراقبة، كان هناك لغة خاصة بينهم لا أفهمها، وأنا بالنسبة لهم قطعة أثرية ثمينة تملك ميراثًا تركه أبوها الراحل

في ظل كل هذا كنت أفكر بمحمد، لم نتحدث كثيرًا منذ التقى قلبانا، وظللت أسأل نفسي: هل أحبه؟ ترى ما هو الحب؟ ما أركانه؟ وما هي جوانبه؟ هل أحبتني جدتي يومًا؟ لماذا أشعر بشيء ماكر ماحق هنا في هذا البيت؟

إن محمد لم يحدثني منذ حضرت إلى هنا، لم يرسل لي ولو رسالة واحدة، هل يمكن أن ينساني كل هذا الوقت؟ كنت أعتقد أن أجمل شيء يمكننا أن نحلم به يومًا هو البيت، وأن القلب الأحمر الذي نرسمه هو الحب، وأن قصص الحب الجميلة تنتهي بزواج الأميرات، وأنه مع فارسها الحالم لا وجود للنهايات الحزينة

أنا لا أحبك، كيف هذا؟ كيف ترسل لي يا محمد هذا؟ لماذا دلفت إلى حياتي واقتحمت عالمي وكأن العهد بيننا قائم؟ وظللت تذكر لي أن الحب حماية من كل شيء، كيف أمكنك التخلي عني هكذا؟ ولماذا حقًّا لماذا؟

تحمل العمة فوزية الطعام وتقول في أسى لا أصدق حقًّا تصلك الرسائل باستمرار معقول كل هذه اللهفة؟ أحضرت لك الهاتف اقرئي رسائله سأتركك تَفْرُغِين من

طعامك لكن لا تعتادي الأمر لدينا الكثير من العمل

ألمس الهاتف بخوف أمرر يدي على الرسائل تنهال الصدمات

لا أريد رؤية وجهك مرة أخرى

لا تحاولي التواصل معي

لا تكتبي لي رسائلك الغريبة هذه مرة ثانية لا تحاولي الاتصال بي، لا أريد حتى سماع صوتك

أما الرسالة الأخيرة

أنا أيضًا لا أحبك

غمست رأسي في الوسادة وظللت أبكي الحب وأبكي قلبي وأبكي الوقت والحضور والغياب كيف هذا محمد؟ ولماذا؟ لماذا أنا؟ ماذا فعلت كي أستحق أن يجرح قلبي هكذا؟ انتظرت في كل مرة شعورًا جميلًا يأخذني نحو الأحلام، فإذا بي أعود إلى نفس نقطة البداية هنا بين جنبات هذا البيت وكأنه سيصبح قبري، كيف يمكن للحب أن يكون مؤلمًا بهذه الطريقة، كيف أمكنك أن تقول هذا؟ كنت مخطئة حين فتحت قلبي وظننت أن تفتح أوراق الورود على يديك، سيكون رحيمًا كتلك الرحمة التي خبرتها عند أمي، وظننت في الماضي أن قلبي عليه حارسٍ قوي، وأنه لن يسمح لأحد باقتحام عالمه، وأنه وحده آمن، وأن رحيل هذا الحارس أَذِنَ له كي ينجرح بشدة، ماذا فعلت كي أستحقَّ منك هذا محمد؟ كيف أنَّ العمة لديها ابن تظل تتحدث عنه أمامي وكأنه المناضل الأكبر في الأرض والحرث والعمل، وتظل تخبرني أنها تحلم بيوم تراني زوجة له حتى انقبض قلبي

إن الأمور مشوشة، لا أُمنح وقتًا، وكأن كل الخيوط والخطوط قد تشابكت هكذا مرة واحدة،

تعود العمة ويعود الهاتف معها وأنتظر رسالة وأظل أرقب الوقت ثم أفتحها

افهمي هذا الأمر جيدًا سوف أطلقك لم يعد بيننا شيء يستحق النضال من أجله سيكون هذا الأمر قريبًا أيضًا كرغبتك

سحبت مني العمة الهاتف سريعًا ثم أخبرتني أن لدي الكثير من العمل وأنهم سيغيبون لأن جمع المحصول سيستغرق وقتًا عملاقًا بينما التفتت لزوجها ممتعضة قائلة:

هيا ما بال عقلك قد أصبح مترهلًا مثل وجهك هيا لدي ما أخبرك به، غادر الجميع وراقبتهم يرحلون وكأن الهواء يصبح له متسعًا حتى عودتهم

بينما دفنت رأسي باكية لا أصدق

لماذا هذه الرسائل الصعبة؟ محمد هل أحببتني حقًّا؟ أم كان الحب سريعًا ورحيله أسرع كسرعة لقائنا؟ هل كانت سرعة الحب بيننا كسرعة الوقت مرورًا كحبات الرمل في الساعة؟ لماذا كانت أولى هداياك لي بعد الخِطبةِ ساعة؟ لماذا آلمني هذا الأمر؟ ولماذا بكيت فظننت أنها دموع الفرح وظلت حقيقة خشيتي منها شبحًا يؤلم قلبي على امتداد العمر كحبات الرمال؟ لازمتني عمرًا كاملًا وأنا على أعتاب الحضور والغياب والوداع، لا أنظر إلا لها ولا أنتظر غيرها ولا يتعلق قلبي سوى بها، لماذا كانت الساعة أولى هداياك لي؟ هل كانت إشارة محمد؟ هل ينبغي أن أعرف أن الحب والوقت متلازمان؟ وأن الافتراق وحش كاسر حاضر بقدر خوفي منه، إن قلبي متألم جدًا كيف أمكنك أن تفعل هذا بي؟ ولماذا لمْ أطلب الحب يومًا ولمْ أسع له؟ كان خوفي أكبر من قدرتي على المغامرة

لماذا فتحت قلبي لك؟ كنت أول من يسكنه، لماذا شعرت بالاطمئنان بجانبك لتتخلى عني هكذا وبهذه الطريقة؟

في السلم كما في الحرب تطرحنا معارك الحب أرضًا وتُهلكُ قلوبنا من الحيرة ونتساءل لماذا؟

لماذا لمْ أحظَ بلحظة وداع كي أفهم؟ لمَ كان اللقاء آسرًا إلى هذا الحد؟ ولماذا بات انتظاري لوقت الحضور ناظرة لساعتك في يَدي حلمًا أرجوه

كيف يمكن هذا؟ لا بد أن هناك قطعة ما ناقصة، لا تكتمل الصور في الحب بالطريقة التي نتصورها ولا تنتهي قصص الحب هكذا دون وداع ما

وداع اختبرته كثيرًا ولَمْ أخبرك عنه، وداع كان حاضرًا خلف أعتاب المطارات مغادرة وقدومًا، وداع يرافقه انتظار ويظل قلبي يتساءل كيف سيمر الوقت وكم عدد الساعات احتسابًا؟ وكيف سيكون عقرب الساعة رتيبًا بطيئًا؟ وكيف يكون يوم حضورك محلقًا مثل الرياح؟ ما الذي فعلته كي يتألم قلبي هكذا؟ ولماذا أشعر وكأنني أسيرة وكأن التاريخ كله يتكرر هنا؟ كيف احتملت أمي جدران هذا البيت؟ وكيف كانت ضعيفة حد عدم القدرة على المغادرة؟ لا لا يمكن أن يتكرر الأمر مرة أخرى، لا

معي ولا بتلك الطريقة، حتمًا هناك مخرج ما

كان الهدوء كبيرًا، لم أسمع صوت أمي منذ فترة سأبحث عن هاتفي لا بد أنهم يخبئونه في مكان ما، إن البيت كبير والجدة نائمة ولو حدث واستيقظت لتعرفَ ببحثي عنه، لا أعلم هل كانت ستتركني حية بعد هذا الأمر

صوت الهاتف كان يجعل دقات قلبي تصل للسماء، أجيبي أمي

حين ردت في لهفة آية حبيبتي كيف حالك؟

رويت لها كل شيء، رسائل محمد ورغبته في الطلاق، حديثه عن الكراهية والتخلي وعدم فهمي، لماذا تزوجني إذن؟ لماذا لم يحاول مرة التواصل معي أو الاتصال بي؟

كيف هذا آية؟ متى حدث ذلك؟ هل أرسلت له رسائل ما؟ هل بينكما كدر ما؟ أخبريني أنا أمك

لا أمي، أقسم أنني لم أرسل له أي شيء، لقد انقطعت عن كل شيء منذ حضوري، لا يُسمح لي بحمل الهاتف، أعيش في جزيرة منعزلة

أنا لا أحبك... طلقني... أنا لا أريدك، بل مكالمة هاتفية لأمي اجعلي ابنك يطلقني... لا أريده، اجعلي ابنك يفهم، أخبريه أن يتركني... لا أطيق النظر في وجهه، أنا أحب ابن عمي، أغلق الهاتف لأنني لا أريد سماع صوتك لا تحاول الاتصال بي

هذه رسائل آية لي يا خالتي صفية، هذا كل ما كان يصلني حتى ظننت أنها لا تُريدني وأنها أخبرتْ أعمامها أخذًا لها كي تتركني وأنه على حد قولها لا تُريدني وتُريد الرحيل ولا تعرف كيف

لا محمد لا تصدق هذه الافتراءات هذا كله كذب

لا تترك آية محمد لا تتركها أرجوك

لم يكد الليل يلقي بظلاله حتى وجدت محمد قد قدم ومعه أهله وأصدقاؤه، رجال وشباب كثيرون ثم أخبرهم في تجهم، أريد زوجتي، أدركت حكمة أبي الثاني حين كتب كتابي وعلمت أن الله يرسل جنوده راعية بحسن عمل آبائنا وتقواهم لذرية ضعيفة وعين الله التي لا تغفل عن المظلومين حين تخفق قلوبنا استعانة به

علمت بعدها ما كانت تفعله زوجة عمي، ترسل له رسائل من هاتفي، أوغرت صدورهم وقدمت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة متباهية بما أرسله لي من رسائل كره،

قرأت الرسائل واشتعل الغضب بداخلي وتناولت الجهاز وأنا لا أصدق، أكاد أجن، كانت تمسح ما ترسله له من خلف ظهري ولا أرى أنا إلا رسائله المحملة بانفعال كبير، لا أعرف لم فعلت ذلك يا محمد؟ أجابني بحنان ما الفارق الآن نحن معًا رغم كل شيء، أنا هنا بجانبك لا تحملي همًا ولا تنظري للماضي

الحب لم أعرفه، ليس كما كنت أظن، الحب الصادق يظهر في أوقات الانهيار، الحب يد تقبض على الساعد وتعيدني للوقوف مرة أخرى، هل هدمتني الحياة في وقت ما محمد؟ لماذا تنحاز لصفي ولا تتنازل عني هكذا بتلك الطريقة؟ لماذا تشكل لي دفاعًا لا أطلبه وتراه في عيني فتحسن القراءة وتجيبني دون طلب؟ محظوظون فقط من يملكون الحب وينشرون عبيره لأنهم خبروه بقلب طفل وبسعادة طفل وببراءة طفل، قلبك حملني نحو الأحلام محمد، أنا التي ظننت يومًا أن السعادة كمركبة فضائية وأنا أحاول وسط كل هذا الإمساك بها برباط مطاطي، لم كان الرباط معك سميكًا قويًا مناضلًا ومدافعًا؟ ولم وقفت بخوف خلفك كما كان أخي خلفي ونحن نناضل ونتحمل أحزاننا وحدنا ودون أمي؟

كم كنت مخطئة حين أتتني تلك النبوءة الفاسقة، فلم أتبين ولم أتعلم من حكايا الماضي

تزوجنا بعدها بأسبوعين، وأنا في الصف الثالث الثانوي، كل الأخطاء التي اقترفها العالم تناثرت كسحب السماء حين يتخللها المطر في تناغم

كانت سنة قاسية لم أحصل فيها على مجموع كبير، والعام الثاني كنت حاملًا، وزوجة مجهدة، ومع ذلك حصلت على مجموع كبير، حتى ظهرت النتيجة والتحقت بكلية الآداب وقررت دراسة علم النفس، السنة الأولى في الجامعة كانت قاهرة، زوجة ومسؤولية وطفل صغير وبيت، كان الأمر طاحنًا وأنا التي تزوجت طبيبًا كنت أسعى أيضًا أن تكون لي شهادة جامعية أمي كانت تدعمني

أما زوجي فكان كنزًا من كنوز الدنيا، لم يكن عود يأسي يوشك أن ينقض إلا وأجده قد شد أزري وشجعني ودعمني، لم أكن لأصل لشيء ولا لأحصل على السعادة دون وجوده بعالمي، الحب إكرام، الحب لم يكن له لون ولا وصف في دنياي، لكنه معه كان رونقًا ممتلأً بكل ما هو زاهٍ وممتع ومبهج وباهٍ، إن جوفي غارق بالحب له فكيف يمكن لرب الكون أن يرسل لي عطية مثله؟ عِوَضُ الله شيء تلمسينه هنا في قلبك،

الأوقات التي كان يصيبني يأس ما واللحظات التي كنت أجد نفسي متراجعة ويفوتني الكثير من المحاضرات فتبادر صديقاتي دون طلب مني في دعمي بما فاتني، والطريق المجهد للجامعة كان يهون لأنه خلفي حائط لا أكاد أهوي حتى يمسك بيدي، يصنع الطعام أحيانًا ويخبرني بأنني صلبة وأن النجاح سيصل لعالمي وبأنني مميزة، وبأن كل شيء سيهون لأنه معي، كم أحبك محمد! وكم أحب الحب الذي عرفته على يديك!

كيف يمكن لدراسة علم النفس أن تكون قليلة هكذا؟ كيف يمكن لكل هذه الكتب ألا يتسع صدرها ليحوي كل هؤلاء الأشخاص والحكايا؟ لماذا باتت الكتب في كل المراحل الجامعية غير كافية لواقع وجدته أكثر قسوة مما نظن، ولماذا كان الحب متمثلًا حاضرًا على عالمي متمسكًا بي حتى النهاية؟ ولماذا كانت الشهادة الجامعية بالنسبة لي ورقة أظن أن الحصول عليها آخر المطاف وأن إعلاني أنني جامعية ولديَّ شهادة عُليا كان سيجعل نظرة أهل محمد تختلف؟ هو الذي تمسك بي حتى النهاية

لماذا اختلف وقع الأمر حين قررت أن أعمل وأن العمل سيجعل لي كيانًا أشعر من خلاله أن لي رأيًا ووجودًا ووجهًا للمقاربة دون المقارنة والفهم؟ لماذا كان محمد يدعمني في كل خطوة؟ ولماذا يمتلئ قلبي بالحب حد الخشية منه؟

العمل جعلني أشعر أن لي قيمة على هذه الكرة التي تدور في فلك كبير، كان هذا الأمر كائنًا كيانًا أحلم به وأنا أرى نتائج عملي مع أطفال التوحد، في البداية كان الأمر شاقًا ومجهدًا وجديدًا لكن مع الوقت عشقت هؤلاء الأطفال، ما أرحم الله حين يسخر قلوبنا وعقولنا لنبدع فيما يمنحنا إياه ويصطفينا بتاريخ معلم لحياتنا السابقة

إن أماني منبهرة، لقد تحسن مهند كثيرًا، إنها تبتسم لأن ضوءًا ما قد أنار بداخله ولم تتوقف هي عن السعي ولم يسمح لها زوجها بإنفاق المال الذي رآه لا جدوى منه وتبرع قلبي بلا مقابل للمساعدة؛ المساعدة التي كنت أنشدها مع كل نوبة صرع تصرع قلبي خوفًا على أمي، ومع كل لحظة خوف عشتها بعيدًا عنها، وعن محمد كيف لي ألا أشكل وجدانًا ما ليحتوي العالم، ليحوي قلوبهم ويشمل قلبي امتنانًا

عالم لفظني مرارًا ثم احتوى قلبي محمد كي ألمع حولهم جميعًا ومضة يضعها الله كي نكون سببًا في إنارة حياة الآخرين، تعلمت من الماضي ونقشت حياتي في حاضري

الحياة التي تجعلنا نكبر قبل الأوان والنضج الذي اختبره قلبي مع مرض أمي

وفراقها ورعاية أخي ودقات الباب المخيفة باستمرار لي والساعة الرملية تلك التي لا تمنحني استمتاعًا بالوقت بل خوفًا منه، غادرت حين حل اليقين هنا في جوفي

برعت معهم عشت معهم أحلامًا وآمالًا وأوقاتًا وبذلت جهدًا كبيرًا لكنه كان ممتعًا، ثمرة العمل شيء خلاق وخالص النبع

العمل ليس مالًا تتناولينه وتنفقين أثره، العمل نتاج فكيف حين يكون هذا النتاج تغييرًا حقيقيًا في حياة الناس؟

لا يخلو عمر أحد من المآسي والأشجان وألحان الحزن، لكن الرضا بها هو ما يجعلها تمضي وتتلاشى، ليحل اليسر في عالمنا كمصابيح مضيئة لليل كان يبدو لي أحيانًا أنه لن يمضي

وهاتف يطرق هذه المرة أذني بعمق ليحل خوف جديد وأنا هنا في بلاد الغربة عن وطن بعيد المشهد يتكرر وأنا عند أمي مغادرة وصوت أبي يرجو أن أتناول أول حقيبة عودة لرؤية أمي، العملية الجراحية كانت مجهدة وحالتها المتأخرة في غرفة العناية المركزة كانت مؤلمة لقلبي، كانت أشبه بنمر غرز أنيابه في جوفي دون رحمة، عين دامعة، وقلبي يختنق، أمي أجابتني لا تحزني آية أعرف أنني سأغادر، لا أمي أعلم أنك ستفيقين وستصبحين أفضل وسنقضي معًا رمضان هذا العام، أنت صوّامة قوّامة وأعرف في قلبي أنكِ لن تتركيني ليس الآن ولا بتلك الطريقة

اسمعي آية أعلم أنها النهاية، إن قدمي باردة وكلاهما يلتفان، ساقي لم أعد أشعر بها، أتعلمين حبيبتي أنني حلمت بكِ، حلمت أننا التقينا وأنكِ حامل وأنكِ ستنجبين بنتًا جميلة مثلك، أرجوكِ أمي كفى، لا تقولي ذلك اصمتي واستمعي لي

كوني قوية واعلمي أن الحب لا علاقة له بالظلم فاصنعي ذاتك ولا تبتعدي عن أبنائك، اجعلي الرحمة عنوانك وستخطو السعادة غادية لك من كل صوب، افرحي يا حبيبتي وتعلمي أن تتخطي أحزانك، كوني صلبة ولا تستسلمي، كنوز الدنيا زوج صالح وزوجة صالحة فاجعلي حياتك ممتلئة به، امنحيه الحب والعشق والحياة وسيمنحك الاحترام والإخلاص والرضا، سأكون معك في أحلامك فلا تركني للحزن يا طفلتي، هذا العالم الصغير ينقلب فيه الناس ببساطة على بعضهم البعض، اتركي لهم هذا الأمر وابتعدي

الطرق التي نسلكها قد تبدو أحيانًا سيئة وحادة وقاسية على أقدامنا حين نخطو بها وإيقاع طبول الكراهية في عالمي وعالمك يا آية كان شديدًا ومضجرًا، الحب ليس قرارًا آية الحب رزق، الحب الحقيقي ليس اختيارًا في وقت توهجك، الحب الحق هو اختيارنا حتى حين ننطفئ، الحب هو الذي يغير العتمة آية، أمي أرجوكِ هذا يكفي أكملت قائلة: أتعلمين حبيبتي أن السعادة والحب قرار فقط اتخذيه وستجدين ألوان الحب حولك جيشًا متألقًا وملازمًا وغازيًا حزنك فارسًا مجاهدًا

تيقني آية أن آلام اليوم يمحوها احترام الناس لك غدًا، فكوني مخلصة في عملك منتجة ومؤثرة، احملي قلبك وضميرك، قدمي النصح ابتغاءً لوجه الله وانتظري منه جمال العطية ورونق سعادة الرضا، وحين يغلبك الحزن انزعي أشجانك وبثي شكواك لرب الكون، أشياء كثيرة ستتغير فيك آية، ستبصرين هذا الأمر في عالمك وأنت تتقدمين في السن، تحملي المرَّ، لو أصابك، واعلمي أنه منحة لا محنة، ساندي غيرك وادعميهم حتى في أشد لحظات يأسك وخوفك واستسلامك، الحزن يا عزيزتي يمضي ككل الأشياء التي تَبْلَى، كوني علي يقين أنك لن تعلقي كثيرًا فيه فناثر العطر هو أول من يستنشقه

الحب ألوانه وألحانه وآثاره عدة، فاغزلي هذا الأمر دومًا في قلبك شمعة منيرة وأطفئي أنوار الحقد واليأس والتنازع الذي ترينه حولك بين الناس وكأننا لسنا على هذه الأرض ضيوفًا وقتيين، وأن الجنة بانتظار صاحب العمل الصالح

لا أتخيل حياتي بدونك أمي

آية السعادة مثل الضوء مثل النار اجعليها تسيطر عليك، فالناس لا يعودون مرة أخرى بعد موتهم، إنهم يصبحون كماء المطر حين يصبح جزءًا مميزًا من البحار والأنهار والمحيطات والآبار والينابيع الوردية العطرة، فليكن لك أثرٌ واضحٌ باقٍ في حياتك كي يزهر عطره بعد موتك حتى لو كانت إمكانياتك وقدراتك بسيطة ومحدودة داخل جدران بيتك الصغير هذا وعالمك المتضائل

فالشمس تغيب لكن هذا لا يعني أنها لن تشرق من جديد، ضوء النهار يظهر وأشجار أعمارنا الممتلئة بأوراق باهتة ومهترئة ومتألمة ومتعاظمة بالحزن لن تظل هكذا، ستسقط كي ينمو بدلًا منها أخرى يانعة يافعة خضراء حسناء مكتنزة بالحياة ونابضة، حياتي بدونك لا جدوى منها، لا معنى لها، كيف تتركينني الآن؟ لِمَ حياتنا ممتلئة بالترك

والفراق؟ سامحيني آية لَمْ أملك شيئًا في عالمي، لَمْ أقرر، أنتِ تعلمين هذا، لَمْ يكن بيدي حبيبتي صدقيني، لكنني أدركت أن كل حياتي التي تخلى عني فيها الناس بالدعم كانت حكمة كي ألجأ له وحده، أيقنت أنه صرف عني كل نصح وكل نصرة وكل سند كي يكون مرجعي وملجئي ودعائي له وحده، حب الله غاية آية أدركتها هنا حين تخلى عني كل شيء، الحب الأمل والصحة، مرضي لم يكن مؤلمًا لي بل لكم، حين تروننني هكذا أردت مرارًا أن أغمض عيني كي لا ألحقَ بقلوبكم الصغيرة هذا الجرح، وتمنيت أن يكون عالمكم صاخبًا بالسعادة فلا تجعلي تعاسة الماضي تأسرُك، تحرري منها ولا تلتفتي لمن يحاولون كسرك، اجعليهم يضحكون حين يظنون أنهم أغضبوك واملئي وطن قلبك بالابتهاج تغافلًا عمن أساء، فكوني من المحسنين، سامحي وامضي، فالله يا عزيزتي إلى قلوبنا ينظر، وعلى نياتنا نرزق، فجددي نيتك كل يوم، كتبت كل هذا لك في رسالة

لكنني أقصه عليك الآن؛ لأنني حفظته عن ظهر قلب، عن كل لحظة من عمري، عن كل نوبة صرعتني وأنتم حولي تتألمون حبًا وتبكون ضعافًا ودون حيلة عن لحظة بُعدٍ وأنا في بلاد بعيدة عنكم، عن كل دقة ساعة وحدي دونكم هناك... عن ذلك الوقت الذي لكم تمنيت أن تكونوا معي وحولي وأنا غريبة في بلاد بعيدة، وصوت بكائك الذي لا يصدر كنت أشعر به أشعر بدموعك وكأنك أمامي زهرة حزينة للفراق وخلفك أخوك بعينيه المشتاقة بلا فهم لكل هذا الترك والمضي.

اجعلي هذه الرسالة لك نبراسًا والجئي لها بعد الله حين يحتاج قلبك إزالة ما علق به من ذنب أو ران أو ألم

افتحيها ولا تبكي اقرئيها ولا تتنهدي اعقليها ولا تجعليها تغادرك، أضيفي لها تجربة حياتك حين تكبرين وحين تتقدمين في السن وحين تنجبين وحين تفرحين وحين تكبر ابنتك في رعايتك وحين يُرسم خيطٌ أبيض مثلج مُزْهِر فوق جبهتك

احفظي الرسالة جيدًا واجعليها شراعًا لقاربك تُبحرين فيه نحو السعادة حين تتمكن منك شرائط التعاسة أحيانًا تكون المرساة صدئة مهترئة فلا تقف في المكان المناسب ولا الوقت المناسب حين الإلقاء، عالجيه آية عالجي الصدأ بالذكر فهو خير وقود، أكملي مسيرتك دوني وسيغدو نور العلم والعطاء منك لغيرك منطلقً، مضى بي كل هذا العمر ولم أفكر في حفظ آية... مع أني أسميتك آية... ولم أدرك هذا إلا الآن

وأنا هنا على فراش المرض... مضى العمر سريعًا ولم نكن نملك وقتًا مشتركًا لك كي تحدثيني عن آمالك وأحلامك وأمنياتك وإنجازات قلبك الذي يدق خوفًا دائمًا عليّ اعذري الوقت والمرض والموت الذي لن يسمح كلٌّ منهم أن يجعل بيننا ذكرى مشتركة، خبرت الحياة لأعرف أن ساعات قليلة كافية لتغيير حياتك وأن الفرق بين اتخاذ القرار والمحاولة سريع كسرعة الرمال في الساعة الرملية

أمي كنت دومًا وطنًا لي... لا تقولي ذلك

بل إنكِ في وطنك الحقيقي الآن... وطنك هو محمد... غادري معه واملئي زمنك وزمنه بالحب

ستلمسين السعادة مع كل قلب تجعلين حياته أفضل لا تغادري الأرض دون ترك أثر ما علامة ما، وحين يغلبك الحنين عودي للرسالة وستجدين قلبي حيًا نابضًا بداخلك، وقتنا كان ساعة رملية نغادر فيها مودعين ونعود متلهفين وينتزع الوقت صدورنا ونحن مناضلون ملكنَا أوطان الحب في قلوبنا ووجدنا رغم البعد والوصال أنفسنا في الحب ومع جوانبه، كنا أكثر حظًا صدقيني لا يتركنا الله أبدًا أكملي ثنايا الحب في عالمك وانثري الوقت في الخير

حتى لو كان قليلًا غائرًا سريعًا كتلك الساعة

الساعة الرملية

لقاء

الحب حين ينبت من طرف واحد

تزوجيه لقاء، استمعي للنصح، اجعليه ينسى كل شيء، سيصبح ملكًا لك، سيكون عالمك مختلفًا، حياتك ستتغير بالكامل، ضعي هدفًا أن تملكي قلبه وعقله ولن يصمد حبه ولا حتى زواجه أمام أول طفل تنجبينه

أمي لكنني خائفة ومنزعجة لأنَّ بينهما حبًا عميقًا، ولا أعلم لم اختارني أنا بالذات

افتحي عقلك لقاء، الفرص تأتي مرة واحدة في الحياة، إما أن نكون أذكياء بالقدر الكافي لندركها وإما أن نجعلها تفلت من بين أيدينا

أمي المال ليس كل شيء، أريده أن يختارني من أجل نفسي لا أن أكون مجرد وسيلة يسعى من خلالها للإنجاب أريد أن يكون لي حقوق

لماذا تجعلينني أشعر أنني لا أستحق، رأيت أهله وأهلها وكيف يتفحصون جدران البيت وموائد الطعام وطريقة تقديمه

أردت الحب فكيف يمكن أن أعيش في ظله دون إبداء اعتراض أو جهر بمشاعري، لماذا ينبغي أن أسحق قلبي أنا إنسانة فَلِم تتلاشى الإنسانية أمام الفقر وعوائق الأحلام والأمنيات؟

أفيقي لقاء من قال لك إن المال ليس كل شيء

الحب لم يعد كافيًا والقلوب التي تتغنى به تتجمل خلف كل باب حكايا مستقلة من الوجع

صدقيني خبرت الحياة كي أعرف كيف نقضي نصف العمر ونحن ننتظر لقاء من سنحبهم والنصف الآخر في وداع من أحببناهم، الحب لا يزيل متاعب الحياة، تصبح الحياة فوضوية ومعقدة الثقة هي نصف العلاج لقاء

افرحي صغيرتي ببيتك الجديد هذا نصيبك فحافظي عليه وعاملي زوجته الأولى أختًا لك لا أريد رؤية عينك الدامعة تلك

وحين تنجبين اجعلي أبنائك بينكم أنتم الثلاثة أسرة متحابة، أخبريه أننا زرنا بلادًا خارج حدود مدينتنا، وأننا ما تركنا طبيبًا لعلاج يدك وانتظرنا النتائج، بذلنا الجهدَ، لكن أشرتُ لها أن تتوقف، كان الحديث في عمقه مهونًا لكن الحقيقة أنه نحر قلبي بشدة يد تبدو منسدلة لا أعصاب تحركها، إنه خطأ طبي أثناء الولادة صنع قطعًا ما وأصبح انسدال يدي عائقًا أمام كل خاطب يبحث عن عروس يمكنها أن تخدمه ترعاه وتشترك معه في حياة كاملة، حياة بيد واحدة وبنصف قلب وبعين حزينة

كان أحمد الفرصة الوحيدة، كانت خطبة زوجته لي كافية لأعرف رغبتها أن أكون أمًا تنجب الأبناء وتخضع لعمر كامل يرسمه لها الآخرون

كانت أمي تتكلم عن الأمر كبساطة إغلاق صفحة من جريدة التفاتًا لصفحة جديدة أما بالنسبة لي كان أشبه بزورق مهترئ في محيط مظلم عميق

اليوم الأول كان مبهرًا المكان متسع وأطراف قدمي تلامس السجاد الحريري تَشْعُر بسعادة وهي تغرس أوجاعها فيه، مطبخي وأدواتي وهاتفي كل شيء زهوته جديدة ومفرحة

عشر سنوات بينهما حب ساطع كفيل بإخبارك أن القلب لا يمكنه مغادرة وطنه الذي جبل عليه وعشقه الذي ما تمنى غيره دنياه التي قطع عليها عهدًا بلا مضي

كنت كمن يحاول إنقاذ قارب غارق وحدي وشهور العمر التي كانت تمضي بين ثلاثتنا لم تكن تزيدني إلا خوفًا

مائدة طعامي كنت أزينها وقلبي يخفق اضطرابًا حين تجتمع كل العائلة، زوجته وأهلها وأهله، وكان خوفي يظهر جليًا في صوتي الواهن وارتباكي الملحوظ وأصوات ارتعاش يدي وضوء وجهي المنكسر همًا من اللقاء وأجراس النصح من أقارب وصديقات لم تكن لتفلح في إخفاء حدته أو محاولة جعله قويًا أو علاج ضعفي وقلة ثقتي بنفسي، عام بعدها كي أغلق كل شيء تمنيت أن يكون حلمًا مزعجًا ومضى

أحببت طريقته في الحب لها، وظننت أن الوقت كفيل بكل شيء، الآن على وسادتي أعلم أن ثمة بريدًا سيحمل أوراق الانتهاء من بلاد بعيدة، يخبرني هاتفيًا بموعد وصول رسالة، أتظاهر بالقوة كي لا يرتعش صوتي وهو يقول: هل أنتِ بخير؟ لم يكن يعلم أنني أتداعى على الطرف الآخر من الهاتف، وأن الحقيقة التي هدمتني أنك لم تحبني أبدًا،

أحمد فطر ذلك قلبي، لا يمكنني تغيير الأمر عليّ فقط تقبله، لم يناضل من أجلي لأنه لا يقدر حبًا يتم تقديمه مجانيًا، ليتني لم ألتقك، ليتني لم أحبك إلى هذا القدر، ليته كان حلمًا كي لا يُدمي قلبي إلى هذا الحد وكأننا تقابلنا على محطة الفراق

كنت قوية بالقدر الكافي كي أفتح المظروف، وكان رقيقًا بالقدر الأعقد كي يحمل رسالة مرفقة

صدقيني لقاء لم أرد أن أظلمك ولا أن أجعل حياتك مظلمة، صدقيني لم أرد حقًّا أن ألحق بك الأذى، ولا أن أطبع في ذاكرتك ذكرى مخجلة ومحطمة لمعاني الحب

تعلمين أنني لم أرد قطع وعد لكِ بالحب حين كنت تتمنين دائمًا مني هذا الأمر فأنا رجل أفي بالوعود

اعذري الحب لقاء، فلم يصمد وجع زوجتي الأولى، ولا كان القلب بغرفة وورود شريانه لها متسعًا، لقد أنجبت زهرة توأمًا، إن عشر سنوات بيننا كانت كافية لي ولها، أعلم أنكِ ظُلمت لكن قلبي ما أراد لكِ إلا كل خير

سامحيني لقاء، تأكدي أن عامي معك كان مميزًا، ربما لو كان اللقاء في زمن آخر مؤكدًا أن قلبي كان سينبض بالحب لك

تأكّدي لقاء أن اللقاء بكِ لم يكن يومًا أمرًا عابرًا

اعذري الوقت والدموع والحياة

اعذري الحب وأنانيّته

أَنْصتي لصوت قلبك دائمًا

لا أَريدك أن تبكي وأنتِ تقرئين هذه الرسالة، لا أحتمل هذا الأمر، مزقيها لقاء، مزقي الرسالة، ومزقي معها كل الماضي

أتمنى حقًّا لكِ من أعماق قلبي أن يمتلئ عالمك بالحب

زوجك السابق أحمد

الأرض

علينا أن نجلس على هذه الأرض، أن نضع أيدينا عليها، أن نلمس تلك التربة لا يمكننا أن نكتب قصة حب عنها دون أن نلمس أطرافها بقلوبنا

التربة التي تهمس لك مرارًا كم كنتِ عليها قاسية حين حان موعد الحرث! التربة التي تبتسم لكِ حين تشعر برفقك وأنتِ تدسين البذور في أوصالها! التربة التي تشكرك حين تسقيها من عذب ماء طاهر فتمتص السقيا بنهم معلنة أنها ستخبرك بالنتائج صعودًا لأعلى من ثمر شهي لجوف طاهر، فتتعجبين من اختلاف الثمر وتنوع الزهر والخضر والأوراق والألوان التي تُزهر فلا يصعد من أعماق قلبك سوى كلمة سبحان الله! تربة واحدة ماء واحد وثمر مختلف ألوانه ما أعظم خلقك يا الله كذلك البشر

كل حكايا الحب التي نسمع عنها ما بالها كلها مختلفة ما بال الأمر لهذه الدرجة محير ما سر هذا الاختلاف

كان الأمر بالنسبة لي واضحًا، أنظر للتربة واحدة ولا ثمر يشبه الآخر، حتى المتماثل منه في النوع أيضًا مختلف، تلك حكمة الله لا شأن لنا بها

دائمًا كنت أغفل عن هذا الأمر، وأظل أردد هل هناك قصة حب بين كل زارع وكل مزروع؟ وأين الحب في قلوب أصحاب الفضل من هذا العمل؟

كنت أرى أن الحب موجود وأن الناس تنظر دائمًا للآخرين من زوايا أعين ضيقة، تزوجت صغيرة، غادرت منزل أبي وعمري أربعة عشر عامًا، رحيل كل فتاة منا من بيت أبي كان إنجازًا عظيمًا، فنحن تسع بنات أصر أبي على إنجاب ولد ليحمل اسمه فاجتهد حتى أصبحنا تسعة، وحصل على الأولاد في النهاية، قصص زواجنا كانت سريعة، البنت دومًا رزقها متسع كما كان يخبرنا

وحين يحمل متاع حقائبنا مغادرين يَقْسِمُ عطاياه علينا، ونقبل نحن في رضا احترامًا لظهره الذي انحنى شقاءً علينا، لي نصف طقم الصيني، ولأختي بقيته، حتى الملاعق اقتسمناها، ولفات القماش وأغطية الأرض من الحصير، أتذكر يومها فرحتي

حين أخذتني أمي للسوق فاشتريت الألوان التي كنت أرغب بها، كم أسعدني هذا الأمر كثيرًا، قضيت ليلتي فرحة وأنا أقول تُرى أين سأضع الحصيرة الوردية في غرفة النوم أم في الصالة؟ وتلك الأخرى ذات اللون الأحمر القوي أين أضعها ما بال الأمر محير لدرجة أن يطير النوم من عيني هكذا؟ تُرى ما هو الزواج؟ ولماذا لا أبصر خوفًا ولا فرحًا؟ ما بال الأمور كلها في ذهني مشوشة؟ الرحلة لا تقررين فيها وجهتك منذ وضع قدمك في أول طريقها، تعرفين بعدها ما أنتِ عليه مقدمة، مقدمة على سعادة أم شقاء؟ على فرح أم كدر؟ على سعة أم ضيق؟ على عقل يطبب أوجاعك أم نصف عقل يزيد شقاءك؟

رحيل لبيت كبير جدرانه طينية اللبنة فتبتسمين لغرفتك الصغيرة وتشعرين بزهو أنها مملكتك هي لكِ وحدك الآن، ويشترك معك فيها من يخفق قلبك سريعًا حين ينظر لك، جدران البيت كانت تمنحنا رطوبة ينكسر لها حر الصيف ودفء في شتاء قارص لقسوته فتجمعين الماء المنهمر في قدور وتسألين الله أن يحتمل السقف دموع السماء، حملنا القدور وجلسنا خلف أفران الحطب وتحملنا دخانها الخانق، يومنا كانت بدايته مع أذانِ الفجر الذي يطربُ قلوبنا من روعة النداء، عمل في الحقل أردت أن أساعد زوجي حبًا حتى صار الأمر بعد ذلك وكأنه واجب إلزامي، حتى لو كنت حاملًا، ويتعجبون من نعمة الصحة التي يهبها الله لنا، صرت للأرض حارثًا وواضعًا للبذور وساقيًا وحاصدًا للثمر المختلف ألوانه

ووقت حصاده هو المشرف على كل تلك الأمور من بعيد، يتناول أكواب الشاي ويأمرني بحصد الثمر، ويلومني ذمًا لو فلتت مني سهوًا ثمرة، ثم أمر بعودة لتجهيز غداء للبيت كاملًا إخوة وأخوات إلى آخر كل الكائنات، حتى تلك التي ينبغي علينا رعايتها من الطيور والدجاج، ولا أقول إن كل العبء كنت أحمله لكنني حملته كاملًا حين غادر إلى العراق، رحل مع من رحلوا رغبة في صنع مال في نظره أسرع من إضاعة وقت في وطن موارده محدودة، أنتَ لا تَتْرك إلا حين تتيقن أن لا مخرج لك سوى هذا الأمر، غاب لأعوام عدة وإرسال المال لأبيه كان واجبًا لبناء البيت وتجهيز الأخوات من البنات وتزويجهن بل وتزويج الإخوة كذلك عرفانًا بجميل منح أبيه له هدية التعليم وافتقاد منح تلك الهبة لبقية إخوته افتقارًا للمال

عودة ومرض حلّ على صدره الذي امتلأ بالسموم وهو ما زال في أوائل عقدِه الرابع، ظللت أفكر ماذا يمكنني أن أفعل، وزيارة مفاجئة من أبي وهدية ألهبت قلبي، فرحة غير عادية، ابتسم وهو يشاهد دموعي الفرحة ولم يغادرني إلا قائلًا لي: اللهم اجعل البركة تحل عليكَ فتملأ عالمك بالخير، ضاق بي الحال ولدي من الأطفال أربعة، وزوج مريض خرجت، بالبهائم لحلبة البيع فما كان للشاري قبل أن يشتريها إلا قائلًا لي: يمكنني أن أضحك عليكِ وأشتريها وأنتِ لا تعلمين عن خيرها، لكنني لن أفعل ذلك احتسابًا لله عسى الله أن يغفر لي أثقال أوزاري، ارجعي بها فهي حامل وأظن أنها ستنجب لك الخير الوفير

رفعت عيني وأنا ألهث بحثًا عنه كي أجده وكأنه ظهر من العدم واختفى أيضًا من العدم، عدت لبيتي وصدى كلماته يتردد في أذني، وعزمت على العمل على نصحه، ذقت لبنها ورعيت العطية حتى كبرت وأثمرت، كانت فرحتي لا تصدق، وبدأت في إنشاء مشروعي الخاص، لا يمكن أن أتخيل مدى فرحتي بأول مال أكسبه من عمل يدي، وكانت سعادتي لا توصف حين بعت أول كيلو من الجبن والسمن، أمسكت بيدي لأول مرة في حياتي مبلغًا من المال، آه لم أكن أتخيل كيف يمكن لهذا الأمر ألا يكون حلمًا، وحين يتحقق تقفين عاجزة تخاطبين جوفك حمدًا وشكرًا لله، ترى ماذا سأفعل؟ هيا بنا يا رامي ستلتحق بالمدرسة والعمل اتركه سأتكفل أنا بالأمر، ألحقتهم جميعًا بقطار العلم، وتفانيت في هذا الدرب حتى آخر قطرة من عرق جبيني، آلمني كثيرًا عدم قدرتي على إحضار حقائب متجددة لكل عام، وخبرت في أعينهم وجعًا كان يقتلني، وأنا أخيط أحذيتهم كي تتحمل مشقة ما تبقي من العام احتمالًا، الطرق المنكسرة تساهم في هذه المأساة أذى لأحذيتنا، فتشارك في الخدوش ويزيد أوجاعها أوجاعنا، زوجي أوقات سهره مع الأصدقاء لا تنتهي، وسوء يقضي على الخير والرزق في تدخين السجائر فيحترق المال ويحترق قلبي على شقائي، وأخاطب عقلي صبرًا حتى يشتد العود بأولادي

العود الذي كنت أنتظر أن يكون صلبًا ليحارب وأن يكون جذرًا عميقًا غليظًا ممتدًا إلى باطن الأرض كي لا يُنتزع بسهولة الحياة التي خبرت رياحها اقتلاعًا لكل شيء جميل، وخلف كل شقاء وحول كل محاولة للبقاء، العود الذي كنت أرجو أن يُزهر وأن

يشتد رغم صغره ليصبح في عطائه مثل الأشجار القوية التي حين يخلو عالمنا يومًا من الثمر يسهم ثمرها في ري جوفنا من الجوع ويحمي رأسنا بظلها المحمل بالنسيم

يمنحنا إشارة ما تجعل قدرتنا على المواصلة باقية ومستمرة لا أعلم حقًّا رامي متى ستصبح جاهزًا كمحارب؟ متى سترفع عني هذا العبء؟ وكيف سيحدث هذا؟ أنا المعلقة بك حد عدم رؤية خيط آخر من الحلول

الحلول التي كنت أبحث عنها مع أخيك حسن وأحمد وحتى أسماء، الحلول التي لا أعرفها؛ لأنني لا أبصر الحل، لكتاب مدرسي لم أقوَ على تجليده، إنهم يسلمونه لنا مفككًا وينبغي أن أدك خشبتين كي تضم الأوراق فلا تهرب ويهرب معها العلم الذي أريد حصاده فيكم، بقدر جمال وقت الحصاد للأرض لقلبي وللأوطان

الأرض تعني الحب، نتمسك بها لأنها الحياة وتنتزع منا أحبابنا وقت الموت وتمنحنا الأمل مع كل اختراق لبذرة جديدة

بذرة كنت أهم في كل مرة لثقلها بالخير وأهمس لها ألا تتأخر لأن الانتظار مجهد ولأن الأولاد صغار كي يفهموا أن الحرث والحصد والثمر بموعد كي ألبي احتياجاتهم، وأنه خلف كل بذرة وحول كل ملمس تمنحني الأرض عمرًا بقدر خدوش يدي التي اعتادت الأمر

بقدر الوقت الذي أنظمه في محاولتي للاستذكار والمساعدة والبحث أريدك جامعيًا يا رامي، أن ترمي الجهل خلفك لتستنير، أريدك راميًا ماهرًا يا رامي

أريد الأرض حاضرة في جوفك، معبرة عن طموحاتك، وحالمة بقدر اجتهادك، أريدك منتجًا مثلها مثل الأرض، وأريدك أن تملك البذور الطيبة وأن تزرعها في قلبك أولًا وحول من تحب

عاصفة قوية يبدو أنها ضربت المكان، عاصفة لم تحمل شيئًا سوى اللوم والضرب المبرح والهرب؛ لأن المال لم يعد كافيًا لما يريد، وأن إنفاقه خلف الدرس والعلم والمدرسة أمر باهت وخاطئ

وقرار مني أن تقف تلك المهزلة، إذا أراد الحياة فلتكن كريمة وإما فليعد من حيث أتى

تطور عملي حتى افتتحت محلًا للخضار اخترت مكانًا مناسبًا، موقعًا مقابلًا لمشفى

حكومي، أُحضر أصناف الفاكهة والخضر وأنواعها وأُجيد حسن الكلام مع موظفات وعاملات حتى غَدوا جميعًا أصدقاء لي، أُحضر طلباتهم وأطوف على القرى فأشتري الخضار الطيب بسعر رخيص آتي به من منابعه فأكسب ضعف الثمن، أحمله إلى المدينة؛ المدينة الفارغة من كل خير ومن كل شيء وفي أوقات ما حتى من العقول الراجحة

المدينة بكل أضوائها تختلف عن حياتي في القرية الصغيرة النائية البعيدة عن الأحلام، والحلوى التي كنت أشتهيها أحيانًا ولا أجرؤ على طلبها من أبي خجلًا، الحلوى التي ظننت أنني سأحصدها حين أصبح عروسًا جميلة ترتدي فستانًا لونه زاهٍ، ومتسع الحلوى التي ظننت أنها حين تلامس يدي فإن سكرها سيكون لاصقًا وسيغادر يدي حين يجري الماء عليها فينساب لنعومة يديّ؛ يدي التي أصبحت بشقوقها جدولًا للماء عليها كجدول الشقوق فوق الهضاب فأصبح يؤلمني ملمس الماء منهمرًا عليها

رقبتي أصبحت صلبة وكأنني أمارس رفع الأثقال تمرينًا رياضيًا لا يعلمون أنني أجدت تمارين الصبر بشرف العمل وكسوت قلبي وأولادي وزوجي بكساء العمل الممزوج بالفخر، فكان كتفي دومًا عاليًا ورأسي أعلى

تحسّن أمر زوجي حتى بات لرؤيته اقتناع بعملي، يفتح لي دكاني، يكنس لي محلي، ويجيد ترتيب البضاعة حتى أُحضر أنا باقي الخضر من القرية، مرة أحمله على رأسي كأوقات حمل الماء وإدخاله البيت من مكان بعيد، لا بد أن صلابة الرقبة وخشونة اليد منهج أيسر في نظري من منهج الدراسة والشقاء في حل واجب مدرسي لأسماء أو اختيار كتاب خارجي لا أعرف اسمه، وأظل أقف أشرح لونه ونوع الرسمة عليه لصاحب المكتبة فيبتسم بسخريه وينهرني كي أعود له ومعي ولو صورة منه

قررت تطوير عملي فطبعت لنفسي ورقة بعروض المرأة العاملة، تنظيف الخضر تجهيز كل شيء، تسهيل على مكافحات العمل أمثالي في أوطانهم الأخرى، حتى ذاع صيتي وأصبحت أحضر لهم كل ما يريدونه، منظفات أغذية....

إن دكتورة نجاح تقترح عليّ أن أحضر محمولًا وأن هذا سيسهل عملي على حد قولها، ثم أصبح لكل موظفة وقت ما أتناول طلبها وأظل أحفظ في عقلي ماذا تريد وكم عدد الكيلوات وما الذي تريد تنظيفه وتحضيره وكم يكلف حساب الأرقام، ولا يكون سهلًا لي أن أكتبه لأنني لا أعرف الكتابة فيظل عقلي متيقظًا لكل طلب لكل موظفة

وخلف كل موعد يريدون تجهيزه، فيستجيب البعض برحمة حين أخطئ أحيانًا وينهرني بشدة آخرون لأنني نسيت شيئًا، وبين كلا الضفتين من البشر كنت أرى الأرض والسماء

وأظن أن البعد بينهما ليس نقيضًا بقدر احتياج كلا منهما للآخر، وبقدر قلبي المعلق بينهما

مع تعدد الأرقام والأوقات كانت كلها تشكل في عقلي بذورًا وكأن رأسي أصبح أرضًا يستقبل البذور كل يوم بحكمة محارب وينتظر الري ويثمر الحصاد آخر اليوم

الأرض التي أصبح رامي بعد دخوله الجامعة كارهًا تاركًا لها هل كانت المدينة أكثر اتساعًا كي لا تحتوي قلوبنا؟ هل كان رحيله لمدينة أكبر حيث حلمه الجامعي يشكل له هربًا ما أم وهجًا كي يصنع فيه كل هذا البعد؟ لقد طال غياب رامي، بقيَ شهرًا كاملًا دون زيارة أو اتصال، أنا قلقة عليه، لن أكلفه بعمل شاق، سأحرص على الانتهاء من كل الأعمال قبل حضوره، مؤكد أنني مخطئة، إنه يتعب في الاستذكار، إن أمور العقل وتلك الحسابات مرهقة

لن أكلفه أيضًا بمحاولة مساعدة أسماء في دراستها، ولن أهدر طاقته كي لا ينصرف عن الحضور، أريد أن يكون وطني وأرضي هنا أكثر احتواء واتساعًا له من كل شيء

لكن الغياب طال ولا يجيد قلبي الانتظار

سأبحث في الأوراق عن العنوان، سأخبر دكتوره هناء أن تكتب لي العنوان في ورقة وأن ترشدني أي نوع من المواصلات ينبغي أن أركبها

إن ركوب الباص وسرعته كانت تجعلني أقلق أنا التي لم أغادر الأرض والأوطان وقريتي الصغيرة، وانبهرت ناظرة لسيارات أخرى أسرع ولمحاولات أصحابها للحاق بأشياء أهم في عالمهم، مؤكد أنهم يملكون أرضًا تحمل محبتهم ويسعون وراءها مثلما نسعى نحو الأوطان، مات أخي في الحرب وعشت أنا وإخوتي وحتى أبي زهو الانتصار، حملنا أحلامنا إلى السماء ولم يصمد أبي حزنًا عليه ولم يُشكِّل داخلي الوجع سوى الخوف، الخوف على الأرض ومنها لأنها الحياة

الحياة التي أنشد فرحتها تؤلمني عيني جدًا لا بدّ أن دخان الأحطاب كان كثيفًا كي أحتمله، إن خبز الخبز وصنع الطعام أخذ مني وقتًا رصصت، طبقات الخبز حتى باتت جوانبه وقد صُنعت بمهارة كي يحتويها هذا الصندوق، رصصت الحب كما رصصت

بضاعتي في كل يوم وأنا أحاول الجهاد كمحارب قوي، حملتُ الصندوق على رأسي وهبطت واضعة إياه بجانبي كي أبدأ في رحلة للوصول إلى المدينة الجامعية حيث يسكن، ورحت أخاطب الطلبة وقلبي يخفق بشدة لِمَ أنا خائفة إلى هذا الحد؟ بادر الجميع تعاطفًا معي، وزاد فألي الحسن حين هموا لمساعدتي، وتبرع أحدهم لأخذي إلى باب المدينة الجامعية وكأنه مرشد كضوء، إن المبني مبهر وعال، كيف يسكنون في هذه المباني الشاهقة العالية؟ إنها أعلى من أعواد الذرة التي أختبئ بداخلها لقصر قامتي، وأكثر اتساعًا واحتواء لقلبي دونهم

هممت بالدخول حين أوقفني الحرس الجامعي ها أنتِ إلى أين تذهبين؟ وضعت الصندوق عن رأسي فلامس الأرض النظيفة التي يبدو أن الماء غادرها منذ وقت قليل

الحقيقة أنني أبحث عن ابني، إنه يدرس في المرحلة الثانية وهذه بياناته

تناول أحدهم الورقة بينما أشار آخر بامتعاض أن أبتعد عن الطريق وأن أقف في جانب أنتظر استدعاءه، بدا لي كشخص لا يمكنه أن يستأثر بالاحترام الكامل، رفعت عيني وأنا أتأمل المباني، كم هي عملاقة! والأشجار لم تبدو هنا مختلفة؟ هل تختلف باختلاف المدن أم لديها أحلام أخرى لا تتفق مع أحلامنا هناك في قريتي الصغيرة؟ كيف يمكن أن يشكّل ظلها فارقًا هنا عن هناك؟ وهل حملت معها طباع أهل المدن فأصابها غرور ما بأنها أفضل؟ لا بد أن المتماثل منها أيضًا مختلف، مختلف كاختلاف الثمر النابع من الأرض، وكاختلاف قلوب البشر ورحمتهم

تجنبت الطريق بينما أشار لي أحدهم بالجلوس على الرصيف لأن الوقت سيطول حتى استدعائه، بينما دلفت سيدة يبدو عليها الوقار وترتدي ملابس جميلة وبشرتها ويداها ناعمتان تشترك معي في الطلب وتختلف عني في الحضور والهيئة بينما سارع أحدهم لإحضار كرسي لها كي تنتظر ابنها هي أيضًا

كان حضور رامي من بعيد ثقيلًا وقد ارتسم على وجهه غضب كبير، غضب لم يكن يطلقه حين أطلب منه المساعدة في الأرض، وأظل أُذكِّره أن مرور ماء الري عبر تلك القناة التي صنعناها لن يصمد وأن علينا أن نغير اتجاه الري وأن نوازن الماء في كل قطعة وحول كل احتياج فيستسلم جاهدًا وهو يحاول أن يخبرني بعينيه لا تجهدي نفسك في تعليمي، لن تكون تلك حياتي، يعجبني دائمًا نضال الماء في الحياة إذا اعترض سبيله

عائق غير مجراه، ليتك مثله رامي مجاهد مناضل مثلي

ثم كان صوته عاليًا ما بك؟ كيف تأتين إلى هنا؟ هل تتعمدين أن تفضحيني أمام أصدقائي؟ ما الذي جاء بك؟ أخبرتك أنني سأغيب وأن لدي كثيرًا من الامتحانات؟ وأن الوقت سيكون طويلًا؟ كيف تفعلين ذلك؟ هيا عودي، أجبته بصوت مرتجف أحضرت لك زادًا يكفيك وطعامًا، أجاباني: انظري، وهل يحضر الناس الأسبات والصناديق، أمي أفيقي كيف سيكون مظهري إذا أخذتها منك؟ هل تتعمدين إحراجي؟ سأزوركم الشهر المقبل، لا تكرري مثل هذا الفعل مرة أخرى

تناولت صندوقي وشرعت عائدة، لم أركب مواصلات لموقف الباصات، آثرت أن أمشي تلك المسافة ربما يسهم النسيم في سحب كل الانكسار الذي حدث لروحي، وربما تسهم الدموع في علاج التهاب عيني من الدخان، كانت أمي تخبرني أن الدموع تغسل العين وأنها برغم حرقها لقلوبنا تفرغ غضبنا أحيانًا لقلة حيلتنا، كان الحذاء يعاني يجاهد كمحارب، هل كان هو محاربي يدفع عني أذى الطريق أما أذى قلبي فلا؟

لماذا باتت المباني المبهرة أصغر احترامًا في عيني من بيت صغير في وطني حيث أحارب جوع الصغار ومرارة الجهل خجلًا لأمر لا ذنب لي فيه؟

ولماذا بدوت لي يا رامي محاربًا أَبْصَرَهُ قلبي يعاني في وطن بديل خالي الوفاض ومتعجرف لاعتبارات بائسة؟

ورحتُ أحلم لقد قبَّل رامي يدي فور رؤيتي، أحضر لي كرسيًا خشبيًا ونهر الحارس قائلًا: هل هذه الطريقة المناسبة لمعاملة سيده كبيرة في السن؟ ثم تناول مني صندوقي فرحًا وأخبرني أنه يحن لطعامي المميز وخيره الممتلئ بالسمن واللبن والقمح، وأنه سيظل يوزع من هذا الطعام ويفتخر بجودة صناعته ووفرته أمام الصحب، سيخبرني أنه يتمنى زيارتي له مرة بعد مرة، وأنه يخشى عليّ من طول الطريق وقسوة أهل المدن، سيعدني أنه لن يُطيل الغياب لأنه يعرف أنني لن أطيقَ فراقه فلن يطيلَ الابتعاد، سيكتب لي رسالة ويرسلها مع العائدين للقرية ويطلب قراءتها احترامًا لأن نظري لن يكون قادرًا عليها لا لأنني لا أفهم سطورها، سيكلمني عن يومه وعن وقته وأحلامه وأمانيه، وسأبني معه الحلم حتى لو لم أكن قادرة على التحقيق

سيكلمني عن إخوته وسيساعدني كي يصل نور العلوم والفنون لهم، سيخبرهم أن

الكفاح ليس أمرًا خاصًا بهم فقط بقدر أرض أردت لهم بناءها بالعلم ومسلكًا أعرف أنه سيهديهم وقوفًا عليها إلى الجنة، وسيحتضنهم وقت لقاء الله فيكون نورًا ممتدًا برحمته وحده

لكن الأحلام تظل أحلامًا تحمل الآمال وتُرشدنا أحيانًا، لكنها سريعة الاختفاء، لا أعلم حقًّا رامي الفرق الآن بين الحقيقة والأحلام، ولا الفرق بين البعدين اللذين كانا يحيرانني كالأرض والسماء، ولا الفرق بين الطرق وقاطنيها وقاطعيها سفرًا لو كان للطرق ألسنة لكانت تكلمت لتخبرهم بأن طريق العودة بات وكأنه صفحات تتمزق كتلك الصفحات التي كان يمزقها الطلبة في اليوم الأخير بعد الامتحانات، وأظل أرقب الأوراق المتطايرة وأجمعها كي تنفعني وقودًا كالأحطاب للأفران والخبز والعجائن، وقودًا كنت أظن أنه يساعدني لكن الوقود الحقيقي الذي أردته لقلبي كان حسن اللقاء معك رامي، رميت أنتَ بكل الشوق إلى الخلف خوفًا من أجل الصحب والدرس والحياة، الأوراق البيضاء التي كنت أتفحص الخطوط فيها فلا أفهم المعنى لكنني أعلق على النظم كي يتحسن ويصمد متزنًا على الورق كما الحياة

لا أعلم إن كانت رسائلك واضحة وجلية وأنا المخطئة كي لا أعيها بالشكل الذي يرضيك وأن الرسائل قد تكون أمام أعيننا لكن قلوبنا ترفض الاعتراف بها، هل كان حبي لكم أكبر من قدرتي على فهمها؟ وأن القرب منكم قد يؤذي قلوبكم بهذا الشكل؟ ربما كانت الحلول هي السبب، الحلول التي كنت أبحث عنها دائمًا حول كل حلبة رزق أسعى خلفها، الحلول التي كانت جاهدة في العلم ومرشدة لي أحيانًا كمنارة، الحلول التي ظللت أبحث عنها طوال حياتي وأجعلها دائرة عملاقة حولكم، دائرة منتظمة أصب فيها الخير وأحرص عليها كي تكون طرقاتكم أقل عسرة من طريقي شفقة عليكم، الطرق التي كنت أجمع فيها روث البهائم خلفها بين الطرق فأحملها وأجعلها تجف وأحرص على استدارتها دون نتوءات كي تكون منتظمة فأستخدمها كوقود وأعلن خلف الأفران ولهبها ودُخَانِها أنني أواجه الطوفان بصدر محارب لكن المواجهة كانت بسيف حديدي فلم أفلح

ظننت أن العمل رحلة وأن الكفاح ضوء وأن تعثري وضعفي في كل وقت سقطت فيه كان رسالة كي أنهض وأكمل المشوار، لكن بعض دروس الحياة نستوعبها بعد أن نكون قد خسرنا الجزء الأجمل والأكبر من حياتنا

أنتِ شخص لا يتخلى عن الأمل أمي مثل اسمك أو عن أحلامه بهذه السهولة تتمتعين بقدرة فائقة على المثابرة والتحدي هذه كانت كلماتك لي يا ولدي

أردتك محاربًا عني رامي في كل يوم ورحت أعتبرك نبتة ما أردت سوى أن تكون جذرًا عميقًا ممتدًا نحو الأرض ولم أعرف أن الأرض نفسها تتبدل وأن أوقات الحصاد وأزمانها تفترق وأن بذل الجهد في جمع غلال القمح وتحمل رذاذ الحصد أمرٌ ليس هينًا، وأن حصد أعواد الذرة وطحنها كعلف واختزان سمن الشتاء لوفرته وجودته عن سمن الصيف غاية الحب، وأن صنع الطعام يشبه صنع الحب وأن الرعاية ليست أبدًا مكلفة وأن البذور هي البداية دومًا

وأظل أذكرك في كل مرة ومع كل بذرة نغرسها معًا وخلف كل حرث أن الله هو من زرع من أوجد البذور ومن جعلها أيضًا تشق الأرض بينما نجلس انتظارًا

الشقوق التي تبدأ دائمًا في منطقة صغيرة ثم تمتد كجدول ماء يجد له طريقًا في الأرض بصعوبة في البداية ثم يظل يرتفع ويتسع كتلك القناة التي شكلنا جوانبها معًا وحول الحياة مع كل ري حتى يغطي مساحة لا بأس بها مساحة قلبي بأكمله

عذرًا صغيري وعذرًا لقلبي وعذرًا للرسائل التي فاتتني وتلك التي أنتظرها وتلك التي أتمنى حصادها بفرحة

ككل حصاد لهذه القطعة من قلبي

لهذه الأرض

خط ضعيف

الحب يجعلنا ضعفاء أحيانًا هذه حقيقة الحب يجعلنا نرتكب الحماقات أمي

ما زلت صغيرة أميرة، تنظرين للحياة بعقلك، أتعجب منك أمي! ما زلت تبثين الحب حتى في أشد أوقات وجعك، لماذا لم تتوقفي يومًا عن العطاء؟ لماذا كنتِ وما زلتِ متسامحة متهاونة في حقك إلى هذا الحد أراه قاسيًا معك، لا تظلميه أميرة

إن عمله يطغي عليه، جميعنا نملك قلوبًا تتغير وتتبدل، لا تفقدي ثقتك بالحب ولا تجعلي حياتك بلا روح، ابتسمي للحياة وأخبري قلبك أنه يستحق السعادة

السعادة أحيانًا قرار قد نتخذه وقد نتخلى عنه

ليت الأمور بتلك البساطة أمي، ليتني حقًّا سعيدة أشعر وكأنني زهرة لا تملك مكانًا كي يُزهر عبيرها، إن الأوقات السعيدة في عالمي سريعة وغير حاضرة، إنني أختنق وكلا ولديّ يتألمان

أميرة لا أحد تخلو حياته من المشكلات، تعلّمي أن تتخطي عقباتك وأن تبذلي جهدك في تغيير غيرك للأفضل

أجبتها وهل غيرتِ أنتِ حياتك للأفضل أمي؟

أميرة أرجوكِ لا تكسري فؤادي عليكِ لا تجعليني قلقة

خبأت دموعي التي تساقطت بداخلي كي لا أؤلمها، آثرت تغيير حواري معها كي لا تنزعج، لقد كبرت بالقدر الكافي الآن كي لا أشكو إليها أوجاعي، بادرتها قائلة: نعم أمي أنتِ محقة، لا تقلقي، هناك حل دائمًا لكل مشكلة، ستصبح كل أموري طيبة وستسمعين عني أخبارًا حسنة

اتسعت عيناها فرحًا وابتسمت شفتاها وقد أوهمتها أن نصائحها جعلتني أتراجع وأجنب مشاعر قلبي، أما في داخلي فكنت أتمنى حلًا ولا أجده

تناولت حقيبة دوائها وظللت أتأكد من أوقات وجرعات المسكنات

حين كنت أسمع عن أوجاع مرضى السرطان وأرى عنها دعايات تلخص

أوجاعهم الفائقة وتصور حياتهم الممتلئة بأدوية حارقة ولا أمل... سرعان ما كنت أنسى فلهب النار لا يحرق إلا من يلمسه وألمي عليها كان أكبر لأنني غير قادرة على رفع الحملِ عنها ولو قليلًا

نَعم إنها بحاجة لعملية جراحية، قالها الطبيب، الأمر مكلف وقد تحتاج أن تظل في غرفة العناية المركزة فترة، ظللت أفكر فيما سأفعل وأنا أحاول تمضية الوقت مطمئنةً لها أنّ الطبيب طمأنني وأن الجراحة ستكون ناجزة وسريعة وأنها ستتألم لبرهه ثم ترتاح في النهاية

تكفل أخوالي بكل شيء وكان استعدادها لأمر أشبه ببطلة قررت أن تكافح من أجلنا حتى النهاية

كاد قلبي أن يقف وأنا أنتظر مع شهد ولين وفاطمة خارج غرفة العمليات بينما ظل أبي يتذمر من فاتورة المستشفى التي فاقت توقعاتنا جميعًا، ومن كل ما سيتبعها من علاج مكلف دون طائل معهود ولا فائدة مرجوة الأمر بالنسبة له مسألة وقت

عندها عقدت عزيمتي حين رأيته هكذا، أعطاني المشهد إذنًا كي أغير نفسي وأعيد ترتيب حياتي بأكملها، ستخرجين من هنا أمي، وسأخرج هذا الزوج من حياتي إلى الأبد، لن أقضي عمرًا مثلك كي أغدو في نهايته مجرد رقم مالي لمرض لا تجد فيه من يتحملك ويقتسم وجعك؛ لأنه لم يكن يحبك منذ البداية

ثمة أشياء يمكنها أن تهز الهضاب، تحملها في جوفك دون أن يكون بإمكانك الحديث عنها أو إطلاقها، يصبحُ الهواء أفضل، تملكُ رئة جديدة وكأن مذاق الحياة اختلف، الكون كله تبدل حين حصلت على الطلاق، لماذا كان التأخير عظيمًا ومجهدًا أميرة إلى هذا الحد؟ ظللت أبحث عن ذكريات سعيدة تجمعني به تجعلني أرتاح أتراجع أمنح العقل هدنة فرصة ما للقرار

التعافي من أوجاع الحب يشبه التعافي من السرطان، كلاهما بحاجة للوقت، وكلاهما لا يملكان نتائج مؤكدة للشفاء

لطالما أحببت غرفتي في بيت أبي وأمي، لماذا كان لها سحرها الخاص؟ لماذا كانت كبيرة؟ ولماذا باتت بعد طلاقي أشد اختناقًا من كل شيء على ظهر هذه الأرض؟

تصبح الأمور أثقل وأنتِ تملكين أطفالًا دون عمل وكثيرًا من العتب

تارة للعودة وتارة أخرى تذكيرًا بحمل المال ورعاية الأطفال والحياة مكلفة

كان عزائي الأوحد رؤيتها تتحسن وبسمتها كانت تخترق الفؤاد

أراك اليوم أفضل، يبدو أنكِ تتعافين أمي، أجابتني: بل دعك مني المهم هل تعافيت أنت؟ لماذا تقلقين عليّ؟ أصبحت كبيرة الآن أمي، إذن لماذا تريدين العمل أميرة؟

لا تكوني حساسة لكلمة أبيك بشأن المال والنفقات، لا تجعلي تلك الكلمة تشكل ثقلًا عليك أميرة، إن البيت يتسع لك حبيبتي فكيف بقلبي الذي لا يمكن وصف حبه لك

لا تقلقي من أجلي أمي، أنا أتعافى من الحب كما تتعافين من السرطان، أصبحت قوية بالقدر الكافي كي أعيش على قدمين لا أن أقضي حياتي جاثية عليهما

هل حقًّا الحب كالسرطان أميرة؟ هل حقًّا كلاهما لا يملكان نتائج مؤكدة وكلاهما بحاجة للوقت؟

لا أعرف أمي

أميرة أريدك مشرقة لا تجعلي اليأس يدب بأوصاله في ثنايا روحك فيسحق فؤادك دون رحمة، ولا تستسلمي لكبد الحياة وهي تضع أحمالًا كالجبال على رأسك، أنتِ قوية

لم أكن ضعيفة ولا مستسلمة طوال حياتي كما تظنين لا يمكننا اختصار الحياة في المشهد بين أبيكِ وبيني... لكنك لم تكوني تأخذين حقك أمي

أرأيت هذا هو الأمر هذا ما تظنينه لا تعرفين عن الحب أميرة جاهدت في حياتك كي تحصلي عليه

أنا أحبه وأتقبله وأنا راضية... الحب أمر مختلف محير أحيانًا أميرة

لدينا حياة أمي ليس هو من ضمنها

أجابتني لا تكوني قاسية... من أجل نفسك

لا تقلقي أمي أستطيع تدبر أمري

لقد حصلت على عمل بسيط ساعات العمل طويلة قليلًا وهذا شرط صاحبه لكن الأمور ستكون طيبة ببركة دعائك

أيامي الأولى في العمل كانت مجهدة لمن اعتاد الراحة، والشهور التي تلتها من بعد ذلك كانت أشد من حد السكين، إرهاق العمل كان يتجلى في عينيّ كوهن عينيها المجهد من السرطان وحين تلتقي عيوننا ننكر متاعبنا

كيف حالك اليوم أمي؟

أنا بخير أميرة إنني أتحسن ألا ترين؟ كان قلبي وقلبها يعرف الحقيقة

أميرة ما رأيك أن تغيري الجو قليلًا فاطمة أرجوكِ ليس لدي وقت، تعرفين أن العمل مجهد وأن غياب يوم واحد قد يعني فقدي له لا أريد المخاطرة

لا تقلقي كل شيء له حل

لكن فرح هناء الخميس القادم، وأود أن نذهب معًا، ما رأيك؟ إن لم تذهبي لن أذهب وأنا حقًّا أريد الحضور، ستتولى خالتي سنية أمر المكوث مع أمي، دعينا نغير الجو قليلًا

كان الزفاف جميلًا جميعنا كنا سعداء ذلك اليوم وشعرت حقًّا بتغيير جعلني أنسى شقاء العمل وجرح قلبي وأبتسم، كان كلاهما فرحًا ظللت أدعو لهما بالسعادة

وأن يكون ما بينهما حبًا حقيقيًا

الحب الذي انتظرته وفررت منه حين أصبح عالمي داكنًا معه وقلبي حزينًا أغلب الوقت، وكأن محيطًا كبيرًا يفصلنا برغم أن مكانًا واحدًا يجمعنا

عقبات كثيرة كان تقسم ظهري، عمل شاق، متاعب الأولاد، تحملي لنفقاتهم الكاملة كانت شرطًا كي يتركني أغادر، تنازلي عن كل شيء كي يظلوا معي وكان هو يرقب الاستسلام من بعيد

أما أنا فكنت أجاهد دون توقف

وأظل أتساءل: ما الحل وابني الأكبر على وشك بداية المرحلة الثانوية؟ وقد أصبحت غرفتي ضيقة كي تكفينا عن كل شيء...حتى لو استأجرت شقة أميرة ستكون مكلفة، ثم إن الدروس والمواصلات عِوَضٌ عن الغذاء والدواء يا الله ما الحل؟!

حين قفز في بالي أمر شقتي، إنني لم أتنازل عنها، نعم لم يلتفت أبوهم لهذا الأمر، عَرَف أنني سأعود بائسة وحيدة لبيت أبي وأنني لن أحتمل المكوث هناك، وسأعود مطالبة بالتسامح والسماح لي، أن أبقى فقط كائنًا على قيد الحياة في ذلة هكذا أخبرني

لن تصمدي كثيرًا أنا أعرف هذا

كان الأمر يزداد صعوبة، أنتظر رأيًا من عمي أحاول جعله يُقْنِعُ أبي أتفرغ للحديث وإيضاح معالم المشكلة مع الخال إنه بعيد، الجميع مشغولون منشغلون

أما أنا فكنت أختنق ولا أعرف مخرجًا، وأتساءل إن كان هذا بلاء فأنا صابرة، لكنني لم أعهد الاستسلام، وماذا سيحدث لو ظللت في مكاني ثابتة دون أن أحاول؟

كان اللوم حاضرًا، أنا السبب تحملي إذن ولا تشتكي

وقرار مني بأخذ أمر للتمكين من حضانة أولادي في شقة الزوجية

كانت الشقة بسيطة، وكل النقود التي كانت معي أحضرت بها مرتبة كبيرة لي ولهم افترشتها على الأرض، وعين واحدة كي يمكنني طبخ الطعام، والمكان يبعد عن أمي مسافة والمواصلات مزدحمة وغير متواجدة أغلب الوقت، لكنني رغم كل ذلك كنت سعيدة ورحت أرتب أحوالي، ماذا سأحتاج؟ ما هي الأشياء التي ينبغي إحضارها في البداية؟ وكان إسلام وأمجد يتوليان المساعدة ويفرحان قلبي بالحصول على درجات عملاقة

لكنني ومنذ الليلة الأولى كنت أعلم أنني سأظل فترة كبيرة قبل أن أقف جديدًا على قدمي

الذهاب كل يوم قبل العمل لبيت أمي كانت شهد تصحو باكرًا تتولى كل الأمور، أتسلَّم وقتي أذهب للعمل أعود نهاية اليوم أَقْسِمُ جهدي بينها وبين بيتي الجديد تشتاق لي وأشتاق لها وأشتاق لتعريف محدد

ما هو الحب؟

ولماذا قد نعيش لننشده ولا نجده؟

ثمة جوانب في الحب لا يمكنك رؤيتها، لا نتائج باهرة في الحب صدقيني

أتمسك بزوايا الماضي وأفتش عن شيء يجعلني أتراجع فلا أجد، أنا لا أحبه

كيف يمكن أن نكمل حياتنا دون الحب؟ لماذا أميرة؟ حدثت نفسي وأنا أتذكر كل شيء ويمر عام خلف عام وفي كل مرة أُكذِّبُ قلبي وأقول يمكنك أن تكملي، إن القلوب حين تفترق لا يكون الأمر هكذا هينًا سريعًا، لقد كان جدارًا ينمو يومًا بعد يوم، ولا أشهد فيه حتى غيرة عليّ ولا دينًا يجعلني أتمسك بالبقاء حين حاولت الإصلاح مرارًا

كان إسلام وأمجد الشيء الذي أضاء عالمي، الحب لهما يشبه حب أمي لي، نقي بسيط وخالٍ من الأوجاع منمق وعاطفي ويحمل بيننا روحًا جميلة، إنه ممتلئ رغم كل شيء بالابتسام المزهر

أحبك أمي، أنهيت صلاتي داعية بالفرج وانصلاح الحال، تحسنت الأمور قليلًا في العمل، أصبحوا يقدرون ظروف التأخير من أجل أمي ويمنحونني عذرًا للمغادرة باكرًا كي ألحق بها ثم العودة للأولاد والاستذكار وتحضير الطعام لليوم التالي، الأهم

معرفة هل سيكفيني المال حتى آخر الشهر

كم كانت الأمور أسهل، صغارًا تحملنا المسؤولية، عندما كبرنا أصابنا الهم، ربما كانت أمي محقة بشأن أبي وعمله، وبشأن الحب، ربما كانت مخطئة لا أعلم لكن الذي أعرفه جيدًا أنني ما عدت أتمنى شيئًا سوى أن تفيق أمي من أوجاع السرطان وأن يغادرها المرض

أميرة، نعم شهد؟ هناك أمر أخبرتني به فاطمة، إن قريبها مصطفى قد شاهدك في الفرح وهو يريد مكالمتك أولًا، يريد معرفة مشاعرك والتأكد من رغبته لقد اتصل بأبي ويريد تحديد موعد

موعد ماذا تقولين شهد؟

كيف هذا لن أسمح لأي كان أن يقتحم حياتي هكذا، ألا يعرف أنني مطلقة ولدي طفلان كبيران، حين حاولت شهد تهدئتي قائلة

أميرة اسمعي حين قاطعتها ثانية قائلة

اسمعي أنتِ شهد واجعلي فاطمة تبلغه: أنا لن أتخلى عن أولادي أبدًا

إن كان هذا يناسبه باب بيت أبي مفتوح غير ذلك لا

إنه يحبك أميرة قالتها أمي وهي تكمل: إنّه يريدك وليست لديه شروط يمليها عليك، إنه حسن الخلق طيب السريرة، لكنني أكبره بخمسة أعوام ولم يسبق له الزواج من قبل لماذا أنا؟

لا أريد أن أظلمه، من حقه أن يبدأ حياته وأن يعيش زهو العمر دون ملل أو كلل، من حق أسرته أيضًا الرفض، ومن حقي أيضًا ألا ينجرح قلبي من جديد

أجابتني

أنتِ مخطئة... ثم جذبت يدي في رفق قائلة وهي تجلسني بجانبها

أنتِ تستحقين الحب يا أميرة، تستحقين أن ينبض قلبك من جديد، كنت دائمًا أدعو لك أن يرسل الله السعادة لقلبك، لم أكن أعرف كيف ولا متى، لكن اليقين بداخلي أن هذا بيد الله وحده، أصبحت كتومة جدًا وغير سعيدة، لا تنفرج أمامنا الأبواب إلا لحكمة لا تنغلقي فتخسرين سعادة مخبأة، لا تفقدي إيمانك بالحب ولا تفكري فيما مضى بعض البشر كورقة خريف جافة مهما رويتها لا أمل، لذلك لا ترهقي نفسك

واتركيها للرياح

وبعض البشر كالورود كلما رويتها زاد رونقها وتفتحت ونضح عبيرها حد الكمال، لا حب يبقى دون معية الله ورعايته، ولا حب يصمد دون حكمة ما

الحب أسئلته لا تنتهي يبدو سهلًا أحيانًا ويبدو معقدًا أحيانًا أخرى، لا تعلقي في منطقة الحيرة بين الحالتين

تزوجته ظللت عامًا بعدها أسأل نفسي: كيف يمكن لعبير الحب أن يكون ملهمًا هكذا؟ لماذا ظننت في وقت ما أن كل أموري لن تحل، وأن الجدار الذي انتصب أمامي لم يكن لينهدم، وأن جدران الضيق لم تكن لتزول بسهولة، كم قضيت من أيام وأنا لا أعرف حلًا لمعاناتي ولا أجد مخرجًا من كدري وقلة حيلتي وهواني ظنًا مني أنني عاثرة الحظ وبائسة

فاجأني اتصال شهد، أميرة احضري حالًا أمنا متعبَةٌ لا أعرف ماذا أصابها؟ لا أعرف كيفية التصرف، أبي يرفض الذهاب للمشفى يقول إنه لا فائدة من ذلك

لا تقلقي شهد أنا في الطريق قبل وصولي كنت قد أحضرتُ عربة إسعاف

حين استغرب أبي تصرفي وقبل أن يقول ما الداعي أجبته وهل نتركها إذن؟

نتجاهل ألمها الذي يرج أرجاء البيت تكاد الجدران تنطق

سآخذها للمشفى حالًا

أسندت ظهرها الهزيل وحملناها إلى الخارج فتحت حقيبتي ودعوت الله أن يكفي ما معي من مال لهذا الوقت

كانت أمي تحتضر، الانحدار في المرض أمر شديد أن تراقب قطعة من قلبك تتألم ولا تتمكن من إزاحة الوجع ولو للحظات

الجلطة الدماغية قد تسببت بشلل نصفي أصبحت أمي حبيسة الفراش عاجزة عن الكلام الأكل والشرب وتناول حبات الدواء

شهد كانت كالعادة تتولى فترة الصباح أَحْضُرُ أنا وأتولى الرعاية وزوجي لم يكن ليصدَّني عن زيارتها كان رحيمًا بي يُخفِّفُ وجعي عليها وأسأل قلبي عن قدرته الفائقة على مسح دموعي كم أحبك مصطفى

ورقة وقلم، حرصنا على وضعها بجانب أمي على المنضدة تكتب لنا رغباتها وننفذ

لها أحلامها وقلوبنا عليها حزينة بخط ضعيف

خط لم تكن تملك فيه قوة كي يفرغ الحبر على الورق، خط واهن بقدر السرطان الذي يحرق جسدها، خط تريد فيه كتابة السعادة لنا حين كان النصح عابرًا من عينيها ضعيفًا كهذا الخط

خط رقيقا كذاك الذي نراه في رسم القلب والإشعاعات الطبية التي نأخذ أطرافها ذهابًا وإيابًا، نحمل الأمل ونعود دونه أحيانًا؛ لأنه في حالتها ضعيف ضعيف بقدر ضعف خطها لنا كاتبة شكرًا وطالبة رحمة بحياء مقاتل شرع سيفه في وجه عدو لا يملك سلاحًا قويًا أمامه، بقدر يقين بانتصار محقق، انتصار لا يختبره سوى الجنود، قلوب في قلب المعارك، معارك كانت مطروحة في الحياة، وفي الحب أحيانًا

معارك السرطان والحب والمنطقة الخاصة بينهما، والتشابه الذي كنت أراه جليًا غير ظالم مثلما تُخبرني شهد، الحب يحتاج انتصارات عملاقة أحيانًا يحتاج جهادًا تحملًا صبرًا وأملًا بالتغيير، كذاك الذي نحتاجه في السرطان، تسكن أوجاعنا عنه ساعات وتحمل هدنة ما تجعلنا نكمل الطريق ونحن نترقب الشفاء

أفتح قصاصة ورقية، أجدها قد كتبت نكتة أضحك لها كثيرًا، أبتسم من قلبي حين تضحك هي الأخرى، ونلتف حولها وقد أصبحت ملابسها النظيفة ورائحتها العطرة عنوانًا يبهجها حتى في أشد لحظاتها كانت تسعدنا

نخبرها أن أوطان العالم لا تعادل لحظة واحدة تجمعنا معها، تبتسم حين تراني متوردة أخبرها أنني حامل وسأنجب فتاة، أعلم تمامًا أنها ستشبهها كثيرًا

ويمر الوقت وتحمل قصاصات الورق بيننا نصحًا وشفقة حزن وملامح أخرى تجعلنا نضحك من قلوبنا ونحن نلتف حولها... أوراق حملت أوجاعنا كما حملت أفراحنا

لكن كسرة القلب تعني شيئًا واحدًا هو الرحيل

العزاء الوحيد لأولئك الذين عاشوا متألمين من المرض فتحملوه صبرًا وحمدوه شاكرين

العزاء حين ترى قطعة من قلبك تتألم دون أن تملك إزاحة الألم ولو لبرهة صغيرة

كنت أفكر في نور، كانت تستغرب لهفتي الشديدة على أمي تتعجب من وقتي وتتساءل عن السر الذي يجعلنا جميعًا هكذا وكأننا من عجائب الزمن

أستغربك حقًّا أميرة كافحت أمي كثيرًا من أجلنا واصلت الشقاء ليل نهار جعلتنا أقويّاء بالقدر الكافي كي نتقبل المرض ونتجاوزه كي لا نبكي حتى إننا نتركها ولا يُشكِّلُ هذا الأمر ألمًا لها، إنها تبتسم حين ترانا مستقرين وتعرف أننا منشغلون عنها الأولاد والحياة تأخذنا بعيدًا

شاهدت أم نور، زرتها أطمئن على حالها، تبتسم وتنسى أنها حبيسة كرسيها حين تهمُّ قائلة أتريدين كوبًا من الشاي ثم تعود للتذكر أنها لا تستطيع إحضاره ثم تغادر وقد حركت العجلات كي تصل بصعوبة إلى باب البراد لتحضر بعض الماء وكوبًا تضعه بداخله

تبادرني نور قائلة: أرأيت كيف أمي؟ إنها تتعامل مع مرضها بقوة إنها فرحة ونحن نطلُّ عليها مرة كل أسبوع الأمور بسيطة

كانت أمها تهز رأسها وكأنها توافق، لكن وجهها أعلمني كم كانت متكدرة وقلبها مفطورًا

أثناء عودتي إلى البيت كان هواء القطار ناعمًا وخياليًا، إن مزارع العنب في تلك القرية مبهرة ومشهد يدها وهي تجاهد كي تصل لباب البراد لم يغادر رأسي، هل تصبح القسوة يومًا ما شيئًا يرد أم أنه بلاء؟

البيوت تختلف، صنعها دقتها نظمها خطها المنتظم إبهارها واتساعها، حوائطها التي نظن أنها قائمة قاتمة أحيانًا مبهرة من الخارج، خط مستقيم رأيته ضعيفًا ضعيفًا حد الخط الباهت، ضعيفًا كضعف بيت العنكبوت، واهنًا كوهن مرضى السرطان وحَذِرًا حد الخوف من زواله بالرحيل، ومتماسكًا ظاهريًا كما في حضرة أم نور، ما أكثر الخطوط التي نرسمها في الحياة فلا نختبر متى تكون ثقيلة واضحة حد السطوع ومتى تكون خفيفة مستسلمة حد الخوف من التعبير عن مشاعرها كما في حضرة أم نور

أما الأكثر جمالًا في قلب أمي وأمها كان الصبر رغم كل شيء

الحياة لا تعطينا دروسًا مجانية

ترى ماذا تقصدين أمي بهذه الكلمات؟

أي إنها بقدر ما تعطيك يا ابنتي تأخذ منك، لا تمنحنا الصلابة إلا حين نمشي على الأشواك، ولا تهبنا الثبات إلا حين تجلدنا بسياط الصدمات تلو الأخرى كل تجربة قاسية تخلف حكمة ما، كل سقوط يدربك على الوقوف جيدًا، وكل طعنة تمنحنا رمزًا ما

رسالة ما، كل صفعة نتلقاها تعلمنا درسًا في الحب كما في المرض في الحب كما السرطان النتائج قد تكون مبهرة، وقد تصبح عظيمةً حد عدم القدرة على البكاء

إنها بنت يا أمي، إنها جميلة، أعرف أنك تعلمين، أعرف أنك ستقولين إنها جميلة لكنك أجمل منها أميرتي الصغيرة!

لكنها ولدت ضعيفة، كان مصطفى يتولى الأمر يخبرني أنه سيتابع المستشفى وأنه لن يدخر جهداً في العلاج والاطمئنان، كان يخشى كثيرًا عليّ ويمانع بشدة أن أذهب معه إلى أن أتعافى أولًا

حاولت معرفة الحالة الصحية وإلى أي شيء ستؤول الأمور

كان الأطباء يخبرونني أنها تتحسن وأن كل شيء سيصبح جيدًا وعلمت بعد الفقد أن مصطفى كان حريصًا بالاتفاق معهم على عدم إيلامي خوفًا علي

كان بجانبي لم يكن ليترك مساحة الحزن لتتسع بداخلي

لم يحن الوقت بعد كي أصبح أبا أميرة صدقيني معك لا يشكل الأمر فارقًا

أمجد يحبك كثيرًا مصطفى إنه يناديك أبي

إنه يحبك جدًا

وأنا أحبك أميرة هذا كاف بالنسبة لي

إنني في الصف الأول الثانوي أمي لست صغيرًا

أعرف إسلام أنك لست صغيرًا لكن ماذا تقول

أمي إنني أحبها أحب رحيق، ما المانع أن أخطبها وأن يكون هناك ارتباط رسمي بيننا، مددت له يدي أجلسته بجانبي قائلة: حبيبي إسلام أنتَ في مرحلة لا يمكنك حقًّا الجزم بمشاعرك والتأكد منها

ماذا تعنين أمي؟ إنني صادق أنا حقًّا أحبها، أعرف إسلام لكنك في مرحلة بداية حياتك وحياتنا يا عزيزي ومشاعرنا تنضج وتتغير وتتبدل إن تجاوزت مدرستك وجامعتك وظل قلبك ينبض لها فاعلم أن حبك لها حقيقي وحقق حلمك في الارتباط بها لن أمنعك، لكن الآن لا يمكن حدوث هذا الأمر امنح نفسك أملًا عش من أجله واجعله أمرًا نبيلًا لا تحدثها ولا تحاول مكالمتها تمنَّ لها التوفيق واتّق الله في نفسك وفيها، وتذكر آيات الله وادعُ الله أن يحفظ قلبها لك كي يبارك الله لك في كل أمورك

أمي ماذا تعرفين عن الحب؟

الحب ذاك الذي يأخذ بيدك للجنة لا الذي يبعدك عنها

كان مصطفى متدرجًا معي حتى وأنا أغير طريقتي ولا يشكل ضغطًا بل يجعل قلبي يتفتح، يعلمني ويتمني لي رزقًا كي أصبح أفضل وغايتي أعم وأنضر، الأهم في حياتك أن تفعل شيئًا جيدًا من أجل نفسك في دنياك غرسًا كي تحصده في الآخرة

هذا الحصاد الطيب هو حب الله، إسلام اجعله أمامك دائمًا وستغدو السعادة معك جيشًا يحميك ولا يخذلك

تعلمت الحب منه ومن أمي وحتى أبي

إنَّ هناك من يجيدون زرع الحب كالزهور ورعايته وأن هناك من يجيدون سحق روحك بإبداع مقيت وأعرف أن السعادة قرار

ليكن غايتك في الحب ذات الدين لأنه الأبقى لأنه الحق ولأنه الخير ولأنه السلام إسلام

قد تأخذنا الحياة لاتجاهات كثيرة ومختلفة، ربما لو لم أقرر تغيير حياتي لما استقام ديني، كنت دائمًا أحاول وشرعت أضع لنفسي عنوانًا حين كنت أرهق وأتساءل كيف يمكن للفرج أن يحل؟

وأنا أقول لنفسي ماذا بعد أميرة؟ ما الحل؟ ما المخرج؟ هذا لن يستمر أبدًا والله إن العسر مهما كان شديدًا فإنه ماض

المهم ألا تتوقف أبدًا عن المحاولة ما دمت تملك هواءً في رئتيك

أن تغير حياتك للأفضل دون انتظار مؤازرة من أحد ربما لا تأتي أبدًا

لكل منا رسالته الخاصة وحلمه الخاص في الحياة، إسلام أحيانًا تكون الرسالة هي البداية

معي كانت نهاية لكل شيء مؤلم وخاذل، اجعل رسالتك عظيمة بقدر قلبك ولا تتوقف أبدًا عند خط ضعيف

صديقي الهم

اخترعت صديقًا وهميًا أردت إخباره بكل شيء عني، كل ما أرغب به، وكل ما يكسر قلبي حزنًا، أحزاني كانت أشد اتساعًا من أن يعرف عنها أحد شيئًا أو أن يفهمها استماعًا لم يكن لديّ من يسمع صرخاتي، فكيف بي أن أتكلم شاكيًا؟ كنت أضعف معرفة بجمال الاشتكاء لله، فما كانت الشكوى إلى السطح منطلقة إلا بشيء واحد؛ البكاء في كل مرة كنت أصفع، ما كان لي مهرب إلا إلى البكاء، كان قلبي أصغر من أن يحتمل هذا الأمر مرارًا، الحزن كان مرافقًا لي في كل مرة أحمل فيها حقائب عدته ويومه الذي سيقضيه في بيت تعلق فيه أجراس الأفراح احتفالًا، أبي ماهر في عمله يلجأ له الناس لتنجيد وسائد النوم ومراتب الأجساد كي ترتاح عليها قلوبهم من الشقاء، أفراح تحمل أحلام الحب والسعادة ووسائد كنب وأسرة نغزل فيها موهبة عمل لمسمى صنعة يجيدها فيكون حليفي دومًا أن أصفع بوحشية، ليس من رب عمل بل من أبي الذي يجيد فعل هذا الأمر أمام الناس

في كل بيت جديد كنت أقف انتظارًا للميعاد، توقيت معين ولا ينمو لأذني بعدها إلا شكوته مني ومن تعليمي المكلف وعدم قدرته على معرفة سبب قلة فهمي وأخطائي المتكررة التي تكلّفُ عمله كثيرًا لمداواتها، لم أكن أعرف لمَ يتكرر هذا المشهد ولم يكن لقلبي شيء غير طعنة تصيبه؟ قلبي كان متألمًا جدًا حزينًا باَكيًا ضعيفًا

للقهر وجود وصدى دائم هنا بالداخل، ووسادتي التي صنعها أبي لم تكن لي مداوية أبدًا، كانت كهفًا تبلل به دموعي أرضها، حتى بات لي الأمر أنها ستُنْبِتُ أشجارًا ضخمة من الحزن

لم أعتد الأمر لم أبدو صلبًا مع التكرار حتى بمعرفتي بوقته كحدث متوقع لكل منزل نحن له عابرون، في كل مرة كنت أبكي ولا يكف النهر ولا يجف ولا يضن ولا يئن من لمسات الدمع حين يضرب سطحه بشدة منهمرًا ولا إلى الذكرى يمضي حاملًا إياها بعيدًا مع التيار حين تتعثر الأعمال ونجلس في بيوتنا منتظرين للقمة رزق جديد،

حتى سألت نفسي مرة ما هذا الصوت الذي يتكرر مرارًا؟

أسمعه قبل أن يشق النهار كف الظلام، ويتكرر حين تغدو الشمس فوق رؤوسنا فلا يمكن لأعيننا أن ترفع النظر إليها بجرأة، ويتكرر حين يتلطف الهواء وحين يغادر النهار لتبدأ خيوط الظلام في إسدال ستارها على أحداث اليوم معلنة نهايته وبداية قصتي مع الوسادة، أخبرت نفسي الصوت جد جميل، حملتني قدمي الصغيرة وفطرتي التي ولدت بها وعلمت بعدها أنها هي من قادتني إلى هناك، إلى المسجد كنت متألمًا وحائرًا، وقع الدموع في صدري كان لها صدى حاد، دخلت إلى المسجد أتذكر كثيرًا تلك اللحظات، وضعت وجهي بين كفي يدي وبكيت بصوت عال بكيت من أعماقي وكأن أنهارًا من الماء كانت تقف بحذر خلف السد، حتى انهار وانهرت معه بلا وعي ولا عقل، سنوات وهذا المشهد لا يغادرني، كان قلبي يحترق كنت أشعر بظلم شديد ولا أجيد شيئًا إلا البكاء، التجاعيد تمتد برفق، يمسك بكتفي، أفزع خوفًا، ثم ينظر في عينيّ وقد كساهما لون أحمر دموي، طفلي الصغير ما بك؟ أجيبه أنا لا لا شيء، أنا فقط متعب قليلًا، هذه أول مرة أراك في المسجد، أجبته أنا أسكن على بعد شارعين فقط من هنا، فقط أشجاني الصوت فرأيت نفسي هنا، ما اسمك صغيري؟ اسمي عبد الرحمن هل تصلي؟ أجبته في تعجب ما معنى الصلاة؟ ابتسم ثم قال لا بأس سنعالج هذا الأمر

فلتخبرني إذن يا بطل ما سبب بكائك الدامي؟ وكيف لقلب صغير مثلك أن يحمل في جوفه كل ذلك الأنين وأنتَ في عامك التاسع من هذه الدنيا؟ أجبته أنا تَعِبٌ يا شيخ، أبي يضربني ويتعمد فعل هذا الأمر أمام الغرباء، وكأنه يتباهى، يصفني دائمًا بالغباء ويلعن كل يوم جئت فيه إلى هذه الدنيا، أنا ثعلب ماكر أعرف هذا هكذا يصفني، وأنا لا أفهم لمَ يؤلمني هذا الوصف؟ الوصف غير مكرم، الوصف ظالم، لا أعرف

لا بَد أن الأشياء الجميلة وصفًا لم تخلق كي أتّصف بها أو تلتصق بي

أنت ذكي أنت ناجح أنا أحبك، لا أسمع صداها في عالمي، دنياي خالية من كل شيء رحيم كريم، أردت مرارًا أن أعرف السبب أرشدني قلبي إلى هنا وحملتني قدمي دون أن أعرف طريقي أو اتجاهي، فما دلفت حتى وجدت أعماقي تئن، هذا الصوت هنا مؤلم، أظل أسأل نفسي كيف يمكنه أن يرحل أن يغادرني، أنا لا أحلام لي سوى أن يبلى، لا أرغب بشيء سوى أن يتوقف، أجابني إذن عبد الرحمن أنت تحب المدرسة، أجبته

نعم، إذن لمَ لا تجعل لك حلمًا جديدًا هو التفوق والاجتهاد، اجعل العالم كله يتمني أن يصبح مَثل عبد الرحمن، إن كنت تجيد كتابة جملة فاختر ورقة واكتب لنفسك فيها رسالة كل يوم رسالة واحدة، أخبر نفسك على الورق أنا سأصبح أفضل وهذا الألم سيزول مهما طال سينجلي، أتعلم يا عبد الرحمن أنني كنت مثلك تعجبت وأنا أجيبه مثلي معقول؟! كنت هكذا تصورت أن لا أحد على هذا الكوكب حزين مثلي، بلى يا صغيري، لكن الحزن لا يدوم، كل شيء لا نحبه ويرهقنا مصيره إلى زوال

لكن أبي ينتقدني دائمًا، أجابني: إذا خشيت الانتقاد يا عبد الرحمن فلا تقل شيئًا ولا تفعل شيئًا ولا تكن شيئًا ابق إذن كما أنت، ستحقق أحلامك فقط لو كنت تملك الشجاعة لمطاردتها، انتظار النتائج بعد المعارك العظيمة هذا هو الفوز وهذه هي الحياة، أنا هنا وسأكون بجوارك فحرك قدميك لي حين يغلب عليك الحزن فلا تبصر أبوابًا لمخرج منه، سأكون هنا بجانبك وسأنتظرك مداويًا، الآن أريد أن أرى ابتسامتك، ما رأيك بكوب من العصير نشربه سويًا من عم كريم؟ نهضت معه وقد جففت دموعي وبدأ خاطري يهدأ، ثم رأيته يقول: هذا المشروب عِرْق السوس مفيد جدًا لا أحد يصنعه كعم كريم، أحب سقياه وأسعد كثيرًا به وهو يطل على قلبي يوميًا منتظرًا مبتسمًا سعيدًا بيومه ورزقه، ويظل يخطو بين الناس حاملًا ممتنًا لعطاء الله، العمل مهما كان بسيطًا فحلاله نكهة تغنيك عن كل حرام وكل قبيح، وتبصر السعادة هنا في قلبك، اللهم حرك قلب عبد الرحمن لخير كبير، السعادة يا بني هبة وأدعو الله ألا تفارقك فلتكن لبيت الله ملازمًا وستجد هنا الطمأنينة من كل شيء وأي شيء في هذه الدنيا، لأول مرة أبيت ليلتي سعيدًا كتلك الليلة، أشجار الحزن لم تنمُ يومها الوسادة كانت ناعمة غير مبتلة، وكأن قلبي قد أضاءته أول زهرة لنبتة حب، حبي لذلك الرجل كان عظيمًا ولم أكف عن سماع صوته الناصح لي وكأن مسار الحل نُظِم أمام عيني كنَظْم النجوم حين كان كل البشر يهتدون بها في أسفارهم

سميته الهم، نعم صديقي الجديد على الورق سميته الهم، وشرعت أخبره بكل أوجاعي وأطلب منه الحل والنصح واتخاذ القرار، ثم بدأ الأمر يتغير تدريجيًا ولمست حكمة نصح هذا الشيخ الصالح لي، جوفي بدأ يهدأ، وقلبت صفحات أوراقي ورقة ورقة إلى الأمام، وعند نقطة معينة غيرت اسمه وأخبرته أنني وهو سنصبح أسعد حين

يدخل عالمنا اسمه الجديد، فوجدتني أكتبه يسر إنه اليسر، نعم كل عسر لا بد له من نهاية

خطواتي كنت أخبره بها، حتى حديثي عن صفحاتي اليومية كان يستمع لي في امتنان ناصحًا ومطببًا وشارحًا لي كيفية الصلاة ودواءها الذي يشفي القلوب، الشفاء من داء لا وجود للدواء فيه، الشفاء هنا في الروح، وهو أجاد ما تفانى أبي في سحقي به مرارًا، بل وسحق أمي حين يكتشف أنها تخبئ عنه خمسين قرشا تحت وسادة مبعدة فيصب لعناته عليها ولا يبيت ليلته إلا نازعًا عنها كل ما يمكن أن يجعلها تحت مسمى إنسان.

وقت الصلاة حان، وقلبي يخترق طريقه إليه، فما فتر يومًا عن نصحي وما بكيت في حياتي قاطبة كيوم حمل نعشه مودعًا، أدهشني مشهد وداعه إلى قبره، الجمع كان كبيرًا وأعداد الناس يعجز عقلي عن عدها حبًّا له، ويعجز أيضًا حين يقارن بينها وبين غيرها ممن لا يملكون في قلوب الناس كل ذاك الحب فيبدون وكأنهم وحدهم ماضين إلى مثواهم الأخير، الحب في الله بت أعرف وقعه هنا في قلبي هنا حيث وضع يده داعيًا قائلًا: اللهم اهدِ قلب هذا الطفل، اللهم اجعل قلبه معلقًا بالمساجد، ثم يهمس: اللهم اجعلنا ممن جمعهما الحب في الله عند اللقاء وعند الافتراق واجعلنا ممن يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله، أحببت عم حامد كثيرًا وقتلني الرحيل، لجأت لأوراقي مخبرًا صديقي الورقي أن الدور حان كي نغير اسمه إلى حامد، فما كتبت في أوراقي بعدها شيئًا غير حمد الله علي كل شيء، وما غادر رأسي إلا وأنا له داعٍ في كل لحظة، وحين يتوفر في يدي مال بسيط لا أنفقه على حلوى ولا رغبة في شراء شيء إلا من أجل إنفاق صدقة عليه، وأشرع ملبيًا نداءه لكوب عم كريم المجاهد لرزق حلال لأرى من خلاله سعادتي وسعادة عم حامد الغائب الحاضر، وكأنه معي، أوراقي كانت كثيرة واليوم أخط فيها بلغة أخرى أعبِّر من خلالها عن فهمي لها، فالالتحاق بكلية التربية قسم اللغة الانجليزية كان أملًا تحقق، وأنا أتذكر كلماته الآن: اجعل العالم كله يتمنى أن يصبح مثل عبد الرحمن فاجتهدت وتبدل الألم، فما كانت الشكوى بعدها إلى السطح منطلقة إلا بالدعاء لا البكاء، وكأن للدموع وقتها البالي برغم وقعها في أذهاننا، الحب في الله شيء مكرم، منطقة طاهرة لا يعرف عنها إلا المتحابون، الحب في الله لا تعريف له، إنه هنا فقط هنا في القلب، وضعت يدي على صدري وكأن يده لم تغادر هذه الساحة رغم مرور كل تلك الأعوام.

اللغات والانبهار، اللغة الإنجليزية، تعلم اللكنة حد الإتقان، إتقان يجعل الآخرين يتعجبون من دقتها، وكأنني خلقت بينهم، ثم الزحف للغة أخرى الإسبانية والألمانية الفرنسية بنغمتها المعهودة، اللغات التي يخشى الناس تعلمها يجدونها صعبة يستهلكون وقتًا عملاقًا في الدراسة ومحاولة نطقها على الوجه الأمثل، لماذا كان سمعي يسبق نظري وفهمي؟ لِمَ كان سماع الأصوات وترقبها شيئًا سريعًا بالنسبة لي؟

هل كَان انتظار الصفع كل مرة ندلف فيها بيوت الأفراح حاملين التهنئة، ويحصل فيها أبي على المال، وأعود أنا دون كرامتي؟

هل الانتباه سبب الآن؟ مساكين أولئك الذين لا يعرفون كيف خلَّفتِ المواهب أنهارها الصلبة بداخلنا، نجحت ربما في صُنْع طريق في رسم نهر صامد اخترقه المطر فصنع جدولًا على الجبل يمر الماء خلاله ولا يُخْلِف في روحي سوى وجع، وجع جعلني أنتقل ببساطة قلب طفل وبسهولة ويسر عبر ينابيع اللغات على اختلاف الثقافات، سافرت بعقلي هناك، وتمنيت لو كنت أحزم حقائبي لأرحل متنقلًا، أغادر الوطن بلا رجعة، أحمل العلم والانتباه لبلد آخر، أظل أطوف البلدان بما ملكته من لغات وما حصلت عليه من ترقيات، ينسبون الفضل لي لاجتهادي العظيم لحرصي على التعلم، للكنة التي أجدتها، لكل بلد ينسبون فضلًا لم يكن يومًا لي بقدر عمر منحنا الله فيه فرصة، يسألونني عن الطفولة يشعرونني بالتميز، يقولون إنّه مؤكد حظيت بطفولة هانئة جعلت مني بطلًا رائعًا في نظرهم

لم أملك يومًا طفولة كي أعيش
وحولي من يتحدثون عن روعتها وذكراها العطرة مع الأحباب
أما بالنسبة لي
فهي ما تقضي بقية حياتك في محاولة تخطيها

الحب... داء ودواء

كان لي عالم أهرب به من كل شيء إلى أحضانه الدافئة، ظللت أتساءل عمرًا كاملًا كيف يمكن أن يمنحني الله كل تلك الهبة من الحب، الحب يصبح مؤلمًا، الذين نحبهم بشدة نتعلق بهم حد عدم القدرة على الحياة بعدهم، كيف يمكن للحب أن يكون غير منصف إلى ذلك الحد، لم أكن كبيرة وما كنت أتحمل بعدًا أو فراقًا ولم أكن أيضًا صغيرة إلى القدر الذي يجعلني أعي كل هذه الأمور، ولدت في الجزائر وإلى بلاد العالم كانت رحلتنا متنقلين، الحب بينهما كان وريدًا يغذي قلبهما، عيني كانت دومًا تقع على مشاهد رحيمة وملهمة، المشهد الذي تُجاهد فيه عينك كي تنسى كل ما حدث، تظن أنه سيمر عابرًا سريعًا دون توقف، لكن عام الحزن الأول يظل في ذاكرتك مذكرًا، لم أكن أكثر حظًا حين وجدت نفسي في آخر عنقود الولادة، الطفلة الأخيرة الأخيرة في كل شيء، الأخيرة في فترة بقائي بجانب كل منهما عشر سنوات، لضفائر شعر وثوب نوم بسيط يخبرك كم كانت الحياة بسيطة سهلة في وجود أمي ومشهد أكبر من قدرتي على التحمل حين يمسك بيدي أب رحيم ليخبرني أن عليّ إلقاء نظرة وداع وطبع قبلة على جبهة باردة، رأيت أمي في كفنها، لم أكن أعلم أن هذا كفن، إنه أبيض ناصع يماثل القماش الذي طلبته مني معلمتي كي نطبع عليه أعمالنا الفنية ونتذوق بعدها فرحة هذا الإنجاز، رأيت وجهها وقبلته دون دراية فلم يصعد لعيني وقتها بحر الدموع، ولم يزر خيالي، كيف سيكون غدي دونها وبعدها، ثم أجده يحدثها نعم، وكأنها تستمع إليه، نامي مرتاحة: لن يكون لامرأة بعدك نصيب، أربعون ربيعًا وثلاث سنوات بعدها كانت تلك مساحة الوقت لحياتها معنا، مرض بالفشل الكلوي، غسيل للكلى في بلاد الغربة، زرع للكلى من متبرع، ورفض الجسم لها، ثم عودة للغسيل الكلوي مرة أخرى، ثم غرفة أسلاكها كثيرة وضوءها خافت، وأعين المرضى فيها ناعسة متعبة، ثم إفاقة على حقيقة حياتنا الجديدة دونها، كنت أقل حظًا كي لا أحيا معها وقتًا كافيًا، وكان لإخوتي في الجامعة أكثر نصيبًا مني وأكثر حزنًا، معرفة بكل مشاعر جميلة بين الأم وابنتها، أما أنا فلا أدرك

إلا لونًا أسود لثلاثة أيام متتالية وطعام يحضرونه لنا، ويحل وقت الصباح المدرسي بكل جديدة، من ملبس لكي للملابس، لشرائط الشعر التي تزين ضفائرنا الصغيرة، لعالم كبير، عالم المدرسة، بدأ اليوم الأول في نظمهم طابورًا لتعزيتي، أشعر بالقهر... ليتهم لم يفعلوا ذلك، كان الأمر طاحنًا جدًا، فأمي كانت موجهة للتربية الفنية، كانوا يعرفونها ويبتسمون كثيرًا حين يرون رسوماتي واصفين إياها بالموهبة النادرة، أرسم زهرة حديقة، وكثيرًا جدًا بيت له غرفة واحدة تجمعني معهما، وكأنني أعلن من خلالها أنني أرفض الافتراق، الغربة لا تجعلكِ قوية بالقدر الكافي، وظلال الماضي لم تكن لي مهربًا إلا إلى أحضان أبي، فصنع لي سريرًا خشبيًا صغيرًا ولحافًا جوهريًا جميلًا، وتركنا كل أنحاء البيت كي نكون هنا بجانب بعضنا البعض، وكأن أمنية رسوماتي تحققت، سريره الكبير وسريري المجاور له، وكأن أطراف البيت كلها لم يعد لها قيمة، ثم يده التي تقف معي دائمًا في المطبخ، وكلانا نحضر أنواع الطعام، علمني كل شيء، أنواع الخضر، أفضلها حساء البصل، وصفات المعكرونة، وأصناف الأرز، أنواع البهارات، وتاريخ بلدانها، كان كل شيء يتم هنا معه، وكل فرحة من القلب كانت هنا بجانبه، هو من علمنا جميعًا تلك الفنون حتى أننا كثيرًا كنا نخطئ التكوين، فنلجأ لإصلاح الخطأ اتباعًا لوصفة أبي السحرية، حتى أخبرته ذات مرة لم لا تتزوج؟ ضحك قائلًا: كيف يمكن لشخص آخر غير أمك أن يعرف طباعي ويتأقلم عليها؟ هي وحدها من كانت تجيد هذا الأمر، إذن أخبرني أين كنتما تذهبان حين تتركاننا مع المربية ثم تعودان فرحين مشرقين؟ يبتسم خجلًا قائلًا كان لا بد من أن يفرح قلبها الصغير هذا بدعوة مميزة على العشاء، ولا مانع أن نحضر لكم الحلوى أو هدايا في طريق العودة تكفيرًا عن ذنب تركككم لهذا الوقت الطويل، حكاياتك عنها يا أبي لا تنتهي، فهل يمكن أن أتزوج شخصًا مثلك أدعو الله أن يكون أفضل مني، نضحك سويًا ثم يقول غدًا سيعرف قلبك الحب، وأتمنى أن يكون وريدًا متينًا متصلًا بالقلب كي تغدو حياتك يا حبيبتي جميلة سعيدة

حياتي سعيدة بك أبي، لا أريد فراقك الحياة بجانبك هي السعادة ووريد قلبي متصل بك

كان الحفل الأخير في سنتي الثانوية غير مؤلم كتلك السنوات التي تسبقه، وجود أبي وحنانه جعل هذا الأمر خافتًا ومتضائلًا، ويوم الأم في مدرستي بكل صخبه احتفالٌ

بقسوته دون مراعاة لمن رحلت أمهاتهن، كنت أعالجه بالغياب

مُسكّنٌ أتناوله كي أنفض تلك الذكرى التي تزول لأنه هنا بجانبي، يعرف تمامًا كيف يبتسم وأعرف أنا ضحكتي سعادة من قلبي معه، لم أعد أذكر أمي كثيرًا وغيابها لم يعد موجعًا كالسابق، كان لديّ هو فقط، هذا كل ما كنت أحتاجه، كل الذكريات في رأسي عن أمي كانت قليلة، وكان حزني عليها يتلاشى بوجوده الدائم، عام أخير في بلاد الغربة التي دُفنت أمي فيها هنا في مكة المكرمة، وصباح جديد نتناول فيه أكواب الشاي في وطني المجاهد، رائحة الإسكندرية، إنه هواؤها المنعش ويومي الجامعي الأول، أحرص فيه دائمًا على أخذ رأيه كل يوم في ملابسي، ويعد لي هو طعامي، وكأنني ما زلت طفلته الصغيرة، لم أغادر عينه هكذا، ولم يغادر رأسي وأنا إليه مشتاقة عائدة وقلبي يخفق للمرة الأولى.

إنه الحب يا إلهي كم هو حقًّا رائع! أن يحل علينا ذلك الزائر، كم له من رحابة آسرة ثم مشكلاته وقسوته وتركه لي راحلًا كان قلبي حزينًا جدًا تلك الليلة، هيا ما بك تناولي أجمل ملابس لديك، هيا بنا، كيف لنا أن نملك بحرًا جميلًا هكذا ولا نتناول أوقاته عبورًا

فعلت له ما أراد، تناولنا مثلجات منعشة وجلسنا نغازل بعضنا بذكرياتنا معًا، وكأنه نَسَف أوجاعي كلها في لحظة، كم كنت فرحة هذا اليوم، وكم تعجبت بعدها من كلماته، لم يكن مثلي شيماء، وأنت تحتاجين قلبًا مثلي، لا أبي أنا عقلانية تعودت على تجنيب قلبي منذ زمن ونسيان المشاعر، أحب أن أزن كل الأمور بعقلي، العاطفيون لا مكان لهم في هذا العالم، والكون لم يكن لأحد مثلك ن يخلق منه اثنين

أنتَ حالة نادرة أبي، يضحك قائلًا: من المؤكد أن هناك توأمًا في هذا الكون يماثلني ثم يميل لي هامسًا وستنجبين أنتِ أيضًا توأمًا يشبهنني، ضحكنا كثيرًا هذا اليوم قلبي كان يعرف تمامًا طريق السعادة معه، واللحظة الأولى حين طلبت رأيه وأنا أنهي فستان زفافي مشتاقة لرأيه ومحذرة له من البكاء كي لا أبكي أنا الأخرى خوفًا على وجهي المزين بالمساحيق، وهو يقف على أعتاب الغرفة متجهمًا واصفًا إياه هه ما هذا ليس جميلًا فأضحك وهو ما زال عابسًا..

لا يطيق فكرة رحيلي وابتعادي عنه، ثمة مقولة تقول: إن من يُولد في الغربة يُكتب

عليه أن يُمضيَ حياته فيها دائمًا راحلًا وكأنها صنفتنا في هذه المكانة دون غيرها، سافرت إلى الغربة مع زوجي سبع سنوات لا أكف فيها عن الاتصال به، علمته عالم الإنترنت وأدخلته عالم الفيس بوك، أنشأت له حسابًا إلكترونيًا وبرامج محادثات مختلفة كي يَمضيَ إلى هذا العالم المتنقل كل يوم ننهل من أحاديثنا سويًا ثم يخبرني قائلًا: أرأيت؟ ورأيت فلانًا فعل، وأختك أخبرتني، وحديثنا لا نمل منه، وأنا لم يكن لي رغبات ولا توقعات ولا أحلام مماثلة لأي شيء سوى أن أراه دائمًا بخير، اتصال هاتفي ليرد صوت خانق ممتلئ بالحزن مخبرًا: البقاء لله، كنت هنا في كهف الغربة بعيدة ولا أعي شيئًا سوى أنني أصبحت بدونه وحيدة، يبدو الأمر وكأنك فقدت نفسك، وكأن ألوان الحب ليست حقيقية، وكأن القمر لم يكن ليلقي بظلاله في حياتك مرة أخرى، الوطن فقد بهجته التي كانت تحملني لترك كل شيء شوقًا لوجهه الضاحك مستقبلًا في المطار ولحديثه الدائم معي عن توءميّ اللذين حين تراهما يبدو وكأن قطعة صغيرة من أبي تقف بجانبي، كان الأعجب أن يكون زوجي نسخة مطابقة لكل شيء لأبي، وفي الزفاف كان الناس يتصورون أن زوجي ابن لأبي من شدة تشابه كليهما، وكأن الرؤى تتحقق، حافلة المشاعر ونحن نمر على مناطق مكة لم أكن أعرفها كما كنت صغيرة، كل شيء تغير مع الزمن، ويد زوجي تخبرني برفق... انظري هنا مقابر العلا، هنا أمي، لم أتمالك نفسي وقتها وكأن كل أحزان الماضي قد صبت خيراتها هنا في تلك اللحظة حتى تمنى لو لم يخبرني، لماذا تبدو ذكرياتي عن هذه الفترة غامقة غامضة غائمة؟ لماذا كان لسنواتنا معًا عدد قليل إلى هذا الحد؟ أمي وصدى صوت أبي يخبرني ستجدين توءمي يا عقلانية؟

كيف يمكن للحب أن يكون قاسيًا إلى تلك الدرجة؟ كيف يمكنه ألا يكون رحيمًا؟ كيف يمكن أن يكون داءً ودواءً، دواء كي أكمل حياتي مع زوج آسر إلى هذا الحد، وداء كي أرى أبي أمامي في صورة زوج رحيم وحنون وطيب إلى تلك الدرجة؟ كيف يمكن أن تكون منحة الحب من الله بديعة إلى تلك الدرجة؟ كيف يمكن لكل ألوان الطيبة والرحمة أن تجتمع في هذا القلب المحب ليحتمل كل اندفاعاتي وأحزاني وشجني مداويًا؟ كيف يمكن لقلبي أن يكون ممتنًا كي يدرك من أعماقه أن هذا عوض الله لي في هذه الدنيا؟ كيف يمكن أن تمنحك الحياة فرصةً لتروي كل عطش البهجة المنصرفة من حياتك؟ وكيف يمكن للغربة بعد وفاة أبي أن تكون مريحة؟ لم يعد للوطن

رونقه وشوقه، الغربة بات وقعها في قلبي أفضل، لمن أعود؟ أبي لم يعد معي، لن أشعر براحة عطفه بعد الآن.

وحين تحملني طائرة العودة دون رغبة لا أزور بيت أبي إلا وأنا هاوية لرؤيته، وقد حصد كل الذكريات بألحانها، هنا في قلبي شقته، لم أغادرها وجعلتها مكاني الذي أترك فيه كل ما سبق من عمر إلى ذكريات لكل ما هو آتٍ من مستقبلي

الحب قد يصبح داء أحيانًا، والذين لم يكن في حياتهم حب رحيم هم أكثر حظًا كي لا يتألموا مثلنا، النعم كثيرة، والمشهد الأسعد الآن هو لحظة إقلاع الطائرة

طائرة المغادرة

قبلة ودمعة

أمضيت أعوامًا عدة وأنا أنظر من النافذة وقلبي يتساءل: ماذا لو كانت مصابيح الحب ليست كما تخيلتها؟ كانت تخبرني أمي دائمًا دعي القلب يدق كما يحلو له وامنحي قلبك فرحة دائمة كي يرى الأزهار والنجوم، أمي أحبك من المؤكد أنه لا يوجد على ظهر الأرض أم مثلك، أنا أكثر حظًا كي تكوني بجانبي لأطمئن بك وأكتفي عن كل هموم العالم وأوجاعها، أخبريني كيف يمكن للقلب أن يخفق بالحب أو أن ينتظر الحب أو أن يسعى للحب؟

غاليتي هاجر الحب كالعطر لا يحضر، عليكِ أن تعيشي معه عندها ستجدين قلبك ممتلأ بالسعادة ونابضًا منطلقًا نحو الخير المطلق دون انتظار لشكر أو ثناء، ستبتسمين حين يبتسم ويعتصر قلبك ألمًا في كل أوقات الشدة واليأس والمرض، الحب ليس كائنًا ينفصل كلاكما فيه الحب أن يندمج قلباكما جسدًا واحدًا، في الحب قد نتخذ القرارات الصائبة والخاطئة معًا، فلولا أن القلب في الجهة اليسرى لما كانت قراراته أغلبها ليست راشدة وناضجة، الحب أمنية فاسألي الله أن يمنحك حبًا ممتلأً بالمودة والرحمة، واسأليه أن تكوني أنتِ أيضًا أهلا لذلك

أمي أتمنّى حبًا مثل النبع يشبه ذاك الذي بينكما أنتِ وأبي، بينكما شيء مميز وملهم، أعلم في قلبي أنكِ ستُرزقين بمشيئة الله زوجًا محبًا مع أن أباك يرفض تمامًا هذا التصور، لا يتخيل أن يأتي أحد ما من كوكب مغاير لكوكبه، إنه يريد أن تكوني دومًا بجانبه، أنتِ صغيرتنا التي ما زالت مدللتنا وزهرتنا وبسمتنا الثرية، أنتِ كبدي وكدي يا هاجر، هكذا كانت تصفني أمي دائمًا

الأضواء المعلقة والأخبار التي تأتي من هنا وهناك، هذا ليس أمرًا خاصًا بي، من قال إنكِ ستتزوجين اليوم، لا ابقي معي، هنا أنتِ عنقودي الصغيرة، وأنتِ أيضًا صغيرة جدًا، كيف وافقت على هذا الأمر؟ أين كان عقلي أبي؟ حبيبي أتعلم كيف كنت دومًا أدعو الله أن يرزقني زوجًا يشبهك

ها أنتِ ما بالك لا تستمعي له، هيّا أكملي زينتك، وأنتِ لا أريد رؤية تلك الدموع

هيا معي من المؤكد أن اليوم بعد رحيلها مع زوجها سيكون شاقًا علينا قالتها أمي وهي تجذب أبي من يديه مغادرًا غرفتي ومعه دمعة من عينه لامست قلبي دون اللقاء بينهما، ثم أرسلت لي أمي قبلة في الهواء وهي تودعني مبتسمة

عرس صغيرتي اليوم وفي عينيها حيرة وحب وتساؤل، درت بعينيّ في الغرفة التي طالما احتضنت أوقاتي وأحلامي، مكتبتي الصغيرة وفراشي الذي كنت أحرص على جعله مميزًا، أحلامي التي ظللت أحلم بها وأمنياتي حين نسجنا أعمدة بيتنا، ونحن نتحدث عن أوقاتنا وأحلامنا وضحكاتنا جميعًا حين نجتمع معًا على مائدة واحدة أو في غرفة أحد منا، ضحكة أخي ورسمة أختي على كتاب في زاوية ضيقة، المساحة الفارغة في قلوبنا والتي ما كان يملؤها إلا وجود أمي وحرصها الدائم على هذا الأمر، وقلبي يخفق خوفًا من مصابيح الحب المجهولة، عالم جديد أنا مقبلة عليه، عالم مختلف عن كل حياتي التي تعودت عليها وألفتها، ودموع لا ينبغي أن تكون حاضرة ظاهرة أمام من أخشى عليهم من الحزن، لكن كيف وهم جميعًا لا يكفون عن اقتحام غرفتي اليوم وإعطائي جرعات من الأحضان والقبلات والوداع

هذا حب كبير محزن كي أتحمله للفراق

ثمة رحيل مختلف، ثمة رحيل مؤقت، أنت فقط تغيّر المكان، أما الزمان فيمكنك الزيارة أنّى شئت، أما أنا فكان الاغتراب مع الحبيب غيابًا عن كل مكان وزمان، غياب يجعلك تشعر بأوجاعهم أضعافًا مضاعفةً وأنت في غربة وحدك دون أُنْس اللقاء والمشاركة والحنان والالتفاف، الغربة تحمل أوجاعًا كثيرة أشدها ألمًا حين تصلكَ أخبار المرض البعيدة دون أن تكون أنتَ قريبًا بالقدر الكافي للبحث عن دواء لجزء من قلبك

تشعر بوخز المرض وهو يمد أنيابه في جسد من تحب في جسد أمي ليتركك متسائلًا أين رحل ظل الأشجار وبقيت أنا هنا وحدي

المشافي الطبية وأطباء متنوعون ومختلفون في كل شيء ونحن أبناؤها الذين نقف أمام الأمر عاجزين باكين أمورًا تجري هناك من فحص أشعة تحاليل طبية معقدة رسم للقلب معرفة مدى نقاء الدم وصلاحيته، أشياء كثيرة جدًا كلهم فعلوها مروا بها حين حان في الأفق أمل وتعلقت قلوبنا بإمكانية لزرع كبد جديد والمتبرع لا بد أن يكون أحد

الأبناء إخوتي الستة، جميعًا كانوا إلى الأمر يتسابقون ونتائجهم تخبرنا أن شيئًا وراثيًا في الدم لن تصلح معه إمكانية التبرع، وأنا عن كل تلك الأمور بعيدة ومنسية، أنا تلك المدللة الصغيرة في بلاد تكفي غربتها كي تكون لقلبي كاسرة

وابن صغير ليس سهلاً أن يتحمل هذا الأمر، وابنتي لم تكمل بعد عامها الأول في هذه الدنيا، اتصال هاتفي من أخي هاجر استعدي وليتك تخضعين لهذه التحاليل أيضًا فإذا كانت النتيجة سلبية فستكونين أنتِ المتبرعة، لم يعد بإمكاننا فعل شيء أنتِ فرصتنا النهائية بعد الله، هذا قرارك حبيبتي في انتظار اتصالك

أغلقت الهاتف والتفت لحياتي التي لم أكن لأفكر في أهميتها، إنها أمي، إنها الحبيبة، إنها قطعة القلب، وأنا فلذة الكبد، كما كانت تلقبني دائمًا

هاجر هذا لن يحدث، لا تتكلمي معي في هذا الأمر، لن يحدث، أنا غير موافق، ليس من حقك أن تتخذي قرارًا مصيريًا كهذا وحدك، هذا قراري كيف يمكنك أن تمنعني؟

لا ليس قرارك هذا قرار يتعلق بحياتي أنا أيضًا، أنتِ أم أولادي وقطعة مني، كيف أمكنك أن تكوني أنانية إلى هذا الحد، أنانية تصفني أنا بالأنانية؟! من هو الأناني هنا؟ هذه أمي أتركها تموت إن كان بإمكاننا أن نفعل شيئًا؟ فلم لا نحاول؟ وأنا أحتاجك هاجر وأنا أحتاج لأمي، أحمد كيف يمكنني أن أتجنب هذا الأمر وألتفت لحياتي هكذا وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن لا جزء هناك في الطرف الآخر من الوطن يتألم

ماذا تريدني أن أفعل؟ أن أقف هكذا مكتوفة اليدين؟ إذا كان بإمكاني أن أفعل شيئًا فسأحاول

أنت تتناسين هاجر أنني أيضًا بحاجة لك، وطفلانا هذان، ألم تفكري بهما بمستقبلهما بصحتك؟ كيف تغفلين عن التفكير في كل هذه الأمور وتنجرفين نحو ما يمليه عليكِ قلبك وعواطفك؟ كوني عقلانية، أقول لك الآن لا يعني لا، هذا أمر مفروغ منه، هذا حقي عليك، أنا زوجك، لا أريد لهذا الموضوع أن يفتح مرة أخرى

أنت لست مدركة، ماذا تفعلين؟ تندفعين خلف مشاعرك، تقذفين بنفسك نحو الجبل، أما الجبل سيصمد أما أنتِ فلا

ما بك توقفي عن البكاء

دموعي ليست ملكًا لك كي تستجيب اتركني الآن

لم يعد بإمكاني سماع صوتك، اخرجي خارج هذه الغرفة هيا لا مجال لمناقشة الأمر معي ثانية لا يمكنك مخالفة قراري هذا حقي عليك

كانت ليلتي قاسية وقلبي يتألم بشدة ماذا أفعل؟ أمي أولادي ونفسي وقلبي الآخر الذي دمج معه ونبض كلانا في نبع واحد، كيف أمكنه أن يكون قاسيًا معي إلى ذاك الحد؟ لم يعتد أحدنا مهما كانت أمور الخلاف بيننا شديدة ومتأزمة على نقض عهد ألا يبيت كلانا وهو على الآخر غاضب، فلا يمر الوقت إلا وكلانا يلتمس العذر محاولًا إعادة الرباط إلى مهده وقطع ضفيرة المشقة التي يصنعها الشيطان للتفرقة بين المحبين تحت أي مسميات، تناقض تلك الكلمتان المودة والرحمة

بكيت في أعماقي، لم يشتد بيننا النقاش يومًا إلى تلك الدرجة ماذا أفعل؟

أمي مرضها يذبحني، لا أتخيل حياتي بدونها، عالمي لم يكن يومًا أفضل دون لحظاتنا الخاصة ولحظات مرضها الشديد، وأنا عنها هنا بعيدة وخائرة القوى، بدوت يومها كجواد خامل، الضعف الذي ما شعرت به يومًا يبدو الآن متضخمًا متضخمًا وقاتلًا حد الاختناق، وكأنني أحاول منع سد وحدي من الانهيار، حتى استسلمت للنوم إرهاقًا، استيقظت في الصباح، كنت حائرة ومتألمة منزوعة القلب وكأنه اقتلع أحدهم مني الفؤاد دون أدنى مقاومة، أيقظت أولادي، لم أحضر طعامًا للغداء وزوجي في عمله حتى العشاء، سأتجه للمسجد الآن، ودموع عيني ما زالت تنهمر، والسد الذي حاولت ترميمه بات مستعدًا ومنطلقًا دون هوادة، اتجهت للمنطقة الخاصة بالفتوى ورفعت سماعة الهاتف معلنة رغبتي في رأي شرعي، وضعت حذائي وآثار صوت صغيري بجانبي، أمي جائع، أما أنا فلم أعد أسمع أي شيء، ولا أرى أي شيء، وسؤالي الذي لا أعلم كيف انبعث من جوف قلبي: هل يحق لزوجي أن يمنعني من هذا الأمر؟ ليكون الرد قاطعًا وحاسمًا ومنهيًا المكالمة في سرعة، نعم من حقه، ثم إغلاق الهاتف دون حتى محاولة الإنصات

أظلم كل شيء في عيني، لم أعد أرى، لم أعد قادرة على فعل أي شيء سوى أن أصلي، أن أبث أحزاني وشكواي ومناجاتي لرب الكون، أن أخبره بأوجاعي وألتمس منه الرشد أن يمنحني القوة الأكبر والقدرة، أنا جد حزينة إنني متألمة للغاية لا أرى

انفراجًا ولا حلًا، الحب بين البشر ممتلئ بالشوائب، أما حب الله هذا وحده الذي لا تشوبه شائبة، أن تضع جبهتك على الأرض وتبكي بين يديه أن ينكسر قلبك استسلامًا لرحمته التي ترجوها وأن يحتقن وجهك وأنت تخاطبه ليسمع أنين قلبك وصدى أنياب الخوف والحزن التي تجعل فؤادك مكلومًا ومرهقًا كشجرة خريف قاحلة تنتظر خير السحاب فلا تسأل إلا الله ولا تستعين إلا بالله ولا تبتغي نصحًا ولا إرشادًا ولا رحمة إلا من الله

أن تصرف له محبتك وتشعر بهذا الأمر هنا في قلبك فتدعو من أعماقك أن يمنحك السكينة والرباط وتتيقن أنه وحده الذي سيرفع عنك الضر ويطبب أوجاعك وآلامك

ما السعي الذي ينبغي على قلبي تقبله؟ ما كان سعي السيدة هاجر بين الصفا والمروة في كل مرة بقلب متلهف يبحث عن الحل سعيًا بين الصفا والمروة بيقين، يقين قلبها الذي أخبرت به نبي الله إبراهيم حين وضعها بواد غير ذي زرع وتقبلته هي لأنه أمر الله، يقينها أبقاها فتفجرت الينابيع تحت أقدام وليدها فشربت حتى ارتوت

ما الرواء لقلبي ولأمي إلا يقين يقين يا هاجر

ارتعش قلبي وأنا أرى يدًا تمتد من خلفي وصوتًا يصعد درجات سمعي في حذر وترقب، هاجر ما الذي أتى بك إلى هنا؟ في العادة كلانا نلتقي في الناحية الأخرى من المسجد، ياسمين أنتِ هنا كيف؟ ولماذا؟ ثم أين أبناؤك؟ تركتهم مع أبيهم وقررت أن أغادر هكذا فجأة كي ألحق بركب الصلاة، هذا لا يحدث غالبًا إلا كل حين، زوجي أيضًا تعب قليلًا وآثر النوم بعض الوقت فاخترت أن أسبقه لكن دعكِ مني، ما بك؟ إن عينيك مرهقة ووجهك متورم، اعتدته متوردًا ليس من المعقول أن أحمد قد كدّرك، ما بك هاجر؟ ماذا حدث لكل هذا الانكسار؟ قاطعنا صوت صغيري، أمي أنا جائع، أوه عابد صغيري تناول هذا العصير، ما رأيك أن نشرب ماء ونتناول علبة العصير تلك؟ ابتعدنا قليلًا فما لبثت حتى رأيت دمعة تغادر وطنها، لمَ تبكي؟ لأن أمي حزينة جدًا، وأنا لا أعرف ماذا أفعل لها، ضممته إلى صدري قائلة: بلى يمكنك إذن، أخبريني ماذا أفعل

تقدّم نحوها بخفةٍ وضعْ قبلة جميلة من ثغرك الباسم على وجنتيها هيا

لم تكد قبلته تلامس خدي حتى بدأت أفيق واحتضنه بشدة ثم رويت لياسمين كل ما حدث

هوّني على نفسك هاجر، لا تنسي أن كل هذا ينبع من حبه لك وخوفه الشديد عليك، هذا حب هاجر، تنتظرين فرجًا من الله وسيجبر الله خاطرك فجبر الخواطر من الله وحده

لقد اتّخذت قراري ياسمين، فليحدث الانفصال كي لا يكون هناك إثم في عدم تنفيذي لحقه الواجب في منعي من هذا الأمر

لا هاجر استعيذي بالله لا تفكري هكذا

نغمة تتصاعد من الهاتف

إنه زوجك هاجر

لا أريد الرد...بل ردي.. هيا... لا

إنها المرة الثانية، لا تجعليه ينتظر فقط ردّي على الهاتف

هاجر حبيبتي استعدي سأمر لاصطحابك، حجزت لك موعدًا في المشفى وسأمر لحجز تذكرة طيران لك بعد غد سأنهي الإجراءات كاملة لا تقلقي لم تتناولي طعامًا منذ الصباح أليس كذلك؟ كيف علمت؟ ما زلت زوجتي وطفلتي وأمي وحبيبتي وابنتي، تبكين فلا يغزو قلبي إلا صدى دموعك قاصمًا قلبي عليك خوفًا، الذين لم يختبروا في حياتهم حبًا لا يهتمون لمثل تلك الأمور والأشد وجعًا هو رؤية من نحب يتألم، أنا أحبك من أعماق قلبي، أحبك هاجر، أحب هدوءك وصمتك وفرحك بسمتك ووجهك، أنتِ فؤاد القلب الذي زُرع منذ اللقاء فلم يخبُ عطرها ولم يتبدل، لم يضمحل ولم يتغير كما يتغير الناس ويتبدلون مع الأزمان والفصول، أصبح عالمي ممتلئًا بك، بيننا مدينة مكتظة بالخير والمودة ونابضة بالحب، كل ذلك ليس كافيًا لك كي تعلمي سبب غضبي، أنا خائف عليك هاجر خائف جدًا

صباح اليوم التالي كان مرهقًا وممتلئًا بالأعمال، ووقتي ضيق والاستعداد للسفر، حقيبة صغيرة هي ما استطعت الحصول عليه وملابس بسيطة لأولادي، والطريق إلى المطار بيننا كان محملًا بنظرات وبكثير من الخوف أكثر من القلق على الحب الذي يظهر ويتجلّى في الأزمات

لم أخبر أمي بميعاد العودة، أردت أن أصنع لها مفاجأة تثلج قلبها باللقاء، قلبي كاد أن يقفز شوقًا لها، وسماع دوي ارتطام عجلات الطائرة كان أشبه بقرع جرس الوقت

كي أفتح عينيّ على رؤيتها، أردت احتضانها، أن أخبرها كم أحبها! وكم أن مرضها قتلني خوفًا، أردت إخبارها كم كان مجحفًا لقلبي الابتعاد، كم كانت الغربة قاسيةً في تلك اللحظات وحدي هناك وأنا أفكر في آلامها ومرضها، لم تكد تفتح عينيها إلا وهي غير مصدقة، تلتفت إلينا جميعًا في حيرة

ماذا؟ كيف هاجر؟ متى؟ ألست هناك؟ أنتِ هنا؟

أمي

لا تبكي يا صغيرة العنقود، لا تبكي أيتها الفتاة، ولا تفعلي ذلك، لا تستمعي لهم هاجر، لا يا حبيبة القلب وثمرة الفؤاد، أنا لا أوافق على ذلك، لا محمد لا فاطمة أنت عبد الرحمن كيف تتخذون قرارًا كهذا دون أخذ مشورتي؟

أمي كل ما عليك فعله الآن هو الراحة، لدينا الكثير من الحكايا كي نرويها لبعضنا البعض وكثير من الوقت كي تقضية مع أحفادك، أغمضت عينيها في وهن، وسبحت في نوم عميق، أغلقت عينيّ وأنا أضع رأسي على كف يدها قائلة

لديك أمي قلب جميل يمكنني أن أضحي بكل شيء من أجله

التحضير للعملية الجراحية، الفحوصات تحاليل وأشعة مقطعية أخذ عينة مسميات كثيرة وبدء الاستعداد، حجزنا في غرفة واحدة، وكان كل إخوتي بجانبنا، أما زوجي فكان على أول طائرة متجهًا إلى مصر كي يكون معي في تلك اللحظة

سبقتني أمي لغرفة العمليات، ثم حضرت الممرضات وألبسنني الزي الرسمي، تعقيم كامل، وأردت أن أنزل على كرسي متحرك، التفتُّ لأختي الكبرى منى، لم يكن يدور بخلدي أي شيء سوى أن أوصيها على أولادي

منى كوني بجانبهم، كوني لهم أمًا حنونًا ولا تتركيهم للحياة وجوانبها، أعلم أنك ستؤدين المهمة على أكمل وجه، فقط عديني بهذا الأمر، درت بعيني في الغرفة ولمست في عيونهم جميعًا دموعًا وخوفًا يجعلك تعلم كم يحبونك، الحب هنا كان واضحًا ونقيًا، احتضنني أحمد قائلًا: أنتِ بطلة ستخرجين من هذا الأمر، ستجدينني أستقبلك بباقة ورودك التي تحبينها، سنلتقط الصور، سيكون لدينا الكثير من الأمور التي سنرويها لأحفادنا، هاجر سنكبر معًا، أعرف هذا على ضفاف العمر، سنزرع أشجار عائلتنا الصغيرة وستكبر

أدرت رأسي هيّا اتّجهوا بي نحو غرفة العمليات

المدهش في المشافي ليس فقط قبضة وقلوب أولئك الذين اعتادوا حمل المشارط وحقن آلاف البشر يوميًا، الأكثر عجبًا هو كيف تصبح قلوبهم عنيفة ولا مبالية إلى ذاك القدر

غرفة العمليات مقسمة، قسم فيه أمي، قسم آخر للتعقيم، وقسم سأتواجد فيه للإعداد،

منذ دخلت كان المشهد عجيبًا، ثلاثون طبيبًا يرتدون نفس الزي، كلهم شكل واحد، لا يظهر منهم إلا أعينهم، لا أعرفهم ولا أعرف من الطبيب الذي تابع حالتي وتحدث معي شارحًا لي كثير من الأمور

مئة ممرض وممرضة، ما كل هذه المنظومة الطبية

هيا اصعدي تحدث بخشونة

لأردّ كيف أصعد؟ لن أصعد إلا إذا أحضرتم شيئًا ساترًا يغطي ذلك الجزء من قدمي، بدا متململًا، ثم بدأت أسأل أين دكتور خالد؟

جاءني الرد الذي لم أميز وجهه ليكون صوته مطمئنًا لي نعم أنا هنا هاجر، أرجوك دكتور خالد أريد أن أكون مستورة أكرمك الله، لا تقلقي أحضروا كل شيء، وبدأ غرز عدد كبير من الإبر في كلتا يديّ، كل ما أذكره بعدها وجه أبي وزوجي حتى عبرت إلى غرفة العناية المركزة

وعيناي تفتح أجفانها وكأنها تصارع

من تريدين لرؤيته أنت في الإفاقة الآن

لم أكن قادرة على النطق، أشياء كثيرة كانت متصلة بي، يدي بها الكثير من الإبر، إبرتان إضافيتان في رقبتي، أشياء أخرى تخرج من أنفي، أشياء متصلة بفمي، ثلاثة خراطيم عميقة مغروسة لمسافة كبيرة داخل جسدي، عيناي أفتحها بصعوبة، أما قلبي أراد أن يطمئن على أمي ودمعة حارة سقطت من عين أبي على يدي حرارتها لم تغادرني أبدًا

كان أبي يبكي بغزارة، قلبه الممزق عليّ أنا وأمي

الإفاقة الأولى وأمي عني بعيدة في عناية زجاجية، أزالوا الستار، رفعت عيني جاهدة، نظرت إلى أمي رفعت لي يدها في وهن، ثم أرسلت لي قبلة في الهواء

بين دمعة أبي وقبلة أمي كان الأمر لي بداية

الأمر برمته مرورًا بتلك اللحظات القاسية والعنيفة الهانئة والهادئة

انتظار عودة أمي من المشفى بعد شهر ونصف من العلاج كان مبهرًا أن نراها مرة أخرى حولنا وفي بيتنا، نبهنا الطبيب وحذرنا من خطورة فترة النقاهة، إن الفترة التي تعقب الجراحة بحاجة لمعاملة خاصة إلا أنه لم يتمالك نفسه من الفرح حين ذهب إخوتي لإحضارها من المشفى متحلين بأجمل الثياب، بينما شرعت ليلي ومنى وفاطمة بتزيين البيت ببالونات كثيرة تمتد من أسفل عمارتنا حتى شقتنا، أردنا إلصاق الفرحة، جمع عناصرها، وصبغها على كل ركن ابتهاجًا، بدا كل شيء سيتغير، كل شيء مبتهج وزاهٍ، التزمت أنا شرفتني انتظارًا، شرفتي لم تختلف كثيرًا عن لهفتي لرؤيتها، وكلانا على سريرين متقابلين ويفصل بيننا حائط الزجاج

كم كان البيت حزينًا ومفتقدًا لأنس وجودها وروحها الباسمة، تلك الحبيبة أمي، أبي يقف منذ ساعة في الشارع، أشفقت عليه لكنني لم أكن لأمنعه من انتظارها، ولم يكن هو ليستجيب فرحًا وشوقًا للقاء وكأنه يزف عروسًا وظللنا ننبه عليه كل شيء ممنوع لمسها لا تحاول احتضانها ولا تقبيلها، لا تنسَ هذه جراحة صعبة، مرحلة النقاهة هامة وشاقة، نعم نعم اتركوني الآن

لم تكد العربة تقف وتهبط أمي منها إلا وانهمرت دموعه من أجلها، احتضانها لم يقاوم الحب، كان أقوى منه شوقًا لها، وتعجبت هي من الزينة التي تنتظرها من أسفل البيت لأعلاه قائلة: لا دعني سأصعد على قدمي

كانت غرفتها أشبه بالمشفى، شكلنا فريقًا طبيًا، تولت منى أمر الطعام، النسب بالجرامات، مراعاة الدهون التي ينبغي ألا يكون لها وجود، الكميات المحسوبة بدقة، موعد الدواء، فاطمة تولت أمر التعقيم وغسل الأدوات بماء معدني، التعقيم المنظم، كانت ليلى دقيقة، غسل الملاءات، تنظيف المكان بشكل دوري، خلية نحل كانت من أجلها حاضرة

ومغادرة لغربتي وحدي دون جذورهم يقولون إن الشجرة كالأسرة تمتد جذورها وتتشابك يصبح من الصعب فصلها

احرصي هاجر على ري الجذور، اجعليها عميقةً بقدر حبها، وحده الحب هو ما

يجعلنا نصمد حتى آخر رمق، ظننت يومًا أن حملي فيك يؤلم قلبي لإجهادي الشديد، وظللت أخبر عقلي كيف يمكنني المواصلة والأطباء ينصحونني بإجهاضك خوفًا علي

إخوتك الستة كانوا كبارًا، ظنوا أنهم يمكنهم أخذ القرار عوضًا عني، لكنني تمسكت بك، علمت أنك كبدي وحبيبتي، وأنكِ ستأتين في موعدك، كما كنت دائمًا في موعدك معي هاجر

قبلتي الأولى لك لحظة الميلاد، وقبلتي لك ونحن يفصل بيننا حاجزٌ زجاجيٌ، ما أصلب عودك هاجر! وما أشد جذور قلبينا معًا! ستكون شجرة عائلتك عميقة ومتجذرة، ستجدد أوراقها دائمًا وستحملين الحب لتروينه لأحفادك وأصدقائك وكل من تحبين

الزواج أمر عظيم هاجر بقدر ما في الحياة من قبلات عند كل وداع ودموع عند كل رحيل وشوق للقلوب التي ستربطنا بحبل متين أردتكم هكذا دومًا متحابين وللخير متسابقين، ما كان ليحدث في يوم أن أتخلى عنك وأنت قلب ينبض بداخلي، وما كانت الدنيا لتتسع لي دون وجودك ليغدو جزء منك بداخلي ينبض بقدر قلبي وبقدر قلبك

الأمومة أمر عظيم هاجر لا تُهاجركِ ولا تَهجركِ وحدنا فقط كأمهات من سيفهم المعنى ويرحل باحثًا عن الحب بين المشاعر برفق وبقلب طفل وبسعادة وليد كنت أظن أنني عشت وقتًا طويلًا كي أمنح الرسائل وأنثر الأوراق وأهب الحكمة بين الطيات، لكنك كنتِ الرسالة الحقيقية في حياتي هاجر، وليكن قلبك عامرًا من أجل زوجك، ومن أجل أزهار عمرك، احملي الحب وتذكري أن السعي للحصول على ما نحلم به لا يتم إلا بتوفيق الله، الحب ملهم كالأزهار، اجعلي ورودك دائمًا قوية، لا تسحقها الرياح بسهولة، وأحسني إليها لتحصدي عبيرها، قبلتي ودمعتك ودمعة أبيك جميعها كانت رسائل زرعنا معًا المعنى وكان الثمر شهيًا وحصل الندى على قدرته على التعافي بيننا، أحبك هاجر وأنتظرك بكل القبلات دون الدموع وبكل الفرح دون الهم وبكل السعادة لأنك يا غاليتي حبيبتي

حافظي على تلك النباتات الطيبة بداخلك، حافظي على الرسالة دائمًا هاجر بين كل قبلة للحياة وخلف كل دمعة

ستجدينني دائمًا معك

أحبك

الجميلة والقبح

قلبك لم يخفق بالحب كقلبي

لو كنتِ تحبين مثلما أحب أنا محمد ستعلمين تمامًا لم اشتريت له هذه الهدية ساعة وعطرًا رجاليًا شذاه مبهر

أنتِ غريبة وفري نقودك لنفسك، لا أحد ينفعك في هذه الحياة سوى مالك ونفسك، تصرفاتك حقيقة غريبة فداء، أنت لم تحبي بعد لو أحببت بصدق سيختلف وقع الأمر في قلبك، الناس يعبرون عن مشاعرهم بطرق كثيرة ومتباينة، الحب بالنسبة لي هو الحياة، نجلاء أنت تعيشين في زمن مختلف، غدًا تظهر المشاكل على السطح، غدًا تلعنين قلبك الذي أرشدك وعقلك الذي جنبته، وحياتك التي تتفانين في رسم ملامحها، ألا ترين من حولك؟ انظري كيف كانت بداياتهم، كيف حلموا بواقع الحب الذي تتحدثين عنه بفخر الآن، ثم لَمْ تمضِ الأعوام إلا وقد أكدوا لي حقيقة واحدة أن الزواج مشروع فاشل، لمَ نبذل كل هذا المجهود والمال ونختزل وقت الراحة التي نعيشها اليوم لنحصد واقع السَعي لهاثًا من أجل أطفال تحملين مسؤوليتهم وتنفقين عليهم وعلى تعليمهم المكلف؟ ثم لا تضمنين أن يكونوا لكِ حاملين في مرضك وحياتك المستقبلية، أي إجهاد هذا كي نبذل من وقتنا وصحتنا من أجل هذا الأمر فداء؟ أتدرين ما الفرق بيننا؟ ما الفرق نجلاء؟ أخبريني ما الفرق؟

أنتِ قاسية وتحكمين على الناس، لذلك ستفسدين حياتك، لا تنظري للعالم القبيح بكل دوافعه، تعلمي أن تعيشي الحياة بلا حسابات، اقرئي حتى يستنير عقلك وتتخلي عن تلك المبادئ التي تؤمنين بها بشدة، أنا لست نموذجًا بلا عقل ولا أترك لقلبي العنان كي يغرق دون وعي

لكنني حقًّا أحبه، أنا أحب محمد يا فداء، أحبه، منذ التقينا باتت وجهتي أسهل، طريقي بات يسيرًا سهلًا، يدي التي أصبحت في يده دائمًا، نبضات قلبي التي تنطق حبًا له، وجوانبه التي تعزف ألحانًا هادئة فتجعل قلبي مطمئنًا، أتعلمين ما معنى الطمأنينة

فداء؟ أنتِ لا تسعين للحب، أنتِ تنتظرينه حتى يدق باب بيت أهلك ثم تنتظرين حتى يدق باب قلبك، بعدها في البداية حدثت نفسي ما هذا؟ يبدو أنه صغير على حمل المسؤولية، لكن لا بأس سأتخذ قراري بعد إعطاء فرصة لي وله، تحدثنا وطال وقت حديثنا لم تتولد مشاعري له بسرعة ولا بوميض خداع الحب من أول نظرة كما يخبروننا، خاطب عقلي واختبرت رأيه فتح قلبه لي وحدثني عن شقائه عن مسؤوليته التي حملها على عاتقه فلم يرهق أكتاف أحد منذ النشأة بل عن حملِ الأهل الذي سيظل مساعدًا لهم بعد الزواج وربما إلى الأبد عن شقته البعيدة والتي لَن يغيرها لأنه لا يملك غيرها وأن زوجته لا بُدّ أن تكون معه في أي مكان هو فيه، عن حبه للقراءة التي لا يجد لها وقتًا من فرط النوم مجهدًا بعد شقاء اليوم المنتهي قبل انتصاف الليل في بعض الأحيان، عن عبء الحياة التي متى أزهرت في عينيه فلن يبخل بشيء عني، عن إصراره تقديم شبكة لي قيمة وطلب السماح في اختيار أثاث متواضع لبيتنا، وأمنيات أنه لو ملك من الدنيا مفاتيح فسيعطيها لي، أحضر ما أحب، شعرت أنني أستمع لرجل حقيقي اخترق عالمي وكياني، قلبي أصبح ينبض دقاته زادت وأنا لا أدري ما الذي حدث لي، أنتظر مكالمته وأقاوم رغبتي الفرحة بقدومه كي لا يظن أنني متلهفة عليه، أحدّثه عن عملي ومتاعبي فيخبرني دائمًا ناصحًا ساعدي الجميع فعلى قدر الإتقان يأتي الجزاء، فنبات الخير يزهر متى احتجنا إليه في أوقات العسر، تزوجته وسألت قلبي كيف أمكنكِ أن تفوزي بحب كهذا؟ وكأن جوفي أضاءته المصابيح، فصببت الحب ألوانًا انعكس الأمر على كل شيء، الأرزاق أقسام لا تعلمينها، لكن الله يخبرك بها في إشارات ورسائل تلمسينها في أوطانك وتغردين كعصافير الزينة الفرحة حين تطلقين سراحها، فلا شيء أجمل من الحرية التي تعقب سجن النفوس التعسة نجلاء أتعرفين كم أحبك أنتِ حملت عبئًا كبيرًا عني، حين أغيب أدرك أن لي سندًا في عملي، سيرفع عني كاهل الهم والمسؤولية وما يعقبها من كدر، لكنكِ غريبة، ألا يوجد في عالمك الزوجي شيء هكذا؟ أمورك وردية تمامًا، أشك، في نظري ثمة كثيرون يستمرون في وصف سعادتهم والحديث عنها أراه نوعًا من التجمل أمام الناس، أجيبها ما زلتِ قاسية يا فداء، بالطبع كان هناك مشكلات بل وخلافات شديدة بيننا كان تظهر كعاصفة شديدة القوة، لكنها تتهاوى كما يتهاوى التراب بفضل سحب المطر فتصعد بعدها نكهة رائحة المطر الشهية، خلافاتنا كانت

تذوب، لا أعرف كيف لكنها كانت تنتهي وكأنها لم تكن، ما اختبرت حلاوة الانتقال إلا معه، طرنا فرحًا حين امتلكنا دراجة بخارية وكانت سعادتنا جمة حين يتباهى وأنا خلفه لقدرته على اختراق الزحام والوصول إلى عملي وعمله مبكرًا عن زحام وسائل النقل الأخرى

كان الوقت يتطاير، لا أرض تحتنا ولا سماء فوقنا، فقط أنا وأنت، يخبرني أن الحياة مصنوعة من نوعين؛ السعادة والحزن، وعلينا أن نتعلم أن نعيش في أي منهما

الشتاء كان قارصًا، يجيد هو لف ابنتنا في بطانيتها الصغيرة وأعد له ولي إفطار الصباح، ونحمل أحلامنا البسيطة معًا، نجوب المدن ولا نكف عن الضحك حتى كان يوم التفت طرف عباءتي تحت عجلات دراجته نتج عن هذا كسر زراعي وخدوش وكدمات في أنحاء جسدي، طبب أوجاعي واستمتعت أنا بلهفة عينيه القلقة عليّ، آثرنا بعدها الانتقال لمسكن قريب من العمل، شقة صغيرة لكننا فرحنا بها كثيرًا، كنت ما زلت حاملًا في ابنتي الثانية، وجدران الشقة على الطوب الأحمر..

أضأنا ضوءًا ضعيفًا، ما زلت أذكر لونه الأصفر الذي يبهجني بذكرياتي معه، قسمنا العمل ووقفنا حائرين من أي الغرف نبدأ، ثم أدهشني لسرعته في رسم سطور وصلات الكهرباء، ورحت أعد غداءنا البسيط حتى يُحضر خامات الإسمنت ودقائق الجبس، أخبرني أنه سيجيد تزيين حوائطنا كما زين حوائط وأسقف الناس منذ صغره، رفعت له يدي حاملة وعاء الإسمنت وتناول هو منه قصائد حبي الجلي في عيني، مزجنا معًا تلك الألوان واختلفنا حين أراد كل منا أن ينفِّذ للآخر رغبته حتى يرضى، فتسابقنا على تنفيذ رغباتنا التي اختلفنا عليها سابقًا، الرحمة لا يعي وقعها إلا الراحمون الذين ينشرون الصبر ويهمس جوفهم بالشكر وتخضع قلوبهم سكنًا ومودة، كنت أطبِّب أوجاع يده وأمسح عنها أذى الضرر، اليد الخشنة التي تعرف جيدًا نكهة الحلال وتجيد احتضان قلبي المرهق من الشقاء المماثل، ارتديت ملابسي وهممت بالخروج معه كما، اعتدنا كل يوم صمم ألا يأخذني وأخبرني أن ألازم البيت اليوم وأن أعدَّ له أكلته التي يعشقها، غادر ثم اتصل بي بعدها بعشر دقائق مؤكدًا ألا أغادر اليوم باب شقتي، وأراد أن يطمئن علي صحتي طالبًا مني أن أحصل على بعض الراحة، ابتسم قلبي ورقص وشرعت أفكر كيف يمكن أن يكون يومنا مميزًا وسعيدًا كأيام فرحتي بجواره، لا أعلم ماذا حدث بعدها، ما كل

تلك الأشياء التي تحيط بي؟ ما بال بيتنا الصغير وقد امتلأ بكثير من الوجوه؟ من هؤلاء الذين أتوا ويرتدون زيًا لونه واحد؟ أمي أبي إخوتي أخته، ما الذي جمع كل تلك الوجوه رغم ابتعاد مسافاتهم؟ هذا لغز حله صعب، لا تجتمع كل تلك القلوب هلعًا إلا في العزاء، يجتمعون مواسين ويرحلون تاركين خلفهم قلوبنا الفارغة من كل شيء إلا من وجهه، أردت أن أراه، أن أطبع قبلة أخيرة على وجهه، وأرادوا هم أن أحتفظ بمشهدي الأخير معه، علموا أن الأمر سيؤذي قلبي كثيرًا لو رأيته قبل التشييع، ولا يعلمون أن قلبي لم يختبر وقع هذا الأذى بل تحطم وسحق بلا رحمة، أغمضت عينيّ بعد وقع الأمر، وآثرت الصمت لا ليلة أشد على القلب من وقع الليلة الأولى في عام الحزن الذي يولد كبيرًا، اختبرت أن يصغر كما تقول الكتب، أو كما يقولون، لكنه ولد معي كبيرًا وازداد كبرًا حتى بات الأمر مانعًا من التنفس، حدثت النهر كثيرًا عنه، وأردته أن يمنحني وقتًا كبيرًا في أحلامي، أخبرته أنني أردت قلبه الراعي ليرشدني وأجبته حين لم يتكلم سوى بعينيه المبتسمة في حلمي قائلة: أين قلبك الذهبي يا محمد؟ عام بعدها ولا تعيد على مسامعنا سوى المشهد الأخير، تكرر الأمر وكأنه حدث الليلة الفائتة، كل يوم تعيد المشهد ونستمع له بلا ضجر، ما أعذب تلك الهبة! هبة البكاء حين نُخرج ما تئن به قلوبنا، التأخر في العمل بات كثيرًا، الغياب المتكرر، الحيرة المتجسدة في القلق الدائم، حملناها كما حملت أعباء العمل عنا في السابق، لكن الملل اختار نصيبه من البعض تأففًا، فتلك نفوس البشر الذين يفكرون في مصلحتهم وينسون من مد لهم يد العون في أوقات سابقة

وقبح يتجسد في مضايقة من زملاء عمل بدعوة على العشاء، أعود لبيتي أغدو إلى صورته أشكو له قائلة: كيف حدث هذا؟ أخبرني يا محمد؟ لماذا؟ ولماذا لم أستطع صد هذا القبح؟ كيف انعقد لساني فاكتفيت بالرحيل خوفًا وذعرًا، أنا لست خاضعة بالقول كي يطمع الذي في قلبه مرض

أغمضُ عينيَّ ويتكرّر المشهد مرة أخرى فلا يغدو من أمامي إلا وقد سددت له لكمات الصد وأجدت الدفاع عن نفسي في وطن أصبحت فيه وحيدة بدونه بدون محمد، حتى اعتاد الجميع الأمر واكتسبت صلابة واقع مواجهة قبح الحياة بدونه، فما كان راعيًا لي سوى ربي ولا مهونًا لجروحي مثله ولا ناصرًا لي على قبح الزمن غيره، فلا يمر يوم

إلا وأنا ساجدة له وحده سجود الشكر دومًا

ويخبرني هو مطبقًا في نومي يا حبيبة القلب ثمة أشخاص في قبحهم كالفحم، يصعب إزالة أوزارهم من اليد، يدي كانت في يدك دائمًا يا محمد، فلِمَ تركت تلك اليد الآن؟

يدق منبه الوقت معلنًا انتهاء الحلم وبداية يوم جديد دونه، انتقال لبيت الأهل وإصرار مني على تحمل كل شيء، بنيت لنفسي غرفتين على السطح وآثرت عدم إثقال أكتاف الأهل بعبء حياتي معهم، أخبروني أنني زهرة أنطفئ يومًا بعد يوم، وسعيت لكم باكية من عتب زوجة أخ وتعامل فظ أراه أمام عيني لأمي فأكظم غيظي وغضبي من الأمر خوفًا، أنتِ مخطئة يا نجلاء كيف أمكنك أن تصبري؟! كان لا بد أن تضعي لها حدودًا، كيف تفعل ذلك مع أمك؟ ما بال الأمر وأنتِ عنها غائبة، فداء لا تظني أن ذلك المشهد لم يذبحني وجعًا على أم ضعيفة مستسلمة وأنا لا أجيد الدفاع عنها، أتريدين أن أقع في الفخ فيقولون إنني أردت التفرقة بين الإخوة وأنني منذ دلفت إلى بيتهم أحرقت الهدوء الذي كانوا ينعمون به، لا يملك الكثيرون حكمة العدل ويميلون بآذانهم لما تهمس لهم زوجاتهم، فلا يجيدون الإصغاء إلا لطرف واحد، الرحمة يا عزيزتي والعقل هبتان يفتقر لهما كثير من البشر، فكيف يمكننا أن نصلح تلك الصدوع ونطبب تلك المعايير؟ نحن بحاجة لنغير أنفسنا حقيقة كي يصبح عالمنا أكثر زهوًا وأفضل من قلوبنا المتنازعة على التوافه، يا فداء الجمال عمقه يسير والقبح يحتل أوطانًا كاملة ولا يغذي هذا القبح سوى بعد كبير عن كل ما هو جميل في ديننا، حتى أظلمت العقول وانطفأ نورها وبات كل شيء بحسابات دنيوية أشد بأسًا، نجلاء أرجوكِ افتحي قلبك للحياة، اسمحي له أن يحيا، أن يخفق مرة أخرى، يمكن للنور أن يضيء وطنك ثانية

لا بدّ أن الله أراد لك رسالةً ما، أجيبها أنا لا أرى إلا محمد

فستان الخرز

كل فتاة مهما كان عمرها حلمها الأول هو فستان

أمي هذا يكفي أصبح الفستان جميلًا ليس بحاجة لإضافات، ما الأمر؟ ألا يعجبك؟ وتدمع عيناها، حبيبتي أشفق عليك من العمل أنتِ مجهدة، بحاجة للراحة، لو ألبستني قماشًا خاليًا من أي زينة لفرحت مكتفية بلمس يدك لأطرافه، ابحثي لكِ عن الراحة، وقت مستقطع، لا تكوني مهملة في حق نفسك هكذا

فرح لا تتكلمي كثيرًا وناوليني علبة الخرز الخامسة، أمي أتعجب منك كيف تجيدين ترتيب كل أنواع الخرز تلك؟ بهذه الدقة أنتِ تنظمينها وكأنه فهرس مرجع في عقلك، تلك مهارة فرح، أتدرين لم أسميتك فرح؟ كي أحصد تلك اللحظة، لحظة فرحك، وأنا أغرز حبة حبة من ألوان الخرز في فستان زفافك، أمي كان بإمكانك أن تؤجري فستانًا توفرين به إجهادك، بكت وشعرت أنني ارتكبت خطأ كبيرًا

ألا تريدين أن أترك لك ذكرى مني؟ أجدت صُنعَ فساتين الناس مرارًا وترجمت رسوماتها في عقلي وكياني، ونذرت صُنعَ فستانك، كيف يمكن أن تحرميني من هذا الأمر الآن؟ أمي لمَ لا تفهمينني؟ أردت لك الراحة لا أكثر، لمَ أنت حساسة إلى تلك الدرجة؟ أنتِ امرأة قلبها محطم لا تغفلين يومًا عن إسداء النصح لي وتحميلي بمسؤولية دقة الاختيار حتى أصبح الأمر مرهقًا حقًّا، أمي أصبح الأمر مرهقًا جدًا

أنا أيضًا تعبة ومرهقة وحائرة، خائفة من أن يتحطم قلبي مثلك، وأنتِ لا تكفّين عن إثقال أوزاني خوفًا لأجلي، أنتِ تخبريني دائمًا أن أجد حظي في الحب، ولكي يحدث ذلك علينا أن نجد الشخص الذي وضعه الله على الأرض ليكون شريكًا لقلوبنا

كيف يحدث هذا أخبريني؟ جدران قلبك الذي تحطم أخبرتني مرارًا أنك أجدت ترميمها، لكن الحقيقة أن قلبك هو الذي بحاجة للعلاج لا قلبي أرجوكِ الحياة وقعها سريع العطب علينا أن نعيش كل يوم وكأنه آخر يوم ما المضيء في حياتك يا أمي أخبريني؟

أجابتني أنتِ يا فرح الشيء الذي أضاء عالمي وكياني، تنظر لي بأسى وتغمض عينيها... قائلة كيف أمكنكِ أن تكوني قاسيةً إلى هذا الحد؟ لم أشكُ لأحد وجع الحب الذي غادرني ولا وجع الاحتياج، حين كنت بلا مأوى عائدة لبيت أمي بلا عمل ولا مال، وأنتِ قلبك ينبض بداخلي

لم أفرح يومًا كفرحة رؤيتي لك صدقيني، لَمْ تبكِي حين خرجتِ للحياة أبصرت فيكِ جمالًا أزهدني كل شيء وأي شيء، وابتسمت نعم ابتسمت يا فرح لم أرَ أبدع من تلك الابتسامة، وما تمنيت أكثر من ألا تفارقك أبد حياتك، دعوت أن تكون حياتك فرحةً كبيرةً وأسميتك فرح، صدقيني يا حبيبتي لَمْ أرغب في تحقيق الأسى يومًا لك ولم أعرف في عمري أمنيات إلا من أجلك، أبوك فطر قلبي وسألت نفسي مرارًا عن تلك الحياة التي تشبه الوميض أي أخطاء ارتكبتها ذرفت عليه دموعًا حين تركني وحيدة حائرة عائدة بعد أشهر فقط من زواجي به

العودة لبيت أمي آلمني كثيرًا عليها، فهي لا تحتمل وجود عبء عليها والحياة مكلفة الستائر التي تحجب نوافذنا وتمنع عنا أعين الجيران أولئك الذين لا يفقهون شيئًا عن أدب الجيرة وغض البصر ولا يبصرون للخلق مكانًا في أوطانهم الستائر البالية كنت أجوِّد رقعتها بالقماش وأحمي قلبي وحياتي من نظرات من لا دين لهم ستائري البالية تلك كان تغييرها حلمًا لسنوات لم يتحقق... ولم أغيرها إلا حين دق باب منزلي خاطب لك..

كنت وحيدة حين تركني أبوك، حائرة لا أبصر انفراجًا لما أعاني وعقلي يعجز عن الحل حتى وقعت عيني على إعلان كبير جمعيات لرعاية الأرامل والمطلقات يكفلون لنا عملًا ورزقًا حلالًا، مشاريع صغيرة، إنه عالم حبات الخرز، بت أعرف عددها وأشكالها وأنماطها وأسلي وقتي بعدها حمدًا وأعلم رضا أن بوقع كل شكة منهم حسنة يهديها الله لي ويخاطبني في رؤياي عن الجزاء جزاء الصبر بلا شكوى وجزاء الحلال بلا ضجر وجزاء العفاف برزق يهبه لك دون طلب فيحضر لباب بيتك دون سعي من أصحاب الفضل المستمتعين بالعطاء، عمل تتقاضين فيه أجرًا زهيدًا ويتقاضى غيرك منه أجورًا خيالية، إجهاد شديد وعمل ترفعين به رأسك عاليًا أمام الناس لأنه عمل شريف يوفر لأمي ولك يا فرح حياة مهما كانت بساطتها لكنها حياة حياة يا فرح حياة، يختنق صوتها فأبادر

إليها أقبل يدها ورأسها وقدمها وأنا أحدث جوفي كيف أمكنني أن أجرحها هكذا

وكيف يمكنها أن تسمع كلماتي الآن؟ عرق جبينها الذي أرهقها تركيزًا، وحرارة صيف لا تملكين فيها منفذ هواء سوى هذه النافذة الصغيرة، نخزة في صدرها فتطفئ أي رغبة في الحصول على العون الطبي، لا يمكنها أن تضحي بثمن كشف فهي لم تنتهِ بعد من إحضار جهازي وفرحي على الأبواب

كيف يمكنك القلق صغيرتي وأنت تملكين قلبًا يسانده الله، ظللت أبعث الرسائل وأنا أخاطب حبات الخرز في كل مرة ومع كل فستان بأن يحمل السعادة لصاحبته ولمسته حمدًا حين كنت ألهث وأنا أزيل العطب عن حبات الطماطم فأغسلها وأغسل معها جوفي وأصنع طعامًا برائحة الكرامة ولا أسخط حبات الخرز وآلامها لم تكن بداخلي دمعات بلا أملًا رسمته وأنا أسير على الخط والنظم حد النهاية نهايته لم تكن قاتلة لقلبي رغم كل شيء بل كانت بداية أجاهد فيها لأنني وحدي وظللت أخشي عليكِ كالزهر وأحدث نفسي أن الحب وحده هو ما سيجعلك تصمدين وأن الرياح لن تقتلع الأوراق بسهولة وأنها لو أكملت وحدها دوني فلن تكون مستسلمة طائعة لا لقوتها يا فرح بل لأن الله يرعاها يطبب أوجاعها يرحمها ويجدد الأوردة والغصون يدعمنا دومًا برسائله ويجعلنا نحلق حمدًا له

يا ابنتي الذهب نجيد صهره نختبره بالنار أما الرجال فيتم اختبارهم بالشدائد لا تجزعي يا صغيرتي اختبرت خاطبك وأدركت أنني أزفك لرجل حقيقي لا تجعلي ثمر الشجر يسقط، ولو سقطت ثمرة فتأكدي أن تلك فرصة من الله كي ينمو ثمر أفضل، لندرك أن النهاية التي نظن بعقولنا أنها أكبر أوجاعنا ما هي إلا صورة موازية لبداية جديدة، اجعلي بداياتك كلها مضيئة ولا تجزعي لو وضع أحدهم نهاية لشيء ما في عالمك، وتأكدي أن رحمة الله لن تتركك، أحبي ولا تخافي ستلاحقك دعواتي دائمًا، فأنتِ فرح وكنتِ دومًا في حياتي فرحًا، وقلوبنا مهما أظلمتْ ومهما ظلمها الحب ثمة أشياء تجعلكِ تبتسمين من وقت إلى آخر كبسمتي دومًا بفرح مع كل انتهاء لفساتين الخرز

مسارات الحب

الخطوط المتوازية نفسها لا تلتقي إلا لو كُسر أحدها وسقط عندها سيتقاطعان أو سيهشِّم كل منهما الآخر، الطلاق نفسه حكمة لو ما كان له حكمة ما كان الله أحله كل أمورنا بيد الله، الإنسان نفسه مسير وليس مخيرًا، الأبواب التي تظن أنها لن تُفتح لا يمر عليك الوقت إلا وقد ظهرت أمامك معالم طريق آخر لا تتوقعه ولم تصل قدمك إلى بداياته إلا برعاية من الله وتوفيق، القلوب التي تهبك الحب تلك التي تحفظك تضمد جراحك وتغسل أوجاعك وتُزيل عوائقك، ما أنار طريقي سوى حسن ظني بالله في كل أمر كنت أبدؤه كان بداخلي يقين أنني سأنجح

أجبتها أمي والحب؟

الحب شيء جميل، الحب ليس بين الرجل والمرأة فقط، الحب له أوجه عدة ومنبعه الحقيقي من أعماق القلب، حب الأولاد البر بأم أمل تبذلين فيه جهدًا ثقة تكتسبين بها قلوب من حولك فيلجؤون إليك بعد الله لحل مشاكلهم، الحب احتواء احترام تلمسينه في عيون الآخرين، عينك جميلة وقلبك راضٍ فستبصرين الخير والجمال أولًا وفي النفوس سيصعد هذا الأمر على السطح دومًا وأنتِ تكونين الملامح الأولى فيمن تتعرفين عليهم

ستبصرين ما بداخلك من جذور طيبة انعكاسًا على الدنيا، أما أصحاب عيون القبح لا يبصرون سوى التشوه الذي بهم فتنعكس رؤيتهم على الغير استنادًا لمرآة ذاتهم، الحياة نفسها مليئة بكل الأصناف، نحن لا نختار لكن توفيق الله هو من يضع أصحاب الأعين الجميلة في طريقنا، فينتشرون حولنا ونصنع منهم حدائق ذات بهجة، تلك الحدائق هي الحب، أبصرت في حديقتي جمالًا أخاذًا وشغلت نفسي برعايتهم وقطف ثمار المحبة عطاءً للعمل الخيري

ذقت سعادة إدخال السرور على الأسر الفقيرة وجمع التبرعات لبناء دور الرعاية، جبت للأسر التي تفتقر لنعمة الإنجاب وأدرت رؤوسهم إقناعًا بكفالة طفل يتيم

احتسابًا لله، وأدار الزمن وجهته للقيا بهم، فما أخبروني إلا بمعنى سعادتهم الحقيقية بما جد في عالمهم من حنان، أبصرت الفرحة في عيونهم وغدا لقلبي فرحة أعمق وأنا أرى نسائم الحب ومساراته وطرقه وإلى أين يمكن أن تحملنا الأمنيات وهمها،

هذا حب يا مرام، طرت فرحًا لكل امرأة أعنتها على بدء حياة جديدة، ولمست معنى الستر الحقيقي لمسكن وعمل لأولئك المجاهدات بشرفهن في الحياة... ورقص قلبي فرحًا حين أعددنا جميعًا وحدة للغسيل الكلوي اعتمادًا على تبرعات من كثيرين وثقوا فينا

فأخبرنا الحب بحلاوة الانتهاء للعمل الذي كافحنا عليه سعيًا، فالدال على الخير كفاعله، لحظات حياتي تلك ما كانت أجود على قلبي حبًا من أي شيء في هذه الدنيا هذا حب

الحب ليس طرقًا على باب القلب فقط، الحب أعمق من أن نختصره في تلك المسافات القلبية، أجبتها لماذا لم تفكري في الزواج مرة أخرى أمي؟ ما حاجتي لذلك أردت أن أحيا أميرة، قرآننا يخبرنا عن زينة الدنيا المال والبنون، وأنا أملك كليهما، أنتِ وأخوك كلاكما أضاء مصابيح العمر

الصباح للعمل والمساء أدرس لكما ونفرح بتزين صفحات دفاتركما ووضع قصاصات الورق الملونة، الألوان دومًا تضفي على قلوبنا بهجة، قسمت وقتي بينكما وبين العمل الخيري، وحفظت أوقات الزيارة المعتادة لأم زوجي احترامًا، حتى أبوهم أسأل عليه بين الحين والآخر، وحين يمرض أطمئن عليه، بيننا معاملة راقية افترقنا ولم يتزوج كلانا لا أنا ولا هو رغم انقضاء ثلاثين عامًا على الهجر، ألمس حبًا هنا فلماذا لم تكتمل؟ لماذا لا تلتقي الخطوط لتكتمل الحكايا؟ حكايا الحب

كانت أمي تدعو لي دومًا بأن يغدوا عالمي وأنا فيه أميرة، اجتهدت كافحت ووضعت شقاء العمر في بيت بنيت جوانبه في ثمان سنوات، وآثرت التقاعد بعد عناء العمل لعمر كامل، ثم فتح أمامي باب لرزق جديد، لا أعرف يومها كيف بدأ لكنه دخل لعالمي من خلاله رزق واسع، ساعدني وهيأ لي حياة كريمة لصغاري الذين أراهم في عيني صغارًا مهما كبروا، وأخاف عليهم من كل شيء وأي شيء، الحب ينير مسار دروبنا فمسارات الحب جميلة وقوس لونها باهر، أعترف أن ما لديّ من مال وعمل ساعداني

ويشفق قلبي على نساء قبلن بأزواج مرغمين احتياجًا لمن ينفق عليهن، حكايات الناس في عالمي كانت كثيرة، وخبرت الحب بأنواعه في القلوب التي رصدت حلًا لمشاكلها دومًا احتويت معلماتي وأجدت إدارة عمل كبير لخمسين معلمة في صرح علمي استنادًا لهذا المنطق، الحب كالإنفاق في سبيل الله له لذة لا يفقهها إلا أصحاب البذل، أصحاب العطية المتجددة لوجه الله، فما اختبرت روعة شعوري الدائم حين أغلقُ على نفسي باب بيتي إلا أنني أميرة وما طلبت من ربي شيئًا إلا أن يديم علي نعمة الستر من الأذى وكفّ الشرّ من النفوس، ورجوت ربي أن يكون بيتي دومًا واهب العطايا، فلا أحتاج لأحد حتى لو كان ابني أو ابنتي، الحب شيء جميل والزواج ميثاق غليظ أساسه المودة الرحمة والسكن، لكن الطلاق حكمة إلهية لنبصر عظم العطاء الذي يقترن أحيانًا به

الحب يحتاج للفراق أحيانًا وفراق مرام لي للدراسة جعل عالمي كصحراء وأنا أقف كشجرة وحيدة به أملك الوقت وأملك رسائل الحب التي ترسلها مرام ورسائل الحياة التي عشتها مع كل خير وخلف كل عطاء حتى وصلتني رسالتها في يوم الأم رسالة ليست طويلة بقدر طول المسافات القلبية التي تفصلنا، طرد بريدي بهدية جميلة وبداخلها رسالة

(أمي:

أعلم يا حبيبة القلب كم أنت جميلة ورائعة وطيبة وكم أشتاق إليك كلما ابتعدنا وأبي أيضًا طيب ورائع، فلماذا لم تلتق القلوب إذن الضوء الذي يشع من كليكما لماذا أراه جليًا وأنتما مفترقان؟ لماذا لم يكن الحب هو مرسال هذا الضوء بينكما؟ لماذا لم يكن وهجه منفردًا كفيلا بالأمر؟ لماذا حين التقى الضوآن بات الاندثار وقضى كل منهما على الآخر دون رحمة... لماذا تتلاشى الأضواء في عالمكما والتي حاولت مرارًا أن أوازن بين الكفتين كي لا يطغي أحدهما على الآخر؟ ولماذا لم يفلح الأمر حين حاولت؟ لماذا لم يزهر الحب بينكما؟ ولماذا لكل منكما حديقته الملفتة لقلبي وحدكما دون التقاء؟ أعلم أنكِ اختبرتِ وجع فراقي لك لغربة دراسة في مدينة مكتظة بالسحر فما طمأنني سوى يقين بالله ودعواتك التي تمنحني القوة في صقيع بعيد وقارس، أدرك يا حبيبتي اليوم أن القلوب بين يدي الرحمن يقلبها كيف يشاء وأن افتراقها كان لحكمة سَعَةٍ أغنى الله

كلا منكما بها، القلوب قَسَمٌ لا نملكه تلك حكمة أفهم بذورها اليوم وأنا أخط بيدي ما عجزت عن قوله لك في مكالمات الهاتف الرسائل حين نكتبها نفرغ الأنين فتداوينا قبل أن تداوي قلوب أحبتنا، أدرك اليوم الحكمة التي جعلت من رعايتك لجدتي هبة، وقتك الذي كان من الممكن ألا تجديه لو كنتما لا تزالان معًا، رعايتك لها، تسخير الله لك الطريق الممهد للبر والعمل الخيري، فتفاني يا عظيمتي في هذا الأمر، أحبك أمي وأحب الحب بينكما افتراقًا)

صندوق الدمى

كل قصائد القلب هي من علمتني إياها لم أكن أبصر إلا من خلال عينيها، لم أملك يومًا قرارًا كي أختار، أو ربما لم أسعَ أنا لذلك لأنها كانت هنا دائمًا بجانبي، لون حذائي تسريحة شعري ونوع عطري لون طرحتي الخاصة وأدويتي التي تجيد إرسالها لي معرفة بنوع المرض، مع أنها ليست طبيبة، كل شيء كان يتم هنا معها وكل حلم كان من أجلها ولها، كانت تخبرني دائمًا أنني كبيرتها وأنها تعتمد علي في كل شيء، لكن الحقيقة هي العكس، كنا نحلم معًا، نرسم معًا، ونبكي معًا، ونملك وقتًا خاصًّا نهدية لأختي الجميلة، تلك التي ولدت معي توأمًا لروحي لكنها أصغر بعامين، صندوق ألعابنا كان ممتلئًا بدمى صغيرة، وكانت أمي تجيد صنعها وتزين أنوفها وأعينها بألوان الخيط، ألعابنا كانت بسيطة وكانت حبيبة في حياتي هدية، إنها متلازمة ولدت بها، لكنها في عينيّ كانت ملاكي التي خُلقت كي أرعاها، غرفتنا ليست صامتة إنها تعج دائمًا بالفرح بالسعادة وبالنشاط، ومدرسة التربية الفكرية كان لها دور كبير في إثقال موهبتها وإفراغ طاقتها الخلاقة، أما أنا فوقتي البسيط موزع وأنا في أحضانهم مكتفية، أكلة لذيذة وأكواب الشاي ومشاهدة تلفاز صوته ضعيف في ليل الشتاء الجميل، إنه وقت الراحة من عبء اجتهاد سنة البكالوريا، ماتت أمي، أغمضت عينيّ ومنيت نفسي كثيرًا أن يكون هذا الأمر حلمًا ومضى، كل ليلة كنت أضع فيها رأسي على الوسادة أعاهد القلب والعقل أن هذا يوم سيئ وسأفيق منه على حقيقة أخرى، حقيقة وجودها، لكن حقيقة الرحيل كانت أشد وهجًا، كسرني الأمر، جعل كل شيء في حياتي بلا نبض، تمنيت الموت ومرارة الأيام الأولى بدونها كانت لا تصدق، أختي كانت أكثر بؤسًا، وتحولت أنا إلى أم لكل من في البيت، كان أبي رحيمًا يحضر لنا الطعام ولملابسنا كاويًا، لكنه لم يكن يجيد صنع الدمى كأمي، مع أن صناعتها سهلة لكن محاولتي لصنع مثلها لحبيبة كان أمرًا شاقًا، كان انتهائي من كل دمية مؤلمًا لقلبي ومفرحًا لها لقلب حبيبة، كانت تسعد جدًا بها وتظل تبتسم بسعادة حين تضعها في صندوقها لتنام

موت أمي كسرني خمسين بالمائة، هي ما استطعت الحصول عليه من درجات لا تؤهل إلا لمعهد تجاري، التحقت بالمعهد وصببت حزني التهامًا للكتب، حتى حصلت على مجموع يؤهل للجامعة، التحاق بكلية التجارة، تفوق، الجميع يتعجب، والعيون تتطلع حسدًا، وكأن النجاح لم يكن له ضريبة، إنها السنة الأولى من الجامعة والقلب يدق خطواته الأولى في الحياة، ألحانه لم تكن صاخبةً، لكنها كانت صادقة

وقلب حبيبة التي كان العالم كله يظن أنني أرعاها كانت هي لي دومًا الراعية، كنت أهرب إلى أحضانها حين تقسو عليّ الحياة، فأخفض رأسي على قدمها لتخبرني أنني صغيرة وأنني سأجد الحب وأن عرائسنا لم تكن لتفترق، وأنها صنعت لي بعض الدمى لتفاجئني بها حين أحمل أغراضي بعيدًا عن عالمها، كنت دائمًا أعرف أن تلك الرابطة لن تنكسر، وأن الحب لا بد له أن يكون منصفًا، رحيل أبي هو الآخر كان أول مسمار لم يدق نعشه إلا في رأسي ليهزم كل جبال المقاومة وليتركني في الحياة وحيدة بدونه ليختار الحب أيضًا الرحيل

أعددت ورقة بيضاء وزينتها بأحبار كي تنطق بكل ما حصلت عليه من مؤهلات ودورات، كي أتنقل عملًا بين شركات متفاوتة ومتغيرة وفي كل مكان كنت دائمًا أتعرض لمضايقات وسخافات ممن خلقوا بلا خلق ولا ذمة ولا ضمير، ولا ضير من إبداء الأذى وأنا فتاة وحيدة بلا عائلة، الأعمام والخالات والجميع كانوا منشغلين فهموم الحياة كثيرة ومتنوعة، وعمر يمضي للأمام، خاطب خلف آخر خلف

آخر، والجميع يملك صوتًا واحدًا، نتزوج، لكن أختك لست مسؤولًا منها، في كل مرة كان ينبغي أن أرفض، وكان رفضي اقتناعًا، لم أضعف يومًا، كان لديّ حبيبة وكان قلبها يجعلني أكتفي بحنانها لأتذكر من خلالها أمي دائمًا، وجوانب بيتنا كانت تغذي هذا الأمر في كل عمل كنت أتنقل فيه كان الخاطبون يزدادون قبحًا وجشعًا وكان كثير منهم يرغب في زوجة ثانية، ولم أكن أنا لأقبل بمثل هذا الأمر، كنت أظن أنني سأطوف العالم وحدي دون أن ألتقي بالحب

حتى بدأ القلب ينبض من جديد، حب جديد يقبل بي ويمد لي يد العون، شبكة رمزية وتباسط في كل التكاليف، بل رضاء بأن نمكث في شقة أبي ذات الإيجار القديم، كنت سعيدة ورحت أعد قائمة بما سأحضره من منقولات متنوعة، ألوان الأطباق عدد

الكاسات ملاعق الطعام وفناجين القهوة التي حلمت بها مرارًا وأنا أتذوقها مع زوجي في هدوء، ونحن نتحدّث عن هموم العالم وأوقات الحب وذكريات الأبناء في كل مكان سنغدو فيه معًا

كانت الأحلام بسيطة، كانت كافية، بجعلي أبتسم وبجعل قلبي يعرف طريقًا للسعادة من جديد، أما هو فلم يبادر لأي شيء، لم يحاول أن يفعل شيئًا، يبدي من خلاله جديته في المضي ليتركني بعد عام كامل، لم أقضِ ليلتي بعدها حزينة، كان قلبي قد اعتاد الأمر، اكتسب صلابة وحبيبة، كانت دومًا بجانبي، اعتدت مشاكل العمل والمضايقات وعروض الزواج الخبيثة ممن لا يملكون ضميرًا حتى نظرت ذات مرة في المرآة ووقفت أمامها متألمة متأملة، ونظرت في انعكاسها وقد بدت أمي في الخلف معنا أنا وحبيبة، كنا نضحك دون هم ودون قلق من كل غد أطلت النظر وندمت على كل لحظة تقصير، وتساءلت: هل نظلم أنفسنا بالرحيل والبعد؟ هل حب الله هو الأبقى؟ هل يحل السلام على قلوبنا متى امتلأت بالحب له؟ أزلت مساحيق التجميل الخفيفة التي كانت تزين وجهي وغطاء رأسي الذي إلى الخلف منسدل أصبح مختلفًا، صلاتي يومها كانت طلًا أزاح الغبار من صخرة قلبي كي يُبصرَ العقل وكأنها بداية جديدة، إرهاق شديد، مشاكل في التنفس، ألم دائم في الصدر اكتشاف لإصابتي بالسرطان، كنت أصنِّفُ الأمر في السابق على أنه وجع وتيه وشقاء، لكنه أصبح مختلفًا، كنت أكثر ابتسامًا، وكانت حبيبة أكثر انهيارًا، تبدلت الأدوار هنا، الأوقات الأولى في أيام العلاج كانت قاسية عليها، أما أنا فأصبح لكل شيء لون آخر في قلبي، إنه الرضا وتماثل للشفاء بنسبة كبرى كي أعلم بعدها أن العلاج يشمل أدوية توقف عمل الهرمونات كي لا ينمو المرض من جديد، وحلم الأمومة للمستقبل بات هو الآخر راحلًا مع من رحلوا، كان التغيير دومًا بسرعة وبطريقة متعاقبة، تناولت كرسيًا وساعدتني حبيبة كي لا أقع من فوقه خوفًا عليّ، هناك في أعلى الخزانةِ، المكان المظلم المعبق برائحة النفتالين، إنها ملاءات ظلت أمي تحتفظ بها لزواجي ألوانها الزاهية والجميلة نثرت بعضها في كل الأجزاء علّني أبهج سعادة الماضي بحاضري معها ومع حبيبة، ليت ألوانها لا تبهت مع الأزمان،

في السابق كان القلب يتحدث دائمًا عن الحياة والسعادة وأنه لا يهتم لتأخر سني في الزواج خاصة أمام الآخرين كي يعلموا كم أنا قوية وأن الأمر حقًّا لا يعنيني، أما

في داخلي فكنت أصرخ، كانت القضية أقرب إلى دخان بلا نار لكن نيرانًا عظيمة كانت تشتعل بداخلي والمارون لا يرون سوى خيط رفيع من الدخان وحلم الأمومة الراحل انفطر قلبي مرارًا، لم يعد هناك قدرة لتحمل الأمر أكثر من ذلك القناع الذي كنت أضعه في السابق، كان يرضي غروري، أما اليوم فالقلب لم يعد بحاجة للقناع، لقد أعلن الراية، راية الرضا لا الاستسلام، واكتفى بتلك الابتسامة التي تعلو وجهينا معًا أنا وحبيبة حين نفتح معًا

صندوق الدمى

أحبه... ولكن

الأبواب كلها في وجهي باتت موصدة، لا شيء يمكنه كسر هذا الأمر، كيف يمكن إصلاح علاقة مكسورة، الحب نفسه علاقة متشابكة ومتداخلة، لا يمكن التكهن به، تلك مدينة مسالمة لا مجال فيها للقسوة ولا للأذى، الرجل الذي تأذيتِ بسببه في الماضي لم يعد في حياتك الآن غادرك فغادري أنتِ الأخرى لحياة جديدة، الشتاء الصيف الربيع والخريف، الفصول كلها هنا في قلبي إلى متي سنظل نخدع أنفسنا لا يمكنك ترك الهوة تتسع بيننا، الحياة من الممكن أن تأخذنا لاتجاهات مختلفة وحدنا من سيعيد توحيد الاتجاه لنبحر معًا دون أذى، قلبي اختارك، فلماذا؟ أخبريني لماذا؟ انتهيت من قراءة رسالته ثم أغلقت الصفحة وكأنني أقول لا تنظري إليها مرة أخرى لا تنجرفي لهذا الأمر، أنتِ لست صغيرة اتركي الصوت الذي يهمس بداخلك، لا حق لكي في أي شيء، مشاعرك تظلم طريقك لا تضيئه، المشاعر تساعدنا على التغلب أحيانًا على كل الأمور المفزعة والقاسية في حياتنا... لكن البعد بين القلوب هو وحده من يهزم المشاعر، صدقيني يا غفران لم أُرِدِ الأذى لي ولا له، أعلم أن أخاك دق باب الأهل طالبًا لقلبي وما أبصرت رأيهم ولا رأي أهلك الذي أعلمه مسبقًا، أعلم مشقة الرفض ولا أنكر تعلق قلبي به، ظللت أفكر ليلتها في قراري الذي أخبرك به الآن، وأتذكر دعوتي يوم تركت زوجي الأول بأن يعوضني الله خيرًا، هديل الحب لا يعرف وقتًا ولا يعترف بفارق الزمن، ثمة مَن أعمارهم كبيرة ويملكون تفاهة وضعف رؤية، وثمة صغار شجرة عمرهم سنواتها معدودة بما فوق العقدين بسنوات ويملكون عقولًا مستنيرة وحكمة لا تتعلق بالزمن، ليست مأساة أنه يصغرك بعشر سنوات، غفران أخبريه ما حاجتك في امرأة تكبرك بعشر سنوات وتملك من الأطفال أربعة؟ هديل الحب لا يعرف سوى حقيقة واحدة أن ثمة قلبين حياة أحدهما بدون الآخر كارثة، لا تذيقي قلبه مأساة تلك الكارثة، هو يحبك

لا تكوني قاسية، عاهدك أن أبناءك سيكونون أبناء له، وأن السبل باتت كلها ميسرة، ما المانع إذن؟ أجيبها: دعي الألم يتمكن منه فسيبدع، سيرسم من أوجاعه نورًا لينير دروب الآخرين، أما أنا فأمامي طريق أطول وأعسر، جوانبه ليست واضحة وعليّ أن أبقى دومًا متيقظة من أجلهم، من أجل أبنائي، طريقي وجهته واحدة فقط يا غفران، ولا مكان لأحد فيه سوى لهم، فقط أخبريه أنني مزقت الرسالة

تأخر الحب

ثمة أشياء تغير نظرتك للعالم بأسره، للبشر للحب للحياة، لتفاصيل شغلت وقتًا طويلًا واستهلكت من فكرك كثيرًا من الحزن، ثمة أمور يصبح كل شيء بعدها متلاشيًا هباء، دخان منبعث كصباح تخترقه أشعة الشمس، تريد أن تصرخ معلنة بداية يوم جديد، الحياة في الغربة تنزع منك أمورًا وتثقلك بحكم وتمنعك من ذكريات، كنت تظن أنها لن تغادرك، وحدي كنت آثرت المضي الرحيل لتجربة جديدة في عالم ممتلئ بالخفايا التي أجهلها وخاليًا من المخاوف التي يخبرون بها كل مغادر محذرين الأمر لم يكن هينًا في البداية لم أسعَ للسفر، لكنه النصيب، أمور تأتي لك يضعها الله في طريقك وتختارها أحيانًا بلا قرار، تجد نفسك مستسلمًا لخطوات وإجراءات وكأنك في حلم، رزق تطلبه بدعوة وضياء ويتحقق أمامك في استجابة كان الأمر هينًا وأردت التجربة، سكن للمغتربات عمل للمدرسات في بلد خليجي أمان وراتب شهري بحسابات العمر الذي مضى هو جيد إلى حد كبير، الاطمئنان لكل شيء جعلني أتخذ قراري عقب سكن القلب وراحة أعقبت الاستخارة

صالات الانتظار في العودة تختلف كثيرًا عنها في المغادرة، ما كان يعصر قلبي مغادرة إلا دموع أمي التي تزداد انهمارًا ويزيد وقعها في قلبي صدى، وألم ضميري يصارعني في حلبة ويطرحني مرارًا على وسادة أحلامي خوفًا وقلقًا عليها دامعة الغربة وقت طويل وحدة قاتلة وخوف، فأنا فتاة العمل لم يكن شاقًا، التعليم والمعلمون هناك منظومة تعرفين خباياها سريعًا، هناك تعيشين أوجاع القارات واختلاف القرى وحكايا المدن في كل بلد كل شخص منا يختلف عن الآخر، وعقلي يفكر ما أبدع الخالق! أين نحن من هذا الكون الفسيح، وفهم كبير لمعرفة الله بالسر والنجوى وما تخفية صدورنا

كنا نصنع الفرح ونختبر يوم الإجازة الأسبوعية في عمل جماعي لصنف المأكولات ولا نكف عن الضحك ويأسر قلوبنا من يجيد الاحتواء، فتجد لنفسك قلبًا يقتسم أوجاعك ويهون الهموم، لكنك بدون أهل ضعيف، كل خطوة تخطوها لها ألف حساب،

ولا يكف قلبك عن القلق ذلك الذي لا يسكن ولا يطمئن إلا بذكر الله قلقي على أمي كان كبيرًا، ابتعادي عنها جعلها حزينة

عالمها كان أنا، حديثها دومًا عنّي، فأحب أبنائك إليك غائبهم حتى يعود، وقتها وتسليتها وفراغها أملاؤه بوقع الضحك وسعادة قلبها الذي يحتويني في كل وقت ويأسر عقلي وجوارحي خوفًا عليها، حنانها كان عظيمًا لا أعلم ربما لأنني وحيدتها ربما، لم قاسته هي الأخرى؟ حقًّا لا أعرف

دومًا كنت أخبرها أنها صخر وأنها تحملت حياة ظالمة لا أقوي على تخيلها وتخبرني هي دائمًا على قدر الحب يأتي البلاء وعلى قدر الشكر تأتي المنح والعطايا

لكنك ظُلمت مرارًا أمي، فلا تعليم بدعوى أن البنت مصيرها الزواج وأن وطنها خدمة زوجها وأبنائها، ولا ميراث ولا حتى حقًا في اختيار شريك الحياة وطنك المستقبلي

أجابتني زمننا مختلف أنتِ حظك أفضل إيثار أترين كيف حرصت على تعليم إخوتك زوجي الأول كان صعبًا لم يحبني ولم يسرحني سراحًا جميلًا حين كرهني أحلامي كانت بسيطة لا تتعدي رغبة في مأكل أو مشرب أو ملبس جديد، حتى هذه الأمور كنت أزهدها حينًا ربتنا أمي على أن المرأة لبيت زوجها لا تخرج منه إلا على القبر وأن حياتنا علينا تحملها، لم أختر أبدًا حياتي دومًا، كان هناك من يقرر عني حتى طلاقي تفاجأت به أردته أن يكمل جميله أن يعطيني الحق المعلوم، القرآن أخبرنا بذلك فلماذا نصرّ على فهم بعض آياته ونتجاهل البعض الآخر، مصحفنا منهج جميل، وكثيرون يغفلون عن فهم تلك السطور، ويسرعون لترجمة ما تزينه أهوائهم أمي أحبك

لا وصف يمكنه أن يصف روعة حياتي بجانبك تمازحني قائلة: أين حلوى اليوم إيثار؟

عودتني على حلواكِ اليومية حتى بت أنتظرها مع عودتك يوميًا من الجامعة، تفوقك أبهرني وحياتي اختلف وقعها بوجودك، تميل لي هامسة في رقة، أنتِ ابنة بارة وقلبي عنك راض، أغلقُ عينيّ في أسى، آه يا أمي كم اشتقت إليك، لماذا أسميتني إيثار؟ ما معنى هذا الاسم الذي لا أجده واصفًا إلا قلبك أمي؟

ما رحلت لبلد جديد إلا طلبًا للمال أغلقت الدنيا عينيها في وجهي فبت أطلب صحف الهجر في بلاد الله الواسعة، الفراغ يجعلك تتذكر كل شيء، تفاصيل كنت عنها

غائبة، أو أمورًا كنت تظن أنها تافهة وسطحية، أبادر إلى وعائي النحاسي، هدية جدي لي السنوات الأولى من عمر قلبي في ظل الجد وطيب المجلس، كل لحظة معه أذكرها بشدة، لا يكف قلبي عن تذكره كلما أصابني الوهن، وقع مجلسه وعلبة الأرواح البلاستيكية التي أذكر وصفها بدقة، وينحفر ملمسها على يدي وفي رأسي بسخاء يخبئ فيها أشكال الحلوى، نعناعه المنعش، ويترك لي حرية الاختيار فيخبرني برفق أن أفتح علبته وأحصل منها على ما أريد، مكافئة كبيرة في كل يوم كنت أنتظرها ولا يعطيها لي إلا لو حللت اللغز، يمسك بكتاب ويتلو منه حديثًا أو يجعلني أقرأ، ثم يختبرني، هه أجيبي ماذا استفدت من هذا الحديث؟ أجيب الخلق يا جدي؟ ماذا بعد؟ الأمانة جيد، ماذا أيضًا؟ البر، ها أجيبي؟ مراعاة الجار، أحسنت ماذا أيضًا؟ الصدقة، عدم النفاق، ماذا يعني النفاق؟ كان معلمًا ذكيًا فلا مباشرة للتعليم يجعلني بنفسي أفكر فيوقظ ذهني دون أن أشعر، ويلتصق الأمر في رأسي فلا يغادرني دون أن أكون قد حفظته عن ظهر قلب، ثم يعطيني جنيهًا ويرقص قلبي فرحًا، كان هذا بالنسبة لي كنزًا ثمينًا ثم وجدته يفعل شيئًا غريبًا يمسح النقود بهادة ما متطايرة لا لون لها لكن رائحتها زكية جدًا، ما زالت هذه الرائحة في أنفي وذاكرتي، لم أكن أعرف ما سر هذا الفعل، وهو لم يكن يجيب عن هذا التساؤل، ينظر إليّ ويربت على كتفي قائلًا: غدًا ستكبرين وستعرفين، عطرت النقود مرارًا وأنا أنفقها صدقة عليه، وحملت قلبي إلى كتّاب الجامع دافعة أجرة الشهر جنيهًا أكملت وجودي فيه حتى الصف الأول الإعدادي وانشغلت بوقع الحياة حين ابتعدت عنه، الأمور التي تتغير في عالمك تثقلك بالخبرة وتزرع بداخلك الابتسامة مهما امتلأ جوفك بلحظات الضعف، عامان ثم عدت بعدهما إلى الوطن وتخللتهما زيارة لبيت الله الحرام في صحبة نسائية كاملة، وقع رؤية تلك المشاهد وتذوق الماء هناك أسرني وأمنية ليتك يا أمي كنتِ معي افتقدت السند حين مرضت وشعرت بهذا الأمر وأنا في طريقي إلى هناك، فالطريق طويل وأنا لم أتعود على السفر، أدركت تمامًا حكمة أن يصحبني في السفر أخ أو أب أو زوج، المهم أن يكون لك سند حتى إذا مالت قواك أنهضك ورفع عنك الحزن والضعف، اللجوء إلى الله في كل وقت ودعوة أم في الخفاء لكي بالستر، ما أروع تلك الدعوة! الستر وأن يسخر الله لكِ أبناء الحلال، لمستها هناك وعشت تفاصيل رعايتهم لي، أب وأم وابنهما وزوجته، أسرة جميلة لم يتركوني ولم أتركهم من دعائي بعد

الافتراق فالأماكن تجمعنا والأزمان تفرقنا

العودة كان وقعها صعبًا التعود على طريقة معينة في الغربة يظل لك ملازمًا لكن الوقت كفيل بكل شيء والنصح الذي تطلبه من أهل الخبرة يقيك من عثرات الطريق ويفتح منافذ الخير والبركة، العمل يحتاج كثيرًا من الصبر لكني أعتبره تجربة مريرة تصادفين فيها من يظنُّ أنك ضعيفة فيرتفع صوته وتفكرين أنتِ أنكِ بذلك تترفعين عن الرد فيزداد وقع الصوت علوًا وتضطرين للرد تجدين أشياء تغيرت فيك ببطء، فالشجرة العالية مهما زادت رفعتها لا تسلم من قفز القرود وزحف الحيات ثم بعد برهة تألفين الأمر وتتعلمين أن تضعي بعض الناس في قالب الشخصيات الكرتونية، شر يطغى على خير وخير وجوده طاغ يفسر بنفوس الناس لمسميات أخرى وأسماء يصفون بها الناس ويحكمون عليهم دونً تحقق من قلوبهم لا يخلو أحد منا من شر يظهر في وقت ما مهما كنا خيرين، لكن الطيبين الأنقياء في عالمنا لا يزيد عددهم عن عدد أصابع الكف، هؤلاء الصادقون وحدهم هم من يحتلون قلوبنا بمهارة.

وسألت نفسي عن الحب: أين هو منك إيثار؟ وأين أنتِ منه؟

لماذا لم يطرق الحب بابي؟ هل ظلموا الحب والزواج حين شبهوه بالقطار؟

القطار الذي كنت أركبه من قريتي الصغيرة فأمر على الزرع وأتفحص الأزهار التي أقف عندها برهة وأتناول معطفي فأحتضنه وأنا أفكر في خضرة الزرع وصفائه وقلوب الفلاحين المعلقة بوقت حصاده حصدًا لمال ينشدونه من ورائه، أشاهد الأماكن وأتخيل موقعي معهم، ويأسرني النسيم البارد حين يهب عليهم، وحين أخشى على جذورهم من الأذى؛ أي جذور تلك التي تربطني إلى هذا الحد بالوطن فلا يغادر قلبي ولا أغادره حتى لو حملتنا أقطار الأرض طلبًا للرزق، لماذا يظل جزء منا قابعًا مشتاقًا لكل بسمة كانت تنقلني من الهم إلى الحب فلا أراه إلا من خلال أمي

الحب عشت وجع تأخره حتى إذا حل في حياتي تعجبت من وجعه حين تركني الأمر في البداية كان جميلًا

البدايات دائمًا جميلة في الحب

وقلبي يخفق للمرة الأولى، أنتظر اتصالاته ويغدو قلبي فرحًا مشرقًا وأنا أفكر في حياتي معه وفي حلم الأمومة الذي رأيته تحقق مع صديقات وأخوات أصغر مني سنًا،

فأحلم لأن ليس لخيالنا عائق حتى لو لم يتحقق نملك مخيلة في النهاية ربما تجعلنا نفرح ولو لوقت

مملكتي التي سأزين أركانها وبيتي الذي أحلم بتكويناته المبهجة وماذا سأضع وكيف كان هذا حلم جميل تبتسمين لمجرد تفكيرك في هذا الأمر وتشعرين أنه أصبح قريبًا منك، أما هو فلم ألحظ أي جدية منه، وكأنه كان يجرب أمر الارتباط، يختبر وقع الأمر ويغرز في قلبي خنجرًا بلا رحمة، دومًا كانت المبادرة مني ما نتفق عليه يحدث عكسه، بمجرد استماعه لصوت آخر في أذنه المسؤولية أن أتزوج رجلًا أعتمد أنا عليه ولا يعتمد هو على غيره في اتخاذ القرار، افتعال للمشكلات بلا سبب وقرار منه أن يختار حكمًا من أهله وحكمًا من أهلي، وعقلي يتعجب، لم نتزوج بعد حتى تقيم الدنيا بهذا الشكل، وتطلب نصح الغرباء وتصبح فجأة مشكلاتنا على ألسنتهم، ومع ذلك تغاضيت عن الأمر، في مقاييس الصلح ينبغي أن تتخذي حكيمًا حتى إذا تكلم أصلح...ضعي شخصًا مجنونًا في أي مكان وسيكون كفيلًا بإفساد الأمر، آلمني الأمر كثيرًا وأخذت قراري بألا أكمل معه الطريق

طريق آثرت فيه رحيلًا عوضًا عن حضور مرهق أمضي فيه عن نفسي مدافعة كل الحياة، إيثار كان قلبي مثل الوصف، ولم أملك إلا الوقت الذي أؤثر فيه على نفسي أي شيء من أجل أصدقائي، فأغدو حاملة معهم أوجاعهم وساعية لإفراغ أنات قلوبهن ومهدئة للشكوى وحلًا حازمًا برأي نابع عن محبة صادقة لهن

حتى إذا حل وقت الربيع وغادر الشتاء بغرسه راقبت التغير الذي يحدث سريعًا وراقبت الناس الذين يتغيرون ويتبدلون كتغير المواسم والفصول وراقبت قلبي وتناثر أمام عيني وتبعثر ملامح الدرب والذي بدا لي أنه كان سرابًا وأنا التي لم أكن أصدّق منذ البداية، قلب أمي كان حزينًا بشدة فهي تريد أن تطمئن عليّ في بيت زوج يكرمني، أخبرتني أن أغادر لأن لها هي حديثًا معه فأشعر وأنا أختبئ سامعة قولها بالحماية بالدفاع عن صغيرتها، تدمع عيناي على الأحلام التي غادرت سمائي ويفرح قلبي بوقع صدى قولها عني، الرضا والسلام الداخلي ليست أقوالًا هي أشياء تلمسينها في جوفك وأبتسم حين أراني قد ورثتها عنها

لم أنزعج يومًا من تأخر الحب كما آلمني حين اختبرت أحلامه فغادرني هو سريعًا في

الغربة صادفت قلوبًا أرادت أن تكمل في زهو الحب ذاك وقررت أن تحتمل أي عيوب حتى لا يهرب حلم الحياة الزوجية منها متعذرة بالوقت الذي يمضي، فكانت النتيجة جرحًا أعمق بالانفصال، تذكرت ذلك وأنا أرتب كل الهدايا الخاصة بذاك الزمن، وأدفع بها بلا رجعة إلى خارج بيتي وزمني، راقبتها وهي ترحل عني وآثرت أن يتأخر الحب

صادفت من البشر ألوانًا عدة وابتسمت حين صنفتهم اعتمادًا على خبرة اكتسبتها من وقع الحياة، وابتسمت متذكرة كم كنت ساذجة في الماضي أضع كلا منهم في المكان المناسب

قد يتأخّر الحب لكننا لسنا بحاجة للبحث عنه لا يمكن أن نكمل حياتنا خائفين الحب يجعلنا أقوى حتى لو مررنا بكل جوانبه ومشاقه ونزاعاته وحده الحب الحق هو ما يصمد وسط كل تلك المعارك، الحب وقت على الأرض سعادة ننشد منها خير الدنيا كحسنتها وننسى أنه وسيلة أيضًا لحسنة الآخرة، الحب شطر على نصف الأرض من جهة وشطر آخر يبحث عنه

الأكثر حظًا من يحصل عليه والأكثر تعاسة من لا يجده والأكثر شقاء من يقضي بقية حياته في محاولة نسيانه والأكثر وجعًا من يظن أن تأخره هو أكبر أحزانه في هذه الدنيا

تأخر الحب قد يكون رسالة تحمل لنا السعادة وتختزن لنا اللقاء لوقت معلوم كي ندرك أن الأحلام التي كنا نظن أنها أكبر انتصاراتنا ما هي إلا صورة ساطعة لبدايات جديدة

رسائل الحب وتأخرها وسجعها بداية جميلة

لتكن رسالة للقلب عن الحب ومن أجل الحب

راية الاستسلام

ألم تحبي قط بعده؟

لم أكن حرة لأحب كان لديّ أشياء أخرى أكثر وجعًا كي أقلق بشأنها

لون الحب في عالمي كان قويًا فور أن يحل يرحل وكأنه غبار تبعثر قبل الالتقاء

عشرون عامًا كانت كافية كي أكمل الرسالة، رحيل يوسف وهو في عقده الثالث كان شيء يصعب على عقلي تحمله

اللمحة الأخيرة تلتصق في العقل دون غيرها وهنا في قلبي ملايين الذكريات التي ينبغي أن ترحل بسلام دون ترك لأثر طاحن بداخلك، كنا صغارًا لا نحمل في قلوبنا همًا ولا علمًا ويعرف غيرك أنكِ متى علمتِ بفقد من تحبين لن تتحملي وستصرخين منددة بكل شيء وساخطة على كل شيء، لم يخبروني في المشفى اتقاءً لهذا اللغط وفي طريق العودة لم أكن أعلم أنه خلفي عائد هو الآخر جسدًا بلا روح، يوسف هنا في قلبي وهنا أيضًا ينبغي أن أكْمِل، فكيف يمكن للقلب أن يستقر وهو في تأرجح بين العالمين الماضي والحاضر، تُرى لمن سيعلن القلب راية الاستسلام

تزوجي يا أمل استمعي لنصيحتي وتزوجي

تبتسم وقد تورد وجهها وعيناها في لمعان ضعيف يوسف كان يختلف عني كثيرًا

كان يخبرني دائمًا أنني وحيدة على عكسه لأنني لم يكن لي توقعات حالمة وكثيرة مثله، لم أكن كثيرة الأحلام والرغبات والأمنيات وقتي لا أفكر إلا في يومي الذي أغتنمه لسعادة أظنها سريعة الزوال حتى حين أضحك من قلبي أقول ربي اجعله خيرًا

السعادة قرار نهمله حين نعقد العزم على الخوف منه

كنت دومًا أنصح ابنتي لا تتمادي أبدًا في إغلاق عينيك من الحزن

اغتنمي كل لحظة كي لا تهدرين حياتك بلا جدوى

أخبريني إذن أمل لم لا تتزوجين؟ رسالتك على حد قولك قد اكتملت، ابنتك تزوجت وولدك عليّ أعتاب المغادرة لحياته الجديدة أيضًا وأنتِ في عقدك الرابع

لا أعلم رقية كيف أمكنني أن أفكر في الأمر بعد كل هذه السنوات، كيف أمكنني أن أُنكّس أعلام يوسف من كل حوائطي، أن أُخفيَ كتاب الذكريات معه لأضعها في صندوق مظلم بعيد عن هنا عن قلبي، يوسف في حياتي كان حلمًا سريعًا مضى دون أن يمنحني أي وقت سوى الاستسلام؛ استسلام لحقائق البحث عن حلول بديلة ومتقنة لقلبين صغيرين عيناهما تتطلع إلى هرم صامد أمامهما، أنا كل ما يملكان، وحياتي أصبحت خاوية من أهل زوج اختاروا الابتعاد خوفًا من أرملة وحيدة وبائسة، فالعادات تخبر أن زوجة الأخ ينبغي رعايتها بزوج من العائلة نفسها، لا يعلمون أني ما طلبت غير حسن مودة بالمعروف، وما نذرت نفسي إلا لرسالة أسمى من أي شيء في هذه الدنيا

أنا هرم هش

صدقيني القوة التي نصطنعها أحيانًا ما هي إلا وجه براق كالمرآة يعكس عنا الأذى من كل نفس مريضة

لكنك تهربين من السؤال لم لا تتزوجين يا أمل؟

لا أعلم لأول مرة منذ عشرين عامًا قلبي يخفق بالحب يماثلني في العمر، دق باب بيتنا وحملت أمي له أكواب العصير، نظرت لمرآتي وأطلقت جذور شعري كي تسترسل في تناغم واضح غطيت الشيب وشرعت أضع حمرة للخدود وكحلًا للعين وقفت طويلًا أمام مرآتي، غرفتي اليوم لا تختلف كثيرًا عن غرفتي منذ عشرين عامًا، الزمن هنا تغير، وقلبي تمنى أن يعيش وهج اللحظة دون حسابات، هل أنا حقًّا جميلةٌ؟ لا حب يماثل حبي ليوسف، ولا حب يجعلني مشرقة كحب جديد يخبرني أن الحياة يمكنها أن تستمر، وعتب على مكالمات هاتفية لا تأتيني من بلاد بعيدة لابنة وجدت في حياة جديدة وباهرة انشغالًا عن كل شيء حتى أنا أمها، وحين تزور أرض الوطن وتجلس في جدران بيت الطفولة لا تستند إليه شوقًا بل تنقد كل ما فيه متأففة تنفق المال وكأنها تريد أن تثبت للعالم أنها تمتلكه لم أَعْمد لحرمانها من شيء، لكن خوفي الدائم وقلة مصادر الدخل كانت هي السبب، الرونق الذي صبغ وجهي وأنتم تختبرون فرحتي الشديدة بعد عام غياب وأنا أسابق الزمن سعيًا لاستقبالها، وحلم بأنس صحبتها التي ما إن تركتني مغادرة حتى حل على قلبي حزن فراق لحبيبة صغيرة، هذا الرونق لم يعد له وجود، لا أعتبر هذا عقوقًا

لكنها صغيرة والحياة أمامها كبيرة ومبهرة، هي تلهث كي تحصل على كل ما تريد وأنا لا أشتاق سوى لوجودها بجانبي ولرؤيتها سعيدة مهما ابتعدت

كنت محظوظة كي تقع في الحب من خلالي ويتهافت عليها كل الخطاب فلا يغادروننا إلا لعيوب متفاوتة الأمر الذي يجعلك على يقين أن النصيب لم يحل دوره، بعد ثم باسم شاب ذو خلق ومكانة تعليمية جيدة غادره الحب غدرًا هو الآخر، زفافه لم يكتمل، أرسل لخطيبته أموال أعوام عدة كي تُنشئ شقة الزوجية فاشترت شقة ثم امتلكت اسمها على أوراقها، آثر حثها على التراجع وأن تصحح خطأ الأمانة التي لم تكن أهلًا لها فكان الرفض، الأمانة لا تختلف كانت دينارًا أو قنطارًا، الأمانة حياة لم تكن لتكتمل جوانبها معها، فأرسل لها ورقة الطلاق، فكتب الكتاب كان لا بد له هو الآخر من أوراق تغادرنا ليحل بدلًا منها مصطلح الفراق وتحدثينني يا رقية عن القلوب

القلوب مليئة بالحكايا

ابنتي كانت هي الحب الذي أرسل الدواء لقلبه حتى بات لا يعرف كيف أهدر من عمره كل تلك السنوات دونها، المصائب لها حكمة، والحكمة هنا كانت أن يعرف عِظَم قيمة القلب الذي سكن إليه برحمة الله، فلم يغادرِ القلب البستان سوى بمودة لفروع شجر إلى السماء منطلقًا منطلقًا حد النسيان، نسيانَ كل شيء وأي شيء من الماضي حتى لو كان هذا الماضي أنا أمها

سعادتها هي ما تجعلني سعيدة، وحياتها بكل ما تحمله من رحيل عني جعلني ألتفت في لحظة لقلبي المخبّأ فنكست أعلام الماضي وكأنني أعلن الراية راية الاستسلام وشرعت أفكر للحظة فيما ظللت دهرًا أرفضه من أجلهما

إذًا تحركي يا أمل كي تبحثي لقلبك عن شيء جديد وآسر، قلب رحيم تكملين حياتك معه، قلب يجعل قلبك الصغير هذا يتحرك نحو منطقة أخرى نحو الأمنيات

قلبي شارد يا رقية لا يعرف حقًّا وجهته، هل يلزم الميناء أم يغامر كالسفن إبحارًا نحو حق في الحياة

صدقيني رقية يومًا ما ستملكين سفينة جميلة تبحرين فيها نحو كل شيء تتمنيه فلا تتردي وواصلي المسيرة ولا تظني أن تلك السفينة في الميناء سعيدة وآمنة لا يا عزيزتي إنها لم تخلق لذلك أطلقي لها العنان دون خوف ودون حسابات املكي راية دائمة، دفة

تبحرين فيها نحو حياة، تصنعين أنتِ تفاصيلها أصلحي قارب حياتك أنتِ مسؤولة عن ذلك صدقيني ليس سهلًا أن يغادر قاربك زوجك ولا أن تمسكي دفته وحدك لا تصدقي أن الأمر هين عزيزتي، ولا أن الموج بكل هدوئه ولحظات صخبه لن يصنع بداخلك فراغًا قاحلًا قاحطًا

الزواج والطلاق والحياة والأولاد والانكسارات والأمنيات جميعها لا تعلقي راية الاستسلام فيتسرب عمرك من بين يديك دون جدوى فتصبحين عالقة لا تملكين تغيير الماضي ولا شجاعة صنع الحاضر، أصلحي حياتك، جففي نبع المشكلات وأزيلي الصدأ الناتج عن كل الأجواء المَاكرة، أصلحي ثقوب القارب كي يستمر أرشديه نحو السعادة وتأكدي أنكِ ستحصلين على المكافأة في النهاية، افهمي الرسائل وحوليها لأمل عظيم

نلهث أعمارًا كاملة نقدم النصح ونضع الحلول ونكتب السعادة للأحباب ويأتي الوقت الذي لا يمكننا فيها معرفة رسائلنا الخاصة ولا قراراتنا في الحب وعنه

القلوب حبيبتي مواقيت الله وحده هو من يأذن لها أن تتحرك وهو وحده من يأذن لها أن تتوقف لفترة أو ربما إلى الأبد

الأهم هو أن نظل فيها مجاهدين وألا نعلق أبدًا

راية الاستسلام

موهبة

هل تشاهد يأسًا أم تشاهد أملًا؟ الأمر يتعلق بقدرتك على أن تشاهد، أن تبصر فيترجم عقلك وقلبك ما تراه، ويختلف وقعه في أذهان الناس، حين يرون ما رسمت أنت حقًّا موهوب، رسوماتك جيدة أرى فيها بساطة ودقة، لَمَ لَمْ ترحل بها لدور المجلات وصفحات الجرائد، مهارة يدك تلك بحاجة لكي يراها النَاس، عليك أن تحاول المضي بها قدمًا، أتظنين أنني لم أحاول؟ حاولت مرارًا وكان العائق أنني لا أحمل مؤهلًا جامعيًا ولا أجيد عالم القراءة والكتابة، لا يعلمون أنني جبت المدن رحيلًا لكل الأقطار وقرأت في عيون الناس أوجاعهم التي يحملونها ضاحكين، أبصرت انفعالاتهم التي يصطنعونها وخبرت تلك الأخرى السعيدة البادرة من أعماقهم، رضا تقاسيم الأوجه تخبرك بالكثير ولا يفقه اللغز غير من يجيد ألوان المشاعر، يمدحني البعض هذا فن وريشتك التي أُبْصر بها لوحاتك تدل على موهبة حقة، فأبتسم، وأغلف الرسمة التي لم تستغرق مني وقتًا فيحملونها مغادرين وأَسْعَدُ لفرحتهم إذا عادوا بعد زمن وينبهرون لأنني لم أنسهم

الشهادات الجامعية التي لا أملكها وأظل أردد خلف كل عتب باحثًا عن العمل إنها ليست نهاية المطاف وإنه أمام الموهبة تنهار السدود وتصبح الأمور في سهولتها متناسبة ومتناسقة وأبسط مما نظن، فتحترم الهبات التي نرزق بها وتحتضنها لكن الحقيقة التي هدمتني أنني لم أفلح

فعرفت طريقي اليومي دون الحاجة لهم، يحل وقت العصر فأحمل مرسمي وأدواتي حتى أصل لمدينة الملاهي، أختار موقعًا جيدًا للعمل أُظهر الرسومات ومن خلالها أحلِّق فينبهر بها البعض ولا يهتم البعض الآخر فمتذوقو الجمال بات عددهم يتضاءل وكأنهم ألفوا القبح السائد في محيط هوائهم حتى أصبحوا لا يُبصرون أي شيء

لا يعلمون أننا حين ننهي لوحة ونعطيها لهم فالأمر ليس بمثابة عمل هو بمثابة ميلاد لأمل يغادرك فتفرح لمنحهم ما يريدون وتحزن لمغادرة اللوحة لمنزل قلبك إلى منازل الآخرين وكأنك فقدت شيئًا عزيزا عليك

تمنيت ألا يهاجر ولدي، ألا يرحل، يخبرني أنه لن يكرر مأساتي، سيبحر لوطن آخر علَّه يصادف من يحترم موهبته فيرعاها وتبدو في عينيه الدنيا أفضل، أنا أعيش لهدف بقائه بجانبي، ولا أحتمل فكرة أن يغادرني راحلًا، نصحته مرارًا كي لا يفطر قلب من أحبته بصدق وقصصت عليه وقع الندم الذي سيحصده لو قرر تركها، حدثته عن الأمر دون أن يعرف أنني بطل القصة، وأردت أن يعي الدرس جيدًا دون أن يعرف شيئًا عن ماضي أبيه في الحب

الحب الذي كان متمسكًا بي وبقلبي وأجدت أنا سحقه باستعلاء، الحب الذي كان يخشى كدري ويحترم زمني ويطبب انفعالاتي صابرًا على الجفاء وأنا ما يزيدني ذلك إلا عنادًا، الحب الذي تمنى قربي دون طلب وبسمتي دون رد مادحًا الحب الذي وعد أن يكون لي حارسًا ولأوجاعي عاشقًا، ذاك الذي رسم معي قصور الأمنيات وظل يجود ملامح هذا القصر حالمًا، فما كان مني إلا أن هدمت الجدار على قلبها حارقًا كل المعاني كل الود وكل اللهفة وكل الأمل الذي أحاط بها

نزعت يدي من يدها وآثرت المضي مخلفًا ورائي حبًا كبيرًا لحب جديد فما سقاني إلا نارًا فحطم أحلامي وكياني كما حطمت أحلام الحبيبة الأولى بقرار تركي لها، ما كان شقائي مع أمه إلا انتقام الله لي فما فعلت شيئًا إلا الصبر على هذا البلاء وما زاد ألمي إلا معرفتي أنها رحلت انتحارًا

لمت قلبي كيف جعلها هذا تخسر دنياها وآخرتها من أجل ماذا تهون الحياة على سكانها، حزني عليها قتل كل فرحة في قلبي وكتمت الأمر حتى بات قلبي يحترق من الندم

في كل لوحة من لوحاتي رسمت أوجاعي عنها دون أن تكون هي بطلة القصة ووضعت أسراري بها دون أن يعرف أحد شيئًا وظللت أقاوم نارها في قلبي فلم تنطفئ

ثم لم تحتمل زوجتي الأمور، تفننت في بث سموم التعاسة حتى أصبحت العودة للبيت أمرًا ثقيلًا أهرب به من كل شيء كل وهن وكل ضعف وكل فشل وكل تعاسة وكل حلم ضائع وكل مسؤولية ترهق نفسي، وكان هذا المكان للهروب من قسوة الواقع

سألت نفسي على امتداد حياتي هل كانت موهبتي منحة ما؟ هل كان اللقاء والحب والفراق رسالة ما مزقتها بنفسي؟ كيف يمكننا أن نظلم قلوبنا هكذا؟

ليتني ملكت الماضي، ليتني أستطيع تغيره، ليتني أرحل عن كل ما هو قبيح ومؤلم، ليتني كنت قادرًا على صنع لوحة جميلة لمازن، ربما وضعته بداخلها وعلقته على جداري كي يكون قريبًا مني، ليته لم يرث تلك الهبة ليرحل بعيدًا طالبًا للفن في بلاد النور هناك في باريس، ليته كان محدود العلم كي لا يفكر فيما فكرت أنا فيه، ليتني لم أختبر وجع فراقه وخطابات لا تصل إلا قليلًا، السفن تغادرنا تحمل بضائعنا وأحلامنا، تتركنا على الميناء حالمين ونظل نسأل الوقت عن المضي منتظرين وبين كل مغادرة وخلف كل وداع وتحت كل عودة تضيع مواهبنا كما الرياح، الألوان قد تخلق بداخلنا زيتًا ما يشغل الضوء تارة ويحرق أجفاننا تارة أخرى، تمنيت لك عنوانًا أبعث عبره الرسائل لأخبرك كم أشتاق إليك وكم أصبحت غريبًا وحدي دونك هنا في وطني، لكم تمنيت لو كنت أملك الأقلام فأكتب كما أملك بقوة فرشاتي التي بها أسافر مع الأحلام وتعجبت كثيرًا، كيف غلبني الخيال في وقت ما حتى سجلت فرشاتي شيئًا لم تبصره عيناي، تمنيت أن أصنع مئات الرسائل كي تعود وحملت بعضها في أرجل الحمام وربطت بها ألوانًا مزجناها معًا كما الحياة حملتها على أجنحة طائر وأطلقتها بعيدًا ليتها تصل لك مع كل لوحة رسمتها كانت طيرًا تعبت أجنحته من أثقال السعي، عشت في الحياة دائمًا كقطار الموت لكن لم يكن بمتعته بل بخوفه، ليتنا نلتقي يومًا مازن ليتنا نحيا بوقتنا ولحظاتنا الخاصة معًا ليتها لم تكن موهبة كي تغادرني تغادر قلبي ويغادر قلبك دون عودة

الموهبة قد تكون رسالة للقلب

وقد تكون أيضًا سببًا للرحيل عنه

تمت بحمد الله

فهرس الموضوعات

الإهداء 11
نسيان 15
الجبل الصامد 32
شرائطي البيضاء - الصف الأخير 62
أخطاء الماضي - الرباط 77
جنة 91
الصنف الرابع 108
الساعة الرملية 128
لقاء 147
الأرض 150
خط ضعيف 160
صديقي الهم 171
الحب... داء ودواء 176
قبلة ودمعة 181
الجميلة والقبح 191
فستان الخرز 196
مسارات الحب 199

صندوق الدمى 203
أحبه... ولكن 207
تأخر الحب 209
راية الاستسلام 215
موهبة 219